محمد حسنين هيكل

عِنْدَ مُفتَرَق الطُرُق

حَرب أكتوبَر...
ماذا حَدث فيها وماذا حَدث بعدها!



عند مفترق الطرق

حرب أكتوبر...
ماذا حدث فيها
وماذا حدث بعدها!

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الطبعة الثالثة

محمد حسنين هيكل

عند مفترق الطرق

حرب أكتوبر...
ماذا حدث فيها
وماذا حدث بعدها!

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مقدمة

هـذه المجموعـة من الأحاديث لهـا عندي منـزلة خـاصة، فلقـد كانت مفتـرق الطرق بـين الرئيس المصـري السابق «أنـور السادات» ـ يـرحمه الله ـ وبيني . .

كـانت آخر مـا كتبت ونشرت في الأهـرام في الفترة مـا بـين ٥ أكتـوبـر ١٩٧٣ وحتى أول فبراير ١٩٧٤ .

أي أنها سبقت بدء عمليات حرب أكتوبر بيوم واحـد، ثم توقفت بعـد اتمام الاتفاق المبدئي على فك الارتباط الأول بأسبوع واحد .

مسافة اربعة شهور كانت حاسمـة وفاصلة في تـأثيرهـا ـ ليس فقط على مستـوى تاريخ الشعب المصري وأمتـه العربيـة ـ ولكن أيضـاً عـلى المستـوى الشخصي والمهني .

□

قبـل كتابـة ونشر هـذه المجموعـة من الأحاديث ـ كنت قـريباً من قمـة السلطة في مصـر، وبعد كتـابتهـا ونشـرهـا أصبحت مبعـداً عنهـا ومقصيـاً ـ ورضيت .

وقبل كتابة ونشر هذه المجموعـة من الأحاديث ـ كنت أعيش وأكتب في

مصر، وبعد كتابتها ونشرها أصبحت أعيش في مصر وأكتب خارجها - وقبلت.

وأعترف أنني - أثناء الكتابة والنشر - تلقيت النصيحة تلو النصيحة بأن أتوقف - «وإلّا!».

ولم أكن على استعداد لتحمل مسئولية أن أتوقف، ولكني كنت على استعداد لتحمل مسئولية: «وإلّا».

وتحملتها عن طيب خاطر، بل لعلي لا أتجاوز اذا قلت أنني تحملتها بشيء كثير من الرضا الداخلي والسلام مع النفس. كنت مقتنعاً بأن كل مشتغل بالشئون العامة تواجهه في حياته لحظة يتحتم عليه فيها أن يقف - دون تردد أو تلعثم - ليجعل صوته مسموعاً ومفهوماً، ثم ليكن بعدها ما يكون!

وبالنسبة لي فإن ظروف حرب أكتوبر والملابسات التي أحاطت بها في فترة تلك الشهور الأربعة الحاسمة والفاصلة، وضعت أمامي - أو وضعتني أمام - ما لا يجوز فيه التردد أو التلعثم - كذلك أحسست. وكان النداء غلاباً، وأطعت عارفاً مقدماً بحجم التكاليف، وأولها: الخروج!

وكان الرئيس «السادات» يراهن في الضغط عليّ بأوراق ثلاث ظنها رابحة:

- الورقة الأولى أنني لن «أطيق البعاد» عن لعبة السياسة العليا في مصر، وقد كانت أصابعي فيها لأكثر من عشرين عاماً، والقرب من لعبة السياسة العليا في أي بلد في العالم حالة يمكن أن تكون لها قوة الادمان!
- والورقة الثانية أنني لن «أقدر على الفراق» مع الاهرام بعد أن وضعت فيه من سنوات عمري ما وضعت - أكثر من ثمانية عشرة عاماً هي الشباب كله، وما بعد الشباب!
- والورقة الثالثة هي أنني لن «أجد ما أعمله» اذا ابتعدت. فالمهنة التي اخترتها لنفسي - الصحافة - أصبحت في مصر ملكاً خالصاً لسلطة الدولة،

فاذا أنا خرجت من أحد الأبواب فقد خرجت من كل الأبواب!

وأشهد لـ «أنور السادات» أنه حاول أن يترك الباب نصف مفتوح بعد الخروج. فلقد كان قراره الأول المنشور في كل الصحف صباح يوم ٢ فبراير - أن أنتقل من الاهرام الى قصر عابدين مستشاراً لرئيس الجمهورية. ولم أضع قدماي في قصر عابدين. ولخصت موقفي في تصريح نشرته صحيفة «الصنداي تيمس» في عددها الصادر يوم ٩ فبراير ١٩٧٤، وقلت في هذا التصريح:

«أنني استعملت حقي في التعبير عن رأيي. ثم أن الرئيس السادات استعمل سلطته».

وسلطة الرئيس قد تخول له أن يقول لي: «اترك الاهرام»- ولكن هذه السلطة لا تخول له أن يحدد لي أين أذهب بعد ذلك. القرار الأول يملكه وحده.. والقرار الثاني أملكه وحدي!».

وخرجت، ولم أعد بعدها، ولا أظنني أريد أن أعود.

لم أعد - ولا أظنني أريد أن أعود الى لعبة السياسة العليا وما فيها من قوة الادمان، ثم ان تطورات الأحوال لم تترك لي مجالاً لمعاودة التفكير. لقد كنت مشدوداً الى ما يجري على الساحة حين كانت المنطقة «مسرحاً للتاريخ»... وحين تحولت المنطقة الى «مسرح للعرائس» فقد وجدتني أمام لون من الفنون له بالتأكيد جمهوره، ولكنني - ولو حتى بالسن والمزاج - لا أحسب نفسي في عداد هذا الجمهور!

ولم أعد - ولا أظنني أريد أن أعود الى الصحافة - بما فيها الاهرام - رغم أن الرئيس «السادات» - بعد عروض أخرى بمناصب أكبر في الدولة، بينها منصب مستشاره للأمن القومي - «كيسنجر بتاعي» على حد تعبيره بالنص - أو منصب نائب رئيس الوزراء - عاد فقال لي في ربيع سنة ١٩٧٥ «أنني أستطيع أن أعود الى الصحافة اذا أحببت وفي أي مكان أريده، على

شرط واحد وهو أن «ألتزم»!

وكان ردي عليه يومها ـ نقلاً عن دفتر مذكراتي لتلك الفترة:

ـ سيادة الرئيس، انني لا أعرف ما هو بالضبط ما تطلب مني أن ألتزم به؟ ولا أتصور أنه في مقدور أحد أن يلتزم خارج قناعاته، ولقد كتبت ما كنت مقتنعاً به وما اعتبرته جوهر التزامي، ولكنك غضبت.

ثم أنني لا أظنك ترضى لي ـ وأنا بالقطع لا أرضى لنفسي ـ أن أخرج بقرار ثم أعود بقرار... قد أخرج بقرار ولكني أظل صحفياً بالمعنى الذي أفهمه، ولكني اذا عدت بقرار فلن أعود صحفياً بالمعنى الذي أفهمه».

ثم قلت له:

ـ انني لست من الذين يستشهدون بـ «كارل ماركس» ويعتبرون أقواله انجيلاً مصدقاً، ومع ذلك فانني من المعجبين بقول مأثور له مؤداه: ان التاريخ لا يكرر نفسه، واذا فعل فإن المرة الأولى تكون دراما مؤثرة، وأما المرة الثانية فانها تصبح ملهاة مضحكة.

وأنا لا أريد أن أعود الى الصحافة ظلاً باهتاً لما كنته ذات يوم. ذات يوم كنت في الاهرام، وكنت أفكر وأكتب، وأقرر وأتحرك ـ دون أن ألتفت خلفي. واذا رضيت بالعودة الآن فسوف أعود وفي وجداني رواسب ما حدث. سوف أجدني متردداً فيما أفكر وأكتب، وسوف أجدني مهموماً بما وراء ظهري أتلفت اليه محاولاً تأمين نفسي مما عساه يصل اليك عما أقول أو أفعل، وذلك شيء لا أريده، كما أني لست في حاجة اليه».

ومن يومها ـ من يوم كتابة ونشر هذه المجموعة من الأحاديث في تلك الفترة الحاسمة والفاصلة، رحت ـ مقيماً دائماً في مصر ـ أكتب خارجها لصحف عربية وغربية رحبت كريمة بما أكتب، ولدور نشر دولية تفتحت أمامي أبوابها في ظروف كان من حظي فيها أن تزايد اهتمام العالم بشئون

الشرق الأوسط، وهكذا وجدت لي في مكتبات هنا ـ من يومها والى الآن ـ ست كتب والسابع في الطريق!

لا بد أن أقول أن أسباباً للخلاف وقعت بين الرئيس «السادات» وبيني من قبل أن تجيء حرب أكتوبر والملابسات التي أحاطت بها في تلك الشهور الأربعة الحاسمة والفاصلة، وقبل أن أكتب وأنشر تلك المجموعة من الأحاديث التي افترقت عندها الطرق.

اختلفنا سنة ١٩٧١ فيما كان يقوله عن «سنة الحسم»، وكتبت ونشرت آرائي دون الحاح.

واختلفنا سنة ١٩٧٢ في الطريقة التي أخرج بها السوفيات من مصر، وفي الطريقة التي عالج بها مشكلة ما أسماه بـ «الفتنة الطائفية»، وحاولت معه بقدر ما استطعت.

واختلفنا سنة ١٩٧٣ في مواجهات اندفع اليها دون مبرر ـ من وجهة نظري ـ مع شباب الجامعات، ألقى بهم في السجون وقدمهم للمحاكمات، ومع جماعات من المثقفين والصحفيين نقلهم بجرة قلم الى مصلحة الاستعلامات، والتزمت بموقفي وان حاولت جاهداً أن أتفادى ما يقترب من حد الاستفزاز.

ولقد غضب عدة مرات وثار، واتهمني بأنني أريد أن أفرض آرائي عليه، وأنني أتجاوز الخط الفاصل بين دور الصحفي وبين مسئولية الحاكم، وردد بعض ذلك في خطب علنية. وحاولت مخلصاً أن أشرح له موقفي:

«كان رأيي أن حرية الصحافة بالمعنى الحقيقي هي حرية مناقشة صنع القرار، العوامل المؤثرة عليه والمناخ المحيط به والنتائج التي يمكن أن تترتب بعدها».

ولم يكن ذلك رأيه في حرية الصحافة. كان القرار في رأيه مسئولية

الحاكم وحده، وكنت مستعداً أن أوافقه في ذلك عن معرفة بظروف العالم الثالث كله ومرحلة التطور التاريخي التي تمر بها بلدانه. لكن مسئولية اصدار القرار شيء، وحق مناقشة هذا القرار وتقييمه وما يتصل به من مقدمات ونتائج شيء آخر!

ولم يكن على استعداد لأن يقتنع. ومن جانبي فلقد كنت حريصاً على أن لا تصل الأمور الى صدام.

□

والحقيقة أنه كان من دوافعي لتجنب الصدام أنني تمنيت ـ ولعلي أردت ـ أن أظل قريباً حتى تجيء معركة لإزالة آثار العدوان. كنت أعلم أنها قادمة كأحكام القدر تفرض نفسها على الجميع أرادوا أو لم يريدوا... أقدموا أو ترددوا!

□

وفي بداية خريف سنة ١٩٧٣ أصبح واضحاً أن المعركة لم يعد ممكناً تأخيرها.

ولسوف أظل الى آخر العمر مديناً لـ «أنور السادات» بأنه أشركني في عملية الاعداد السياسي والاعلامي لها. وهكذا فاني منذ أوائل سبتمبر ١٩٧٣ وحتى بدأت المعارك واحتدمت في أكتوبر، وجدتني أقرب الناس اليه. وكان يستطيع تجنبي لو أنه شاء، ولم يكن في مقدوري أن أفرض نفسي عليه.

ولقد كنت طرفاً محاوراً ـ بتجرد واخلاص ـ معه طوال أيام الأمل وأيام القلق... أيام التخطيط وأيام التنفيذ. وكنت شبه مقيم في بيته أو في قصر الطاهرة الذي انتقل اليه ـ كمقر قيادة له ـ قبل بدء العمليات بيومين.

وتكفيني للدلالة على عمق ما كان بيننا من ترابط في تلك الأوقات وثيقتين هما أهم وثائق تلك المرحلة:

□

كانت خطة «جرانيت» (١) ـ العبور بخمس فرق من غرب القناة الى

شـرقها عـلى خمسة محـاور والتمسك بخمسـة رؤوس كبارى في الشـرق ـ قـد وضعت في حياة «جمال عبد الناصـر» الذي وضـع عليها تـوقيعه بـالاعتماد في شهـر مايـو ١٩٧٠، ثم طلب تطويـرهـا الى «جـرانيت» (٢) ـ الـوصـول الى المضـايق ـ لكن الحياة لم تمهله. ولقـد تصورت أن استمـرار قـربي من عملية صنـع القرار حتى تجيء المعـركة ـ وأنـا واحد من أقـرب الناس اليـه ـ مهمـة مقدسة ربما يرضيه وهو في رحاب الله أن أقوم بها.

وهكذا صبرت.

● الوثيقة الأولى: أنني أنا الذي كتبت التوجيه الاستـراتيجي الصادر منـه الى القائد العام للقوات المسلحـة ووزير الحـربية الفـريق أول «أحمد اسمـاعيل علي». وفي هذا التوجيه تحددت استراتيجيـة الحرب، بمـا فيها أهـدافها. وقد وقعه الرئيس «السادات» بتاريخ أول أكتوبر ١٩٧٣.

(وقـد ذكـرت هـذه الـواقعـة وسجلتهـا في محـاضـر تحقيق المـدعي الاشتـراكي معي في صيف سنة ١٩٧٨ وفي حيـاة الرئيس «السـادات» وفي عنفوان سلطته. ونشرتها كاملة في كتاب (وقائع تحقيق سياسي امام المدعي الاشتراكي(*)). وكنت بذلك أرد على تهمـة «الانهزامية» التي حـاول ـ غفر الله له ـ أن يلصقها دون سند بي).

وترتب علىهـذا التوجيه تكليف مكتوب أيضـاً للفـريقاول «أحمـد اسمـاعيل علي» ببدء العمليـات، وقعه الرئيس «السادات» يـوم ٥ أكتـوبـر ١٩٧٣.

● والوثيقة الثانية: انني أنا الذي كتبت للرئيس «السادات» خطابه أمام مجلس الشعب بتاريخ ١٦ أكتوبر، وفيه أعلن الرئيس «السـادات» خطتـه لما بعـد المعارك، بما فيها مقترحـاته لمؤتمـر دولي في جنيف يجري فيـه حل الأزمـة في اطار الأمم المتحدة وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

(*) الناشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ص ب ٨٣٧٥ بيروت ـ لبنان

الى هذه الدرجة كان قربنا في تلك الظروف. وأستأذن أن أقول، مع ما في القول من تجاسر أعتذر عنه مقدماً ـ انني على نحو أو آخر كنت أشعر في أعماقي أن وجودي في أجواء المعركة مهمة مقدسة. . . هناك بالطبع قداسة الواجب الوطني لأي انسان تواتيه الظروف. وكان هناك أيضاً نوع من القداسة العاطفية. . بشكل ما وعلى نحو ما فقد كنت أشعر أن «جمال عبد الناصر» ربما يرضيه حيث هو في رحاب الله أن واحداً من أصدقائه لا يزال قريباً من وقائع حدث تاريخي عظيم أعد له ونذر نفسه لتحقيقه وعاش من أجله ورحل قبل أن يحين اوانه.

ولست أنكر أن تلك كانت أكثر فترة أعطيت فيها من نفسي لـ «أنور السادات». فقد بدا لي في تلك الأيام ـ بصرف النظر عن كل شيء وأي شيء ـ حامل علم تنبض مع خفقاته كل رموز الحياة والارادة. . كأن التاريخ تجمع كله في لحظة مجد شامخة.

□

لكني بدأت أحس في وسط المعارك بأشياء بدت لي غير مفهومة. . . ثم بدأ غير المفهوم يتحول أمامي الى ما هو غير مقبول.

وفي البداية حاولت السيطرة على هواجسي، ولكن تطورات الساعة كانت تحول هذه الهواجس الى ظنون.

كانت هناك ظواهر لفتت نظري حتى من قبل أن تبدأ المعركة، ولكن ضغوط المعارك المنتظرة وقوة الجذب الكامنة فيها راحت تكتسح كل شيء.

كانت قوة الاندفاع نحو ساعة الصفر تجرف في طريقها تساؤلات كثيرة حرت في الوصول الى جواب عليها.

ثم بدأت الامور تأخذ منحنى خطيراً ابتداء من يوم ١٠ أكتوبر ١٩٧٣.

ثم تأكد لي المجرى الجديد للأمور في ملابسات القبول بوقف اطلاق

النار، خصوصاً يوم ٢٠ أكتوبر.

وحين جاء «كيسنجر» الى المنطقة والتقى بالرئيس «السادات» يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣ ـ وجدتني أمام لحظة يتحتم عليّ فيها أن أقف ـ دون تردد أو تلعثم ـ لأجعل صوتي مسموعاً ومفهوماً، ثم ليكن بعدها ما يكون!

ولقد اعتقدت، وما زلت أعتقد، أن السياسة في حرب أكتوبر خذلت السلاح ـ ولا أقول خانته ـ بمقدار ما أن السلاح في سنة ١٩٦٧ خذل السياسة ـ ولا أقول خانها !

وأظن أن الخطأ الذي وقع فيه الرئيس «السادات» في حرب أكتوبر ـ وكان بعده ما كان ـ أنه لم يستطع أن يفرق بين القتال والحرب.

القتال نيران بين دبابات ودبابات، ومدافع ومدافع، وصواريخ وطائرات. . . الى آخره!

وأما الحرب فهي شيء آخر. . . الحرب صراع ارادات، تستعمل كل الموازين بما فيها الموازين الناشئة عن نيران ميدان القتال ـ للوصول الى نتائج سياسية.

وليس ذلك اختراعاً جديداً، فقد لخصه «كلاوزفيتز» في كتابه «عن الحرب» ـ قبل مائتي سنة ـ حين قال: «ان الحرب هي مواصلة السياسة بطريقة أخرى».

وهكذا فإن الحرب هي عمل سياسي. . . تمهد له السياسة، وتدير جهده السياسة، وتوجه نتائجه السياسة.

وفي الحرب المحدودة ـ التي هي الحرب الوحيدة المتاحة الآن في ظلال التوازن النووي ـ فإن أخطر فترة في الحرب ليست هي فترة المعارك، وانما هي فترة ما بعد المعارك. . فتلك هي الفترة التي يكون فيها على صاحب القرار أن يمسك بيد حازمة كل عناصر موقفه ـ بما فيها معارك القتال ـ لكي يدير حركة

هذه العناصر بمقدرة واستنارة حتى يصل بها الى النتائج السياسية التي يريدها.

وأقر ـ آسفاً ـ أنني لا أعرف في تاريخ الحروب الحديثة حرباً اختلفت فيها النتائج عن المقدمات، وتناقض فيها مسار التطورات مع خواتيمها ـ كما حدث في حرب أكتوبر.

ويكفينا هنا ثلاث نظرات محددة على ثلاثة مواقع بعينها:

(١) النظرة الأولى على الهدف الذي حددناه لأنفسنا في حرب أكتوبر، وأستشهد فيها بنص التوجيه الاستراتيجي النهائي الصادر من الرئيس «السادات» الى الفريق أول «أحمد اسماعيل علي» يوم ٥ أكتوبر، وكان نصه:

توجيه استراتيجي من رئيس الجمهورية
والقائد الأعلى للقوات المسلحة

الى: الفريق أول أحمد اسماعيل علي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة

١ ـ بناء على التوجيه السياسي العسكري الصادر لكم مني في أول أكتوبر **١٩٧٣** وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسي والاستراتيجي:

قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الاستراتيجية الآتية:

أ ـ ازالة الجمود العسكري الحالي بكسر وقف اطلاق النار اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر **١٩٧٣**.

ب ـ تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات.

جـ ـ العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور امكانيات وقدرات القوات المسلحة.

٢ ـ تنفيذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية.

(توقيع)

أنور السادات

رئيس الجمهورية

٩ رمضان ١٣٩٣ هـ

٥ أكتوبر ١٩٧٣ م

(٢) النظرة الثانية على الموقع الذي كنا عنده في أواخر سنة ١٩٧٣، وحين كان العالم كله ـ بما فيه «هنري كيسنجر» ـ يشهد لنا بأننا أحرزنا «انتصاراً استراتيجياً على اسرائيل لا شك فيه» ـ بصرف النظر عن أخطاء في مجرى الحرب أو بالقرب من مسارح العمليات.

(٣) النظرة الثالثة على نص البيان الذي أصدره «مناحم بيجن» في مطلع السنة اليهودية الجديدة ـ سنة ٥٧٤٣ ـ وقد نشر هذا البيان في جريدة الـ «جيروزاليم بوست» بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٨٢، وفيه يحدد «بيجن» ما تحقق لاسرائيل في لبنان. وكانت لبنان هي الخاتمة الطبيعية لطريق موحش بدأ بفك الارتباط الأول في يناير ١٩٧٤.

في هذا البيان ـ صراحة أو ضمناً ـ حدد «مناحم بيجن» تسعة أهداف حققتها اسرائيل على النحو التالي:

- تأكد ارتباط مصر بصلحها مع اسرائيل وفقاً لنصوص كامب دافيد.
- تحقق تحطيم القوة المسلحة للثورة الفلسطينية، وبالتالي ضرب هيبتها ونفوذها.
- ثبت أن العالم العربي لا يستطيع أن يرفع أصبعاً في مواجهة اسرائيل ـ ولم يكن لدى دوله جميعاً الا قبول «الارهابيين» الفلسطينيين كلاجئين ليس لهم مكان الا معسكرات محاصرة ومعزولة.
- تم وضع سوريا في مكانها لا تتجاوزه.
- جرى وضع الاتحاد السوفياتي في موضع العاجز.

- أثبت السلاح الأمريكي ـ الاسرائيلي تفوقه.
- ظهر احتمال معاهدة صلح بين دولة عربية ثانية ـ بعد مصر ـ وبين اسرائيل (يقصد لبنان).
- لم يعد هناك بديل لهدوء شامل على كل الجبهات العربية، ولن يجرؤ أحد على الاقتراب، وهكذا فإن الكل في وضع أشبه بوضع معاهدة عدم اعتداء مع اسرائيل.
- تغيرت موازين القوى بين المسلمين والمسيحيين في لبنان.

□

ثم أترك هذه المجموعة من الأحاديث التي افترقت عندها الطرق تروي قصتها.

ولقد حرصت على أن لا أقترب ـ ولا بلمسة ـ مما كتبت في تلك الفترة الحاسمة والفاصلة، ولم أشأ حتى أن أضمن هذه المقدمة استشهادات مما كتبت فيها بقصد الضغط على بعض الاشارات والايماءات التي وجدتها في ذلك الوقت مدعاة للشك والقلق، وخطر لي أن مثل تلك الاستشهادات سوف تكون محاولة غير مطلوبة ولا مبررة تحمل على الأقل مظنة ادعاء الحكمة والعصمة، وهو شيء مكروه. واذا كان لي أن أضيف ملاحظة أخيرة في هذه المقدمة فهي الرجاء بأن يتفضل الذين يستعيدون تاريخ تلك الشهور الأربعة الحاسمة والفاصلة ـ من خلال اعادة قراءة هذه الأحاديث ـ بأن لا يكتفوا فقط بقراءة السطور ـ ولو أن السطور تحمل ما فيه الكفاية ـ وانما أن يقرأوا أيضاً ما بين السطور ذاكرين أن هذا كله كتب في وقته وفي حينه، وأن جو الحرب كان لا زال مخيماً وقت كتابتها بما يفرض من قيود يضعها الكاتب على نفسه حتى وان ما يفرضها عليه أحد.

وأتلفت الى تلك الأيام ـ وأنا أستعيد قراءة تاريخها من خلال هذه الاحاديث ـ بكثير من الأسى والألم قائلاً لنفسي:

ـ هناك كان مفترق الطرق.

ليس فقط على المستوى الشخصي والمهني، ولكن أيضاً على مستوى التاريخ!

واقع الحال أمامنا شاهد لا يكذب..

حزيناً أقولها!

محمد حسنين هيكل

.. والخطر على الشرق الأوسط

٥ اكتوبر ١٩٧٣

قد يكون ضروريا ـ وربما مفيداً ـ أن أعيد تركيز بعض ما كنت أتكلم فيه وابتعدت عنه لالحق بمواكب الذكرى الثالثة لرحيل جمال عبد الناصر.

كنت قد استعرت عبارة شهيرة عن زعيم الصين «ماوتسي تونج» يقول فيها:

«احملوا السلاح دفاعاً عن حدودكم، وتأملوا في نفس الوقت احوال العالم وراء هذه الحدود. . . وافهموا».

□

وعلى ضوء ما تنادي به هذه العبارة الشهيرة فقد حاولت تحليل الموقف على القمة العالمية اليوم وخلصت بما يلي:

١ ـ هناك حالة وفاق بين القوتين الأعظم [الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي].

٢ ـ هناك تعارض تاريخي بين القوتين الأعظم بحكم المصالح والمبادىء وهذا التعارض يخضع لقانون التاريخ: الصراع والحركة والتغيير.

٣ ـ ان ما تغير بالوفاق بين القوتين الاعظم هو مجال وأسلوب التعارض

● نشرت هذا الحديث كما هو واضح من تاريخه ـ قبل نشوب المعارك بيوم واحد، وكنت به استكمل سلسلة تتابعت حلقاتها قبله. وقد آثرت ان أضمه الى هذه المجموعة من الاحاديث، حتى يكون بمثابة نقلة طبيعية اليها ـ وقد كان كذلك فعلا.

بين الاثنتين فلم يعد المجال هو علاقاتها المباشرة، ولم يعد الأسلوب هو احتمال الحرب أو التلويح بها من قريب أو بعيد، لأنها بينهما أصبحت مستحيلة تماما ولو في المستقبل المرئي على أقل تقدير.

وترتيباً على ذلك فلقد حاولت البحث عن مجالات التعارض الجديدة بين القوتين الأعظم ووصلت الى ان هناك فيما نرى اليوم وغدا مجالين:

أولهما: أوروبا الغربية: وهي بؤرة الاهتمام الاولى في سياسة الاتحاد السوفيتي في الظروف الراهنة [شرحت ذلك بالتفصيل].

والثانية: الشرق الأوسط: وهي بؤرة الاهتمام الأولى في سياسة الولايات المتحدة الامريكية في الظروف الراهنة [شرحت ذلك بالتفصيل أيضا].

□

ثم خطوت بعد ذلك خطوة في البحث عن هدف الاتحاد السوفيتي في أوروبا الغربية وكان تقديري في النهاية هو ان الاتحاد السوفيتي يريد «فنلدة» اوروبا الغربية أي فرض نوع من الحياد السلبي عليها يقبع راضياً في ظلال القوة السوفيتية الهائلة ويمارس تحت هذا التأثير وفي حدوده، حركته وحريته بما يمكن ان يعنيه ذلك في مثل تلك الظروف [وضع فنلندا الآن].

* * *

وأريد أن أضيف اليوم انه ليس معنى ذلك أن إهتمام الاتحاد السوفيتي بالشرق الأوسط قليل، وانما معناه أن إهتمام الاتحاد السوفيتي بأوروبا الغربية أكثر.

وربما كان السبب ان الاتحاد السوفيتي، رغم كونه إحدى القوتين الأعظم فانه على وجه اليقين ليس قوة امبريالية... أي ان استراتيجيته بالدرجة الأولى- ومن وجهة النظر العسكرية- استراتيجية دفاعية، وهذا يجعله حساساً بالنسبة لاعتبارات امنه. والمداخل القاتلة الى قلب الاتحاد السوفيتي هي على طرق الاقتراب من اوروبا الغربية والوسطى، وليست من الشرق الأوسط.

وبلا شك فان الاتحاد السوفيتي له استراتيجية هجومية، ولكن هذه الاستراتيجية الهجومية سياسية وعقائدية بالدرجة الاولى، وليست عسكرية:

- واستراتيجيةالامن والدفاع عن النفس عادةذات طابع فوري وملح.
- واستراتيجية التأثير السياسي والعقائدي عادة ممتدة، تنضج بالوقت

وليس هناك داعٍ لاستعجالها خصوصا إذا كان من شأن ذلك أن يؤدي الى محاذير في العلاقات مع القوة الأعظم الاخرى- الولايات المتحدة- التي تعتبر الشرق الأوسط بؤرة اهتمامها الاولى، دون تقليل من أهمية أوروبا الغربية بالنسبة لها لأنها سن ناحية تعتبر صلات أوروبا الغربية بها وثيقة، ثم هي من ناحية ثانية تعتبر أن اوروبا الغربية قادرة بطاقاتها المادية والحضارية على الوقوف لو أنها حزمت أمرها وتحملت مسئوليات أكثر في الدفاع عن نفسها.

□

ولقد أضيف اليوم أيضا ان هناك ظواهر محددة تشير الى ان الشرق الأوسط- ضمن مجالات التعارض بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي- لا يأخذ أولوية أولى في الاهتمامات السوفيتية، وليس ذلك لوماً له او حتى عتاباً، لأني احد الذين يؤمنون بانه لا مجال لمثل ذلك في العلاقات الدولية، فالعلاقات الدولية ليست أماني وعواطف، ولكنها مصالح وموازين.

وتلفت نظرى في هذا الصدد ثلاث ظواهر محددة:

١- إننا ارتكبنا نصيبا من الأخطاء في حق العلاقات العربية- السوفيتية، ولكنه من الانصاف للحقيقة ان نقول ان الاتحاد السوفيتي كان في وسعه- لو ان ذلك كان متفقا مع المصالح والموازين التي تعنيه بالدرجة الأولى- ان يساعد العرب بأكثر مما ساعدهم.

ان التجارب الراهنة في العالم تقول لنا انه ليست هناك واحدة من القوتين الأعظم يصعب عليها- اذا أرادت- ان تحول صديقا لها او حليفاً الى قوة عسكرية لها شأنها.

● الولايات المتحدة فعلت ذلك مع اسرائيل، وفعلته مع كوريا الجنوبية، وفعلته مع فيتنام الجنوبية.. بل وفعلته مع الماريشال شيانج كاي شيك في تايوان [فورموزا].
● الاتحاد السوفيتي فعل ذلك مع كوريا الشمالية، وفعله مع فيتنام الشمالية.. بل وفعله مع الهند وهي ليست دولة شيوعية.

ولا يمكن أن يقال أن نوعية الانسان أو نوعية السلطة في كوريا الجنوبية والشمالية، في فيتنام الجنوبية والشمالية، في تايوان وفي الهند، كانت من قماش يختلف يجود فيه التفصيل هناك ولا يجود فيه التفصيل هنا في الشرق الأوسط!

حينما أرادت احدى القوتين الأعظم- بمصالحها وموازينها- تحويل صديق او حليف الى قوة عسكرية لها شأنها فانها استطاعت.

٢- إن مسألة هجرة اليهود السوفيت الى إسرائيل، ظاهرة أخرى تلفت النظر، وأريد ان أقول وبمنتهى الانصاف انني أفهم بعض ظروف الاتحاد السوفيتي في السماح بالهجرة:

● فهو يتعرض لحملة تشهير مروعة سببها صداقته مع العرب.
● ثم هو لا يستطيع ان يرغم أحداً على البقاء فيه رغم إرادته.
● ثم إن في مقدوره ان يقول للائميه من العرب:

«لقد بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من يهود البلاد العربية الى اسرائيل قرابة نصف المليون وأما عدد المهاجرين من يهود الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل فلم يصل حتى الان الى مائة الف».

لكن الإنصاف من ناحية أخرى يقتضي ان نقدر ان هناك فارقا في النوع بين المهاجرين من اليمن وبين المهاجرين من ليتوانيا، كما ان التوقيت يلعب دورا مهما فقد هاجر الذين هاجروا من البلاد العربية في وقت يختلف

تماما عن الوقت الذي يتدفق فيه اليهود السوفيت على اسرائيل.

ولست واثقا من ان هذه القضية أُثيرت مع الاتحاد السوفيتي من جانب العرب بطريقة جادة وواضحة، ولقد آن لمثل ذلك ان يحدث خصوصاً بعد ما جرى أخيراً في النمسا وبعد الموقف الذي اتخذه مستشارها كرايسكي. وصحيح ان الاتحاد السوفيتي يريد- بمساعدة سياسته في الهجرة المفتوحة- ان يحصل من الولايات المتحدة على الامتيازات التجارية التي تتمتع بها الدولة الاولى بالرعاية، ولكن العالم العربي باستمرار عملية الهجرة سوف يصبح المنطقة الأكثر تعرضاً للخطر.

٣- ظاهرة أخرى تلفت النظر وهي صفقات السلاح الهائلة التي عقدتها الولايات المتحدة الامريكية مع ايران، وقد يبدو لأول وهلة ان ذلك أمر لا علاقة للاتحاد السوفيتي به، ولكن اي متتبع لقواعد اللعبة الدولية في العصر الحديث ومصالحه وموازينه، يدرك انه ليس في استطاعة إحدى القوتين الأعظم ان تساعد على وجود مثل هذا الحشد الهائل من السلاح في بلد متاخم لحدود القوة الأعظم الثانية دون موافقتها أو دون إستئذانها.

وموضوع تسليح ايران ليس هو موضوع بحثي اليوم فهو قضية اخرى متشعبة ومتداخلة ولكن النقطة التي تعنيني اليوم هي:

إن الاتحاد السوفيتي- وهذه حقيقة من حقائق ممارسة القوة في العصر الحديث لا تقبل المناقشة- إستؤذن في حجم ونوع التسليح الايراني، وقد أعطى موافقته لأن هذا التسليح يتم تنفيذه بالفعل.

ودوافع ايران الى هذا الحجم والنوع من التسليح يمكن فهمها.
ودوافع الولايات المتحدة الى المساعدة عليه يمكن فهمها.
وأمّا السؤال الذي لا يجد إجابة واضحة حتى الآن هو:
لماذا وافق الاتحاد السوفيتي ولماذا أعطى الإذن؟!

□

ان هذه الظواهر كلها- الى جانب ما سبق لي شرحه- تشير الى ان الاتحاد السوفيتي يعطي الأولوية التي لا تقبل شكاً لأوروبا الغربية «وفنلدتها» وأما الشرق الاوسط فانه يجيء في ترتيب يلي ذلك ويلحق به.

وهنا أصل الى النقطة التي أقصدها في حديث اليوم وهي الأولوية المطلقة التي تعطيها الولايات المتحدة الآن للشرق الأوسط وكونه بؤرة الاهتمام الرئيسية في استراتيجيتها الآن خصوصاً بعد حل مشكلة فيتنام وبعد الوفاق مع موسكو وبعد الدق على أبواب بكين.

* * *

لقد اتفقنا على أن الاتحاد السوفيتي يعطي الأولوية الأولى لاوربا الغربية لأنه يريد «فنلدتها» وذلك لا يعني ان اهتمامه بالشرق الاوسط قليل فذلك مستحيل بالنسبة الى كل ظروف وخصائص المنطقة..

ثم اننا اتفقنا على ان الولايات المتحدة تعطي الأولوية الاولى للشرق الاوسط...

وعلينا الآن ان نبحث عن مقاصدها الكبرى فيه وعن وسائلها لتحقيق هذه المقاصد في ظل الأوضاع الراهنة.

وما تريده الولايات المتحدة- اي مقاصدها الكبرى في الشرق الاوسط- لم يتغير ويمكن تلخيصه فيما يلي:

١- السيطرة الاستراتيجية على المنطقة.
٢- استمرار الحصول على ثرواتها وبالذات من البترول.
٣- المحافظة على وجود وأمن اسرائيل لاسباب سياسية معنوية ترجع الى تداخل اسرائيل بعمق في الحياة الامريكية، وأسباب سياسية عملية ترجع الى ان اسرائيل أثبتت نفعها كأداة ردع في يد السياسة الامريكية في المنطقة.

اذا كانت هذه هي المقاصد فما هي الوسائل التي تستعملها الولايات

المتحدة في ظل الاوضاع الراهنة؟

ان المقاصد الكبرى هي الاستراتيجية العليا للولايات المتحدة في هذه المنطقة، والوسائل هي الاستراتيجية الامريكية في هذه المنطقة وإذن فان سؤالنا يصبح الآن هو:

ما هي استراتيجية الولايات المتحدة في هذه المنطقة وفي هذه الظروف الراهنة؟

وهنا نجد امامنا خطوطا استراتيجية متعددة متوازية احيانا متداخلة في احيان اخرى ولكنها جميعا في نفس الاتجاه.

■■■ الخط الأول هو: اخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة العربية كطرف مباشر في علاقاته معها [ومع الاحتفاظ له بحقوقه ضمن المصالح والموازين العالمية باعتباره واحداً من القوتين الأعظم].

وكانت وسيلة الولايات المتحدة الى ذلك هي تجميد أزمة الشرق الاوسط بكل الوسائل.

- قفل أبواب أي حل معقول على أساس قرار مجلس الامن.
- وفي نفس الوقت فتح ابواب مخازن السلاح بغير حساب لاسرائيل.

وهكذا لم تتجمد أزمة الشرق الاوسط فقط، ولكن تجمد ايضا دور الاتحاد السوفيتي في حلها وفي ذلك فان الولايات المتحدة استغلت الى اقصى حد فهمها لأولويات الاتحاد السوفيتي ونظريته الدفاعية عسكريا، ونظريته الهجومية سياسيا وعقائديا.

كانت تعرف ان الامن الاوربي شاغله الأكبر.

وكانت تعرف ان أسلوبه في الشرق الاوسط ـ كما في غيره من مناطق

الهجوم السياسي والعقائدي- اسلوب مدى طويل ينتظر التفاعلات التاريخية وتطوراتها الطبيعية.

وكانت تعرف في نفس الوقت ان الامة العربية تعيش بنفاد الصبر وان جرحها بعدوان سنة ١٩٦٧ لا يستطيع إنتظار التفاعلات التاريخية وتطوراتها الطبيعية.

ومتى تجيء؟

وهكذا بدأ التململ والتبرم في العلاقات العربية السوفيتية. ومن سوء الحظ ان الطرفين العربي والسوفيتي معا لم يستطيعا تحليل هذا الخط الامريكي، او انهما حللا ثم عجزا عن التصرف او اختلفت بينهما السبل.

■■■ الخط الثاني وهو متصل بالخط الاول هو: إخراج السلاح السوفيتي من المنطقة.

ولقد كان دخول السلاح السوفيتي الى المنطقة هو بداية الدور السياسي السوفيتي النشيط فيها، ويمكن ان يكون خروج السلاح السوفيتي هو نهاية الدور السياسي السوفيتي النشيط فيها.

وكانت الحملة الامريكية ضد السلاح السوفيتي ضارية، ومن سوء الحظ مرة اخرى ان الطرفين العربي والسوفيتي شاركا بنصيب في النجاح الجزئي الذي اصابته هذه الحملة حتى الآن واندفعا الى حوار لم يكن في مصلحة اي منهما:

● سنة ١٩٦٧: كان الاتحاد السوفيتي يقول للعرب:
- انكم أسأتم الينا وكشفتم موقفنا حينما عجزتم عن استعمال سلاحنا».

● سنة ١٩٦٨: كان العرب يقولون للاتحاد السوفيتي:
- انكم لم تعطونا ما كان لازما للمعركة ولا بد ان تصححوا».

● سنة ١٩٦٩ : كان الاتحاد السوفيتي يقول للعرب :

ـ السلاح لم يصنع لكي يتكدس في المخازن ولكن لكي يتم استيعابه» .

● سنة ١٩٧٠ : كان العرب يقولون للاتحاد السوفيتي :

ـ قارنوا بين الفانتوم وبين الميج ٢١» .

سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧١ وسنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٣ كان العرب ما زالوا يحصلون على سلاح من الاتحاد السوفيتي ولكنهم كانوا قد بدأوا يدقون أبواباً أخرى: بعضهم ذهب الى اوربا الغربية وهذا معقول لأن سلاحها يمكن استخدامه ضد اسرائيل، وبعضهم الآخر ذهب الى الولايات المتحدة ذاتها وهذا غير معقول لأن سلاحها لا يمكن إستخدامه ضد اسرائيل . .

والمسألة ان السلاح ليس ارتباط يوم، وانما السلاح ارتباط سنوات طويلة، بالتدريب والخبرة وقطع الغيار الى آخره .

■■■ الخط الثالث للاستراتيجية الامريكية هو: تعميق التناقضات الاقليمية في المنطقة واضافة تناقضات جديدة الى ما هو موجود منها فعلا .

لقد جرى مثلا تعميق التناقض العربي الاسرائيلي، فان التأييد الامريكي لاسرائيل جعل مشكلة اسرائيل اكبر من مشكلة فلسطين .

لم تعد الأزمة في الشرق الاوسط ـ كما كانت قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ـ هي حقوق شعب فلسطين وانما اصبحت الازمة هي تراب الشعب المصري وتراب الشعب السوري والخطر الاسرائيلي على كل تراب عربي .

وهناك الآن أمام عيوننا محاولة لخلق وتعميق تناقض اقليمي آخر وهو التناقض العربي ـ الايراني .

وكان هذا التناقض حتى الامس في إطار نزاع المياه الاقليمية في شط العرب بين ايران والعراق .

وهـذا التنـاقض يمكن ان يصبـح غـداً تنـاقضـا بـين المملكـة العـربيـة السعـودية وبـين ايران بسبب أمن الخليـج العربي كله بـل انه في هـذه الحالـة سوف يصبح تناقضاً ايرانياً- عربيا شاملاً وهذا خطر يجب التنبه اليه وتداركه.

واتذكر انني كنت أخيراً في مناقشة مع «الجنرال شودري» القـائد العـام السـابق للجيش الهنـدي وهــو الآن خبـير من خبــراء مـركــز الـدراســات الاستراتيجية في لندن وقد كان ماراً بالقاهرة قادما من ايران، ولفت نظري في حديثه قوله لي:

ـ عندما رحت ادرس حالة استعـداداتهم العسكريـة في ايران خـطر لي السؤال التقليدي الذي يجب ان يسأله كـل طرف لنفسـه عندمـا يبدأ في بنـاء قوته فوق أي حد طبيعي وهو:

ـ من هو العدو الذي تبنون له هذه القوة المسلحة؟

ولم أتلقَ جواباً»

ويستطرد الجنرال شودري في كلامه فيقول لي:

ـ لم أتصور بالطبع ان هذا الاستعداد موجه الى الجـار الكبير لايـران في الشمال وهو الاتحاد السوفيتي...

إن هذا الاستعداد أقل مما هو لازم لمواجهة مع الاتحـاد السوفيتي ولكنـه اكبر مما هو لازم لبقية جيران ايران في أوضاع طبيعية».

■■■ الخط الرابع للاستراتيجية الامريكية هو: إرهـاق وانهاك القوى الوطنية التي تصدت للولايات المتحـدة في مرحلة المـد الثوري لحـركة القـومية العربية في السنوات المجيدة ما بين ١٩٥٥ الى ١٩٦٦.

إن عدوان سنة ١٩٦٧ كان موجهـاً اصلا لإصـابة هـذه القوى بـأعمق

الجراح، واستمرار العدوان سنة بعد سنة مقصود منه أن تبقى هذه الجراح العميقة نزيفاً مستمرا ثم هي جراح مفتوحة قابلة للتلوث بالعفن.

وإذا ما حدث ذلك فان المنطقة يمكن اعادتها ببساطة الى ما قبل سنة ١٩٥٢، اي ما قبل التجربة الثورية المصرية وابعادها العربية المتعددة الجوانب سياسيا واجتماعيا وفكريا.

والحملة اشد ما تكون ضد نظم او احلام قادرة على الحركة وعلى الانطلاق وربما من هنا كان التركيز الشديد على الثورة الليبية وعلى احتمالات الوحدة بين مصر وليبيا.

■■■ الخط الخامس للاستراتيجية الامريكية هو: الإمساك بموارد الطاقة في المنطقة بأسلوب شديد البراعة والخبث.

إن الولايات المتحدة اول من يشعر بازمة الطاقة، ولكن الغريب في نفس الوقت ان الولايات المتحدة هي أول من يبالغ في أزمة الطاقة.

أزمة الطاقة موجودة، ومفاتيحها في يد العرب.

والولايات المتحدة لا تكل من الحديث عنها، وهي لا تمل من الإشارة الى مفاتيحها.

وهي بفهمها للعقلية العربية حتى الآن تعرف ان العرب يتحدثون احيانا عن السلاح ويستغنون بذلك عن استعماله.

الكلمة عندهم احيانا بديل للفعل.

والتشخيص لديهم في بعض المرات براءة من العلاج.

وهذا ما نراه الآن فعلا!

الكل يتحدث عن ازمة الطاقة وما يمكن ان يحدث في الولايات المتحدة اذا استخدم العرب سلاحهم الكبير. .

والحقيقة التي لا تقبل الشك ان انتاج البترول العربي يزداد في السعودية ويزداد في العراق ويزداد في الجزائر ويزداد في امارات الخليج، لكن الحقائق ضائعة في ضباب الوهم.

وربما كان هناك سبب آخر تعتمد عليه الولايات المتحدة الى جانب ضباب الوهم:

بعض الناس يعيشون اسرى فقرهم.. والبعض الآخر يعيشون أسرى غناهم، وهذه قمة- او هي قاع؟- المأساة!

■■■ الخط السادس للاستراتيجية الامريكية هو السيطرة على السيولة العربية الفادحة.

إن الارقام تتفاوت في تقديرات الدخول والودائع العربية السائلة.

كانت الدخول العربية السائلة من البترول قبل سنوات شيئاً قليلاً بنسبة ما هي عليه الآن، وشيئا لا يقارن بما ستكون عليه في المستقبل المنظور.

كان دخل المملكة العربية السعودية مثلا سنة ١٩٦٧ في حدود ٣ بلايين دولار في السنة.

دخل المملكة العربية السعودية هذه السنة ١٩٧٣- ٩ بلايين دولار في السنة.

دخل المملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٠- فيما تقول به اوثق التقديرات- ١١ بليون دولار في السنة.

وفي سنة ١٩٨٠ سيكون الدخل العربي السائل كله من البترول ما بين ستين الى ثمانين بليون دولار كل سنة.

وهذه أرقام فلكية من ناحية السيولة.

إنها ليست خطيرة بمعايير ثروات الامم التي تحسن توظيف ما لديها، ولكنها خطيرة بمعايير ثروات الأمم التي تترك ما لديها دون توظيف، تصبح الثروات في هذه الحالة نوعاً من البحث عن المغامرة والتشرد والتسكع. . تصبح أموالاً مائعة، وساخنة حسب التعبير الذي يستعملونه في الغرب الآن.

والسيطرة على السيولة لها وسائل:

● الخصم منها بتخفيض الدولار مثلا وليتحمل الآخرون تكاليف الحماقات الامريكية.

● الرهن عليها بالاستثمار في الولايات المتحدة.

● اكثر من ذلك محاولة مصادرتها تقريبا بنظم نقدية جديدة تضع قيوداً على حركتها تحت دعاوى تأمين نظام النقد العالمي.

■■■ الخط السابع للاستراتيجية الامريكية وهو الخط الثاني من خطوطها هو: ضمان التفوق العسكري لاسرائيل.

اذا لم ينجح ما سبق كله. . فان العصا الاسرائيلية الغليظة موجودة وهي قادرة على ان تهوى فوق اي رأس يريد ان يرتفع.

. . . .

. . . .

كانت تلك ـ ولا تزال ـ هي المقاصد الثلاثة للاستراتيجية العليا للولايات المتحدة في المنطقة.

وكانت هذه ـ ولا تزال ـ هي الوسائل السبع للاستراتيجية الامريكية في المنطقة في الاوضاع الراهنة!

ولقد تحدثنا من قبل عن هموم أوربا وهذه اليوم هي المخاطر على الشرق الأوسط.



محاولة تصوّر للموقف

١٢ اكتوبر ١٩٧٣

ما زال الوقت مبكراً لرواية قصة ما حدث، وعرض وقائعه، وتحليل تطوراته، واستخلاص نتائج تساعد بدورها على التأثير فيما هو محتمل. .

الوقت يعطي الفرصة بالكاد لتعليق سريع، او لتعبير عاطفي، أو للقطة بآلة تصوير لا تتعدى مسئوليتها ان تمسك بمشهد واحد في الحركة المستمرة والمتدفقة والهادرة للشلال المندفع فوق جنادل الصخور.

ومع ذلك، فلقد يكون مناسبا ان نحاول الوصول الى تصور متماسك للموقف العام كله، وبقدر ما تسمح به سرعة إيقاع الحوادث من ناحية، وضرورات الكتمان، احتراما لاعتبارات الامن، من ناحية اخرى.

□

وأجد امامي ثلاثة اسئلة محددة، تتصل بالامس، وباليوم، وغد. وهذا في ظني أوسع نطاق نملك الحديث فيه اليوم:

قبل الامس مضيعة للوقت في هذه اللحظات.
وبعد الغد مغامرة مع المجهول لا ضرورة لها.

ومعنى ذلك ان الاسئلة الثلاثة المحددة المتصلة بالامس وباليوم وغد هي على النحو التالي:

١ ـ ما الذي حققناه حتى الآن فعلا؟

٢ـ ما الذي يتعين علينا عمله الآن؟

٣ـ واخيرا . . غدا، وكيف نستطيع ان نأخذه لصالحنا؟

* * *

■■■ **السؤال الأول:** ما الذي حققناه حتى الآن فعلا؟ والرد عليه كما يلي:

١ـ حققنا «القرار» بقبول التحدي، و«القرار» هنا مرادف دقيق لمعنى «الارادة».

كانت حالة اللاسلم واللاحرب قد طالت بأكثر مما هو لازم لأي شعب يريد ان يحتفظ بحيويته النضالية، ولكن القرار لم يكن سهلاً، خصوصا وان الملابسات المحيطة بالعمل الوطني في مصر ـ وربما في غيرها من بلاد العالم النامي كله ـ تضع مسئولية القرار على كتفي رجل واحد.

أي أنه بالنسبة لأنور السادات، فان القرار كان مصيريا، وفي الوقت نفسه فقد كان عليه ان يتخذه وحده.

وربما كان من حقه وواجبه ان يسمع وان يناقش، لكنه في النهاية كان مطالبا بأن يكون وحده، عقلا وقلبا وضميرا، ثم يصل الى القرار ويتحمل تاريخيا مسئوليته.

واتذكر حواراً مع أنور السادات جرى في مساء يوم الجمعة ٢١ سبتمبر الماضي في شرفة استراحة برج العرب المطلة على البحر . .

كان جالسا في صمت لبعض الوقت، وكان فيما بدا يتأمل منظر غروب الشمس في هذه البقعة الجميلة من شاطىء مصر الغربي، لكنه فجأة شد نظره عن مشهد الطبيعة المهيب ليقول لي:

ـ ان القرار بالنسبة لغيري تعامل مع الافكار والتقديرات والاحتمالات، وامّا بالنسبة لي فان القرار تعامل مع الحياة والموت، والمسألة لا

تتعلق بشخصي فقد عرفت الحياة وواجهت الموت، ولكنها تتعلق بالوف. . مئات الألوف من الرجال سوف يأخذون الكلمة مني. . وفوق ذلك هناك كرامة ومستقبل وحياة امة في الميزان».

ولم أشعر انني أحس بأزمة «الاختيار الانساني» كما احسست بها في تلك اللحظة.

لكن ذلك كان دوره وكان قدره كما قال هو اكثر من مرة. .

كان «اختياره» هو «القرار» وكان «القرار» هو التعبير عن «الارادة» الوطنية والقومية وربما كان من الاشارات ذات المعاني ان انور السادات بعد ان استقر قراره على انه سوف يقبل اول تحدٍ يقوم به العدو اختار لما سوف يقوم به اسما رمزياً لا يخطر بسهولة على البال. .

كان الاسم الرمزي الذي اختاره بنفسه لما ينوي ان يفعله هو: «الشرارة».

. . . كيف خطر له هذا الاسم؟. . ما هي الإيماءات والايحاءات الكامنة فيه؟ـ انه وحده الذي يستطيع الاجابة على هذه الاسئلة ولكن.

الاسم معبأ بالكثير: الامل. . اللهب. . البعث. . وغير ذلك وغيره!

٢ـ حققنا بعد ذلك «اجتياز حائط الخوف» وذلك شيء بالغ الاهمية في حياة أي أمة مهما كانت النتائج.

وكان «حائط الخوف» متمثلا في عبور قناة السويس وفي اقتحام خط بارليف:

● القناة نفسها حاجز مائي من اصعب الحواجز.
● وخط بارليف على حافتها سلاسل متصلة من المواقع الحصينة استفاد

بدروس الحصون الشهيرة في الحرب العالمية الأخيرة: خط ماجينو الفرنسي وخط سيجفريد الالماني.

وكان كل الخبراء العسكريين في العالم وبغير استثناء يرون عملية العبور صعبة. . كان تقديرهم انها ليست مستحيلة، ولكن مخاطرها تفرض التفكير طويلا، ثم انها تتطلب تضحيات ليس من السهل قبولها.

ولست اظن ان الوقت ملائم لشرح الطريقة التي تمكنت بها القوات المسلحة المصرية من اجتياز حاجز الخوف: عبور القناة تحت النار واقتحام خط بارليف، وان كنت اقول على الفور ان واحدا من افلام التليفزيون التي عرضت على الناس قد ظلم هذه العملية المجيدة ظلما فادحا فقد ذهبت العدسات الى مواقع بدء العبور في اليوم التالي وكان المسرح كله قد انتقل الى الضفة الشرقية وبدت الصورة كما ظهرت على شاشة التليفزيون امام الناس وديعة مسالمة كأنها رحلة على بحيرة، وهي لم تكن كذلك حقيقة في اليوم السابق!!

كانت عاصفة برق ورعد، وكانت ملحمة شجاعة وتضحية.

كانت صفحة القناة نارا ودما لكن الرجال لم يترددوا، ويوم تكتب القصة الكاملة لطلائع العبور التي اجتازت القناة- وسط الصواعق- في قوافل من قوارب المطاط لتمهد لإقامة الجسور على الضفة الشرقية- فان امة بأسرها سوف تشعر بأنها عاشت لحظة من أعظم لحظات حياتها.

. . لقد انطلقت الكتائب والالوية والفرق تشق طريقها وسط الخطر الى الضفة الاخرى وعبرت اجزاء ضخمة من هذه التشكيلات فعلا الى الضفة الشرقية ولم تكن جسور العبور قد تم تركيبها.

كان بالرجال شوق الى الانطلاق.

كانوا يشعرون انهم تحملوا بما لا طاقة لهم به وبما لا ذنب لهم فيه، وقد

احسوا بالجرح في اجسادهم وفي جسد مصر، وكأنهم ارادوا ان يؤكدوا، بما لا يدع مجالا للظن، قدرتهم على القتال واستعدادهم له.

وفي ثلاث ساعات من بعد ظهر السادس من اكتوبر ١٩٧٣، ما بين الثالثة الى السادسة مساء كانت مصر، وكانت الامة العربية كلها، قد اجتازت «حائط الخوف»!

وبأي مقياس عسكري فان عملية العبور سوف تصبح حدثاً في تاريخ الحروب ولست اقول ذلك حماسة او مبالغة.

ان الفيلد مارشال مونتجمري احتاج الى خمسة ايام من التمهيد بالمدفعية ومن محاولات الاختراق لكي يتمكن من عبور حقل الالغام الكبير في جبهة العلمين امام روميل سنة ١٩٤٢، وكان هناك حقل الالغام الكبير ولم يكن هناك المانع المائي الخطير ولا كانت هناك عقد التحصينات المتشابكة. واحتاج مونتجمري كما قلت الى خمسة ايام واعتبر ذلك نجاحا له يفوق اي نجاح.

ولم يكن حقل الغام العلمين الكبير شيئا اذا ما قورن بما كان يتحتم على الجيش المصري ان يجتازه في عملية العبور.

٣ـ حققنا اخيرا بعد «القرار» وبعد «اجتياز حائط الخوف»ـ تجربة المواجهة مباشرة، بالتخطيط وبالعمل مع العدو الاسرائيلي، وهو عدو اعطيناه اكبر مما يستحق.

ولكي لا يخطىء احد في فهم ما أقول فنحن امام عدو عصري، وعدو متعلم، وعدو متمكن من وسائل العصر، لكننا بالغنا في تقدير ما لديه لكي نعوض لأنفسنا ما نحس به في اعماقنا من قصور.

كان في استطاعتنا دائما ان نكون عصريين مثله، متعلمين مثله،

متمكنين من وسائل العصر مثله، وكان في استطاعتنا دائما لو اننا حولنا «الكم العربي» الى «كيف عربي» ان نصل الى تفوق ساحق عليه، لكننا كنا نكتفي بتجسيد الوهم وتجسيم الوهم حتى نعفي انفسنا بالخوف من قبول تحديه.

وأريد ان أقول ان المعركة ما زالت في بدايتها وما زالت الاوقات الصعبة امامنا، وما زال المجهود الرئيسي للعدو في انتظار لحظة مناسبة ليندفع وينقض، لكن هناك حقائق لا يمكن انكارها:

● ان القيادة العسكرية المصرية واجهت القيادة العسكرية الاسرائيلية وكانت المبادأة في يد القيادة المصرية وان كان العدو هو الذي بدأ بالاستفزاز.

● ان الضابط المصري واجه الضابط الاسرائيلي وكان المصري هو المهاجم.

● ان الجندي المصري واجه الجندي الاسرائيلي وكان المصري هو الذي يقتحم المواقع ويطلق النار ويتلقى النار في صدره ولا يدير لها ظهره.

إن الدعاية الاسرائيلية، وقبلها دعايات الاستعمار بقضه وقضيضه حاولت التركيز بقوة وقسوة على سمعة القوات المسلحة المصرية وكان ذلك مقصودا لإضاعة الثقة تماما بأكبر قوة دفاع وردع يملكها العرب.

ولقد استغلت مأساة سنة ١٩٦٧ استغلالا بشعا ضد الجيش المصري بينما الحقائق المؤكدة تقول ان ثمانين في المائة من القوات صدر اليها الامر بالانسحاب وهي لم تشتبك مع العدو اصلا وكانت خسائر هذه القوات من الرجال قبل صدور امر الانسحاب لا تتجاوز ٢٥٠ شهيدا فاذا هي بعده وبسببه ترتفع الى حدود غير مقبولة في ظروف غير محتملة.

ذلك ما تحقق حتى الآن فعلا:

القرار- اجتياز حائط الخوف- المجابهة مع العدو: خطة امام خطة، وقوة امام قوة، وافراداً امام افراد.. ووجهاً لوجه.

لقد انكسرت اساطير كثيرة في ذلك اليوم السادس من شهر اكتوبر:

● اسطورة العجز العربي عن اتخاذ قرار.
● اسطورة الخوف الذي تمكن في القلوب رهبة من العدو
● اسطورة القوة الرادعة الاسرائيلية التي لا قبل لأحد بتحديها وبالتالي فانه لا بديل غير الخضوع لها!

* * *

نجيء الى ثاني الاسئلة الثلاثة المحددة وهو السؤال الذي يقول:

■■■ ما الذي يتعين علينا عمله الآن؟

والرد عليه كما يلي:

١ـ عدم فك الاشتباك مع العدو على الجبهتين المصرية والسورية مهما كان الثمن، أي مواصلة القتال ضده بصرف النظر عن اية تضحيات او ضغوط.

لم يعد ممكنا للعبة «اطلاق النار» و«وقف اطلاق النار» ان تتكرر أكثر مما تكررت:

● سنة ١٩٤٨ في هدنتين.
● سنة ١٩٦٧ بعد ستة أيام من المعارك.
● سنة ١٩٧٠ بعد فترة طويلة من حرب الاستنزاف، وان كان وقف النار في تلك السنة هو المرة الوحيدة التي يمكن تبريرها، فقد كان الهدف هو بناء شبكة الصواريخ على الضفة الغربية لقناة السويس وهذا حدث.

... اللعبة بعد ذلك غير قابلة للتكرار الا اذا بلغنا هدفا نستطيع عنده ان نقول: هذا هو الحل الذي نرتضيه لانفسنا عدلاً وسلاما.

ولقد نتذكر ان هناك طاقة للعدو يمكن حسابها.

انه الآن في قمة حـالة التعبئـة العامـة، وهو لا يستـطيع البقـاء في هذه الحـالة بـالنسبة لـظروفه البشـرية اكـثر من مدة تـراوح بين خمسـة عشر يـوما وعشـرين يومـا. واستمرار القتـال والامر عـلى هذا النحـو فيها يتعلق بـالتعبئة العامة ـ سوف يصل بالعدو الى موقف بالغ الخطر.

ان لـديه الآن وفقـا لأوثق التقديـرات خمسين لـواء تحت السـلاح، اي قرابة ثلاثمائة الف جندي، أي عشر السكان الذين يعيشون على الارض التي اغتصبها او احتلها. .

وكان العدو يرتب نفسه باستمرار لمعـركة خـاطفة يفـرغ فيها من جبهـة ويستدير لجبهة ثانية. . يبدأ انتصاره في واحدة ويؤكده في الاخرى!

ولقد كان هاجسه وكابوسه هو احتمال الحرب على جبهتين، ولهذا فانـه حاول بكل شدة ان يستوعب اسلوب الحرب الخاطفة ليضرب هناك ويصفي، ويستـدير ليضـرب هنا ويصفي. وهـذا مـا لا ينبغي ـ مهـما كـان او يكن ـ ان نسمح له به.

ولقد كانت السياسة الامريكية شبـه واثقة من استـطاعة اسـرائيل انهاء الحرب هذه المرة في ثلاثة ايام بدلاً من ستة أيام سنة ١٩٦٧.

ويـوم نشوب القتـال على قنـاة السويس وبـدء عمليات العبـور اتصـل الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية بالدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرية تليفونيا.

كان كيسنجر في واشنطـن وكان الزيات في نيويـورك.

وكانت الرسالة التي يريد كيسنجر ايصالها للزيات هي:

ـ ما فائدة هذا الذي قمتم به؟. . ان اسرائيل سـوف تعبىء قواهـا في يومين اثنين. . وسوف تقوم بهجوم ساحق».

ثم مضى كيسنجر يعرض اقتراحا بوقف اطلاق النار وعودة القوات الى الخطوط التي كانت عليها قبل بدء العمليات.

وكان هذا موقفا مزعجا في تحيزه لاسرائيل، ذلك لأن الولايات المتحدة الامريكية تتحمل اكثر من أي طرف آخر مسئولية العذاب الذي تحملته المنطقة باستمرار حالة اللاسلم واللاحرب ست سنوات.

وكانت هي التي رفضت ان يقترن قرار وقف اطلاق النار سنة ١٩٦٧، بعودة القوات المتحاربة الى المواقع التي كانت فيها قبل بدء العمليات، وهكذا فان اطلاق النار توقف ولكن الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية استمر.

وكانت هي التي عطلت تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢.. عطلت مهمة يارنج، وعطلت مشاورات الدول الاربع الكبرى وعطلت اتصالات القوتين الاعظم، وعطلت مبادرة روجرز.. بل وعطلت مبادرة الرئيس انور السادات بفتح قناة السويس مقابل انسحاب اسرائيلي محدود كمرحلة اولى تكون مرتبطة- وفق جدول زمني محدد- بانسحاب كامل على اساس قرار مجلس الأمن.

● ثم كانت هي التي اعطت لاسرائيل السلاح- اعطتها خلال خمس سنوات أخيرة اكثر مما حصلت عليه خلال عشرين سنة سبقتها من عمر اسرائيل- وذلك مكنها من ان تضرب عرض الحائط بأي قرار دولي، وبأي التزام أدبي وأخلاقي، وبكل القيم التي ارتضاها مجتمع الدول قانونا له وميثاقا.

ان القوات المصرية كانت قد عبرت «حائط الخوف» الى ارض مصرية وكانت حربها حرب تحرير بالمعنى القانوني والواقعي.

وكان ما تحملته وحققته تحت النار معجزة بأي مقياس.

ومع ذلك وفي آخر نهار مجيد يجيء رجل في مثل ذكاء كيسنجر ويسمح

لنفسه بان يقترح على وزير الخارجية المصري ما اقترح!

٢ـ التركيز على الحاق اكبر خسائر بقوات العدو. وقد كانت هذه بالفعل هي الاستراتيجية التي توصلت لها القيادة العامة للقوات المسلحة ونفذتها بنجاح واقتدار.

إن أشياء كثيرة تغيرت في اهداف الحرب وأساليب الحرب ولكن مبدأ من المبادىء التي ظلت باقية هو ان تدمير قوات العدو هدف اساسي يجب تطويع كل الوسائل لبلوغه.

قوات العدو وليس أي شيء آخر.

إن تدمير قوات العدو هو الذي يفتحِ الباب امام الأهداف الكبرى من استعمال القوة المسلحة:

الأرض.. الارادة السياسية الى آخره.

فضلا عن ذلك فان التركيز على تدمير القوات المسلحة للعدو هو اكبر قوة دافعة للروح المعنوية لقواتنا ذاتها.

ثم انه أنشط طاقة محركة لفاعلية القتال وتأثيره من ناحيتنا.

وعلى الجانب الاسرائيلي فلقد نتذكر ان الدم الاسرائيلي هو الشيء الوحيد الذي يهز اسرائيل الى اعماق اعماقها.

المال ليس مشكلة في تقديراتهم.
والسلاح ممدودة قوافله من وراء الحدود.

واما الدم ففضلا عن اعتقادهم بامتيازه على أي دم آخرـ وهذه دعوى العنصرية بعينهاـ فان نبعه محدود: ثلاثة ملايين في اسرائيل ومهما جاءت اسراب المهاجرين فان الأعداد قليلة بمقاييس التفوق البشري العربي!

٣ـ ان ميدان المواجهة يجب ان يتسع بأسرع ما يمكن وبأبعد مما تستطيع اسرائيل ان تؤثر عليه او تستطيع الولايات المتحدة ان تحكمه.

لقد وقعت المواجهة فعلاً بين الامة العربية وبين اسرائيل ووراءها الولايات المتحدة الامريكية التي لا تخفي مشاعرها مع اسرائيل او التزاماتها العملية تجاهها.

وإذا اتسع ميدان المواجهة فان ذلك سوف يدعم المطلبين السابقين وهما: عدم فك الاشتباك مع العدو، والتركيز على الحاق اكبر الخسائر بقواته.

إن ميدان المواجهة ليس هو الأرض التي يتحرك فوقها جنودنا فقط، ولكن ميدان المواجهة يجب ان يصبح كل الارض التي تعيش عليها امتنا العربية.

* * *

ونصل الى السؤال الثالث عن الغد وهو استطراد منطقي للأمس ولليوم والسؤال هو:

■■■ كيف نستطيع ان نأخذ الغد لصالحنا؟»

والرد كما يلي:
ما فعلناه بالامس قد تحقق.
وما نفعله اليوم يسير في طريق التحقيق وربما دفعناه أبعد.

وإذا تأكد ذلك، فاننا سنجد أنفسنا امام احتمالات هائلة لا يستطيع أحد حساب تقديراتها بسهولة، وفي ظني ان العدو الاسرائيلي سوف يركز كل جهده خلال الساعات القادمة لكي يعطل هذه الاحتمالات.

وهذه الاحتمالات كما يلي:
١ـ ان تتحرك الامكانية العربية الهائلة وهي قادرة بغير شك على ان

تؤثر بطريقة حاسمة على موقف الولايات المتحدة الامريكية.

ان امدادات البترول العربي قد لا تكون ماسة في اللحظة الراهنة باعتبارات الامن القومي الامريكي مباشرة ولكن البترول كعملية تجارية تحصل امريكا وحدها على ستين في المائة من ارباحها، يستطيع الآن وفي الصميم ان يمس قلب الولايات المتحدة وربما تذكرنا ان الولايات المتحدة: قلبها في جيبها!

وحتى إمدادات البترول تقدر الان على ان تضع الولايات المتحدة في موضع حرج إزاء حليفاتها على الضفة الأخرى من الأطلنطي.

ولو ان ورقة البترول استعملت بطريقة علمية ومستنيرة غدا و ليس بعد غد فان الولايات المتحدة سوف تواجه أزمة مع حليفاتها ربما تفك تماسك الغرب كله.

وفي الاوضاع السائدة اليوم فان سلاح البترول لا يمس ازمة الطاقة في العالم فقط ولكنه يمس ايضا أزمة النظام النقدي العالمي.

ولقد اثير بغير تحرج مسألة أخرى:

إن الأنباء الواردة من نيويورك تقول إن اسرائيل طلبت الى يهود الولايات المتحدة وحدهم ان يجمعوا لها من تبرعاتهم وعلى الفور الف مليون دولار ـ مع ملاحظة ان معدل دعمهم لها سنويا ٥٠٠ مليون دولار.

إن اسرائيل لم تتحرج وهي تطلب، ولا انتظرها يهود الولايات المتحدة حتى تتقدم اليهم باسطة كفها طالبة منهم.

تلك مواقف او مشاهد لا تعرفها تجارب الذين يشعرون بوحدة المصير او حتى بالتضامن في مواجهة المستقبل.

ولقد جاء الوقت لكي يوضع هذا الامر في مكانه الصحيح من تجربة

الامة العربية وبغير عقد او حساسيات.

ولقد يقال بغير نكران لأي جميل ان كل ما حصلت عليه مصر من إتفاقية الدعم العربي في الخرطوم وعلى طول السنوات الست الماضية اقل مما حصلت عليه اسرائيل في أي سنة واحدة من تلك السنوات الست!

هذه حقيقة.

ولقد يقال ان هناك زيادات على اتفاقية الدعم، ولكن هذه الزيادات لا تعد باكثر من عشرات الملايين من الدولارات ومعظمها على شكل ودائع لآجال محددة يحل بعدها السداد.

وهذه حقيقة اخرى.

وحقيقة ثالثة هي ان عائدات الدول المنتجة للبترول زادت بشكل هائل نتيجة مباشرة لأزمة الشرق الاوسط.. أو أزمة مصر.

بسبب هذه الأزمة وبسبب اغلاق قناة السويس زادت أسعار البترول الى اكثر من الضعف بكثير.

وبسبب هذه الأزمة وجو التوتر الذي صاحبها فان الشركات العاملة في العالم العربي كانت على استعداد لأن تسترضي الحكومات العربية حتى تضمن استمرار مصالحها.

ولم تكن بمصر غيرة من أحد ولا حسد لأحد لأنها تعرف قدر نفسها ثم انها تعرف يقينا ان المستقبل العربي شركة واحدة.

والآن ما الذي يحدث لو ان دول البترول العربي اجتمعت واجتمع- من حول قادتها- أغنياء العرب وهم كثيرون ثم قرروا، على الأقل، ان ما تحصل عليه اسرائيل من يهود العالم، سوف تحصل عليه مصر من المقتدرين العرب، دولارا بدولار. وسنتا بسنت!

واذا كان يهود امريكا وحدهم سوف يعطون لاسرائيل هذا الاسبوع الف مليون دولار، فان المقتدرين العرب سوف يعطون لمصر هذا الاسبوع الف مليون دولار: ذلك سوف يجعل قدرة مصر على الصمود أقوى ثم انه سوف يجعل العالم كله يشعر انها امة بأسرها تواجه مصيرها.

إن حكومة الكويت قد دعت الى عقد مؤتمر لديها من دول البترول لبحث ما يمكن ان يؤديه البترول العربي من دور في المعركة.

وليت هذا المؤتمر يعقد في الرياض وبرئاسة الملك فيصل نفسه وعلى مستوى القمة من دول البترول في شبه الجزيرة العربية والخليج: السعودية والكويت ودولة الامارات وقطر والبحرين.

ثم ليت هذا المؤتمر يضع لنفسه جدول اعمال من ثلاث نقاط:

- دور البترول العربي في المعركة [كما اقترحت الكويت].
- ودور الأرصدة العربية في المعركة [وهناك تقرير في هذا الصدد درس في جامعة الدول العربية].
- ثم دعم مصر/وسوريا ماديا بمستوى ما تتلقاه اسرائيل من الدعم المالي على الاقل.

ولقد كان في مصر من يستحيون من مجرد التفكير في ذلك خلال السنوات الماضية، وبالذات مع هوان حالة اللاسلم واللاحرب.

والآن ومصر وسوريا في المعركة وسط طوفان من الدم وجحيم من اللهب ـ اما جاء الوقت الذي تقال فيه كلمة الحق للحق وبالحق؟!

إن الشعب المصري والشعب السوري يدفعان ضريبة النضال القومي بالنار وبالدم وبأعباء مادية ونفسية لا حدود لضغوطها وأثقالها ولكن النضال القومي ليس حكرا على مصر وسوريا وحدهما؟

٢ـ إن الـوفاق بـين القوتـين الأعظم معـرض لتأثيـرات سلبية اصبحت الآن بادية للعيان وقد أشـار اليها الـدكتور هنـري كيسنجر نفسـه في تصريـح رسمي له.

وينبغي ان يقال وبكل صدق ونزاهة ان الاتحاد السوفيتي اثبت الى آخر لحظة انه صديق وهذه فرصة لا تعوض لاعادة بناء الجسور واقامتها على قواعد صلبة.

وربما قيل للحق وللتاريخ ان مصر حاربت حتى هـذه اللحظة بمـا كان لـديها أصـلا من السلاح ومعنى ذلـك ان ما قـاتلت به مصـر حتى اليـوم هـو السلاح السوفيتي وحده.

ولم أرَ الفرحة على وجه انسان هذا الاسبوع كما رأيتها على وجه فيلاديمير فينوجرادوف سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة.

كـان خارجـا بعد مقـابلة مع الـرئيس انور السـادات، وكـان الـرئيس السادات قد قال له:

ـ ان سلاحكم هو الذي كان في أيدينا عند العبور».

وقال لي فينوجرادوف والابتسامة بعرض شفتيه:

ـلقد قضيت ثلاث سنوات حتى الآن سفيرا في القاهرة.

لقد عشتها بأيامها الحلوة وأيامهـا المرة ولكن تلك كـانت ذروة عملي في القاهرة».

٣ـ إن تأثيرات عميقة سوف تحدث في الرأي العام العالمي.

إن العـالم لا يحترم الا أولئـك الـذين يعـرفـون هـدفهم، يعيشـون من أجله، ويموتون من أجله.

ثم إن العالم الآن على استعداد لسماع وجهة النظر العربية بجد.

لقد كان العالم مقتنعا بها مع العطف على المظلوم.

وأصبح العالم اشد اقتناعا بها مع إستعداد المظلوم لحمل سلاحه والقتال ضد ظالميه.

وكان ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا واضحا كل الوضوح ومعبرا اصدق تعبير عن الرأي العام العالمي حين قال بعد اجتماع لمجلس الامن الفرنسي برئاسة جورج بومبيدو ـ ما نصه:

من الذي بدا المعارك هذه المرة؟!.. هذا موضوع يصعب القطع فيه.. لكننا لا نستطيع ان نوجه اللوم الى شعوب تقاتل لاسترداد اراضيها ولاناس لا يطلبون الا ان يعودوا الى ديارهم».

□

تبقى كلمة اخيرة: وهي ان تلخيص كل ما حدث هذا الاسبوع في عبارة واحدة يصل بنا الى القول وبغير تجاوز:

ـ ان الخريطة السياسية للشرق الاوسط قد تغيرت!».

حقيقة لنا ان نقولها، وان كان علينا ان نقولها بمنتهى الشعور بالمسئولية، وبالتواضع كله، وبالفهم العميق لأوضاع العالم، وموازينه وقوانينه...

سـؤال

١٣ اكتوبر ١٩٧٣

هناك مواقف لا تحتمل الانتظار ومنها ما اريد ان أتحدث عنه الآن.

أريد أن أقول ان الضغط العربي على الولايات المتحدة الامريكية يجب أن يصبح الآن، في هذه الساعات بل وفي هذه اللحظات، محسوسا، مؤكدا ومعلناً.

والدول التي تستطيع ان تمارس ضغطا على الولايات المتحدة هي دول البترول العربي فهي التي تملك مفاتيح المصالح الامريكية في المنطقة، وهي التي تملك ان تمنح وان تمنع.

والسبب الذي يدعوني الى القول بان هذه هي الساعات بل اللحظات التي يتحتم فيها ان يصبح الضغط العربي محسوسا ومؤكدا ومعلنا، يتمثل في الاعتبارات التالية:

١ـ ان الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون منهمك في اجتماعات متصلة مع مجلس الامن القومي الامريكي لبحث «دور الولايات المتحدة في حرب الشرق الاوسط» ونستطيع ان نفهم على الفور من هذا التعبير ان الرئيس الامريكي وكبار مساعديه يبحثون في الطريقة التي يستطيعون بها مساعدة اسرائيل.

٢ـ وبالتأكيد فان الناحية العسكرية هي الناحية الملحة الآن خصوصا

وان تقديرات «البنتاجون» هيئة اركان حرب الجيش الامريكي- التي ابلغت الى بعض دول اوروبا الغربية -تقول ان «خسائر اسرائيل في الايام الخمسة الاولى من المعارك»- توقيت اعداد التقرير- وصلت الى: مائة وعشر طائرات واربعمائة دبابة، وحوالي ثلاثة آلاف قتيل، وحوالي الف أسير- بينهم ٤٣ طياراً- عدا خمسة عشر الف جريح، وبعد ذلك او قبله تأتي الصدمة النفسية التي احست بها اسرائيل من الرد العربي على الجبهتين، ومن نجاح القوات المصرية في عبور القناة واجتياح خط بارليف.

ويحدد التقرير مثلاً- كما ابلغ لبعض الدول الغربية- ان اسرائيل خسرت في الأيام الخمسة الاولى عشرين في المائة من قوة طائرات الفانتوم لديها؟

[وربما كانت التقديرات العربية عن خسائر اسرائيل تقول بأكثر من ذلك ولكني وفي هذا الحديث تركت التقديرات الامريكية كما هي لأن الصورة التي اتعرض لها هي حساباتهم هم وليست حساباتنا نحن].

٣- ترتيبا على ذلك فان الرئيس الامريكي وكبار مساعديه على وشك اتخاذ قرارات بمساعدة اسرائيل عسكريا، وقد بدأت بعض المساعدات تصل فعلا الى اسرائيل ولكن الجزء الاهم ما زال ينتظر القرار السياسي للرئيس الامريكي.

● ولقد تلقت اسرائيل- فيما نقلت الانباء- ما بين ثلاثة او اربعة اسراب من طائرات الفانتوم.

● وكان اسطول شركة العال- شركة الطيران الاسرائيلية- مجندا بالكامل خلال الايام الاخيرة لنقل كميات كبيرة من المعدات الامريكية من ولايتي «فرجينيا» و«او كلاهوما» الى اسرائيل، والمعدات التي تنقلها كلها فيما يبدو من التقارير معدات اليكترونية وقذائف وصواريخ؟

وهذا خطير ولكن ما يليه قد يكون اخطر!

٤ـ والمشكلة في وضع الرئيس الامريكي اليوم بالذات وبالتحديد انه في وضع بالغ الضعف امام الكونجرس الامريكي بسبب فضيحة ووترجيت وبسبب فضيحة نائبه سبيرو آجنيو الذي اعترف بما اقترف واستقال في المحكمة وترك منصب نائب الرئيس خاليا.

طبقا للاحكام الدستورية فان الرئيس الامريكي سوف يختار نائبه. ولكنه سوف يتقدم به الى الكونجرس [مجلس الشيوخ ومجلس النواب] لكي يوافق عليه.

والرئيس الامريكي يريد نائبا له من اختياره هو وعلى مزاجه وهواه.
وإذن فانه في وضع ضعيف امام الكونجرس.

كان ضعيفا من الاصل بسبب فضيحة ووترجيت وهو الآن أضعف لأن الكونجرس هو وحده الذي يملك التصديق على المرشح الذي يختاره ليكون نائبا للرئيس.

٥ـ إن التأييد لاسرائيل في الكونجرس بدرجة مائة في المائة على أقل تقدير!

ولقد يستطيع الرئيس الامريكي ـ أحيانا ـ ان يراعي المصالح الاستراتيجية البعيدة المدى للولايات المتحدة. وقد يستطيع ان يراعي اعتبارات توازن القوى الدولية. وقد يستطيع ان يراعي نواحي اخرى غير ذلك، ولكن الكونجرس لا تحكمه الا اعتبارات السياسة المحلية فقط.

وهذه نقطة الخطر.

لأن ضغط الكونجرس كله سوف يكون كاسحاً في اتجاه اسرائيل وفتح ابواب المساعدات بلا حدود امامها.

□

مجمل هذه الاعتبارات يدعونا الى القول بما يلي:

- في هذه الساعات بل وفي هذه اللحظات يجب ان تتدخل كل الامكانيات العربية لتؤدي دورها في الضغط على الولايات المتحدة الامريكية ويجب ان يكون هذا الضغط كما قلت محسوسا ومؤكدا ومعلنا.

لماذا؟

لقاعدة اساسية من قواعد ممارسة القوة في السياسة الدولية وهي قاعدة تقول باننا اذا اردنا ان نمارس ضغطا له قيمة فعلية وتنتج عنه آثار عملية فلا بد من توافر ثلاثة شروط:

١- ان يكون سلاح الضغط موجودا [البترول موجود].
٢- ان يكون قابلاً للاستعمال [ازمة الطاقة قائمة].
٣- ان لا يكون الطرف الاخر الذي سوف يتعرض للضغط في شك من ان هذا الضغط سوف يمارس يقينا، بل، ان ممارسته قد بدأت فعلا [ولم تشعر امريكا الحكومة، او الكونجرس، او الرأي العام بذلك، وبشكل حاسم حتى اليوم].

وفي الخلاصة:

فان الرئيس الامريكي على وشك ان يمضي في الشوط ابعد الى مواقف شديدة الخطر علينا..

والسؤال المطروح هو:

هل نتركه يذهب في الشوط الى آخره وهو تحت تأثير الكونجرس الموالي لاسرائيل مائة في المائة؟..

....او..

نفرض عليه في هذه الساعات بل في هذه اللحظات ان يضع في اعتباره عنصراً آخر وهو:

المصالح الاستراتيجية والاقتصادية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط ومستقبلها على المدى القريب والمدى البعيد؟!

هذا هو السؤال.

وهذه هي الساعة... بل هذه هي اللحظة!

نظرية الأمن الاسرائيلي

النقطة الساخنة في الصراع الدائر الآن!

١٩ اكتوبر ١٩٧٣

برغم كل مشاريع السلام التي تطير في الأجواء كانها أسراب من الحمام الابيض روعتها طلقات المدافع. وبرغم الخط الساخن الذي يعمل طوال النهار والليل بين البيت الابيض في واشنطن والكرملين في موسكو ينقل الى كل طرف- مسبقا- نوايا الطرف الآخر وتحركاته مخافة خطأ في التقديرات يؤثر على سياسة الوفاق- وبرغم النشاط الحائر في الامم المتحدة، يهم ويقعد، يمشي ويقف، باحثا عن صيغة او حتى عن مشروع صيغة يمكن ان يساعد على وقف الحرب في الشرق الاوسط..

... برغم ذلك كله فلا بد ان أقول انه يصعب عليَّ- حتى هذه اللحظة- أن أرى نهاية قريبة لهذه المعارك الطاحنة التي تدور رحاها على المرتفعات السورية في الشمال وعلى رمال سيناء في الجنوب.

وحتى اذا حدث- ولا أظن انه سيحدث- وتوقف القتال في منتصف الطريق، فلعلي أقول من الآن ومبكراً ان اسرائيل لن تنتظر طويلا قبل ان تعود الى إطلاق النار مرة اخرى والى إشعال الحريق..

وإذا بدا لبعضنا او لغيرنا ان اسرائيل لا تمانع الآن في قبول وقف إطلاق النار في المواقع الحالية التي وصلت اليها قواتنا شرق قناة السويس- فلقد يكون مفيداً ان نحتاط وان نقدر ان هذا القول الاسرائيلي ليس علامة

تسليم من جانبهم بأمر واقع جديد وانما هو فرصة وقت لالتقاط انفاس اربكتها المفاجأة ثم اضطرب انتظامها مع سرعة تدافع الحوادث بعد المفاجأة!

تكرار جديد- مخيف اكثر وخطير اكثر- لمأساة الهدنة الاولى في فلسطين صيف سنة ١٩٤٨!

□

ما هو معنى ذلك؟

وهل هي من جانبي دعوة لاستمرار القتال الى أجل غير مسمى؟

وهل غيرت رأيي فجأة فأصبحت من انصار ما يسمونه بالحل العسكري اي الحل بالقوة المسلحة من الخطوة الأولى الى الخطوة الأخيرة؟

أو ماذا؟

لا أظن انني من أنصار القتال لمجرد القتال، فالحرب كانت ولا تزال في تقديري ذروة المأساة الانسانية.

ولا أظن انني غيرت رأيي في اشتراطات وحدود استخدام القوة المسلحة في زماننا وهذا موضوع تحدثت فيه من قبل تفصيلا ولا أجد مبررا للعودة اليه الآن.

لكني أظن اننا وقد بدأنا القتال، واننا وقد تركنا السلاح يؤدي دوره كعنصر ضمن عناصر القوة السياسية الشاملة- فانه قد اصبح محتماً علينا ان لا نتوقف قبل تحقيق الهدف من هذا القتال الدائر اليوم.

□

سوف أترك الهدف النهائي للصراع العربي الاسرائيلي فتلك قصة اخرى، وانما يهمني ان أركز على سؤال حيوي يطرح نفسه علينا الآن.. سؤال يقول:

ـ ما هو الهدف؟ . . ما هو الهدف من قتالنا ضد عدونا الآن؟ وما هو الهدف من قتال عدونا ضدنا الآن؟ ما هو الهدف من هذه المرحلة بعينها من الصراع؟

هل الهدف قطعة أرض في الجولان؟
هل هو كل الجولان؟
هل الهدف قطعة ارض من سيناء؟
هل هو كل سيناء؟

وماذا عن القدس والضفة الغربية وغزة، وحقوق شعب فلسطين الضائعة من قبل ما ضاع سنة ١٩٦٧؟

أقول في الرد على ذلك ما يلي:

ـ انه ليس مجرد أراضٍ إغتصبتها اسرائيل ونسعى نحن لاستردادها . . وهذا هو الهدف الآن!».

أكاد أقول:

ـ انه شيء آخر في هذه المرحلة، وقد تكون الارض ـ الجولان وسيناء ـ مسرحاً له، ولكنها ليست هدفه الرئيسي الآن على الأقل».

أصل الى القول:

ـ إن هدف الصراع الآن نقطة واحدة لا بد ان نضعها أمامنا ومن الغريب انها نفس النقطة التي تضعها اسرائيل امامها».

أي أن:

ـ هدفنا من مرحلة الصراع المسلح الدائر الآن، وهدف اسرائيل من مرحلة الصراع المسلح الدائر الآن: هدف واحد.

هذا الهدف بإختصار هو:

ـ نظرية الأمن الاسرائيلي. . وهل هي صحيحة أم هل هي خاطئة؟

وبالتالي فان ما يجري في ميدان القتال الآن من صراع رهيب بالحديد والنار والدم، يمكن ترجمته سياسياً فيما يلي:

١ـ نحن نريد أن نثبت أن نظرية الأمن الاسرائيلي خاطئة.
٢ـ واسرائيل تريد من ناحيتها أن تثبت أن نظرية الامن الاسرائ! صحيحة.

وهذا هو لب الصراع المسلح في هذه المرحلة!

* * *

إن الرئيس انور السادات أشار الى هذه النقطة في خطابه الكبير يوم الثلاثاء الماضي وعلينا أن نتابعها بعد كلامه الى أبعادها المترامية.

إن نظرية الامن الاسرائيلي تأخذ في حسابها اعتبارين:

١ـ إن إسرائيل جزيرة وسط بحر عربي واسع: رقعة من الأرض محاصرة. . وعمق عربي حولها من الخليج الى المحيط. . وخلل في التوازن السكاني لغير صالحها يتمثل في مائة مليون عربي أمام ثلاثة ملايين في اسرائيل.

٢ـ إن الموقف الدولي ليس مضمونا في موازينه لأنها متحركة باستمرار. وكان اعتماد اسرائيل يوماً على بريطانيا ولكن القوة البريطانية تراجعت، ثم كان اعتماد اسرائيل يوماً على فرنسا ولكن القوة الفرنسية تباعدت، ثم كان إعتماد اسرائيل ولا يزال على القوة الامريكية، والقوة الامريكية ما زالت عاتية لكنها قوة في أزمة ثم هي قوة هوائية مفتوحة لضغوط ومؤثرات متناقضة أحيانا ومتعارضة.

□

ومن هـذين الاعتبارين بـداية فـان نظريـة الأمن الاسرائيـلي تقوم عـلى الأسس التالية:

١ـ لا بد أن يكون لاسـرائيل تفـوق عسكري سـاحق يمكنها من حسم أي تهديد ضدها في اسـرع وقت. . في ساعـات أو أيام أو أسـابيع قليلة تعـد على أصابع يد واحدة وليست أكثر.

٢ـ ذلك يتطلب ان يكون لدى اسرائيل جيش لا يجـوز له ان يتعـرض لهزيمة مهما كانت الظروف، ولا بد ان يثبت مهـما كانت التحـديات انـه أقوى من كل الجيوش العربية المحيطة باسرائيل مجتمعة، يركز قوته عليها واحداً بعد واحد ويفرغ من كل جبهة في ساعات قليلة ليستدير الى جبهة ثانية!

٣ـ إن هذا الجيش لا بد ان يأخذ في يده بتفوقـه الكاسـح زمام المبـاداة بـاستمرار لكي ينقـل الحرب من السـاعـات الأولى الى أرض العـدوـ الأرض العربية المحيطة باسـرائيلـ لأن عمق اسـرائيل الضحـل لا يسمح لـه بحريـة الحركة الواسعة التي تفرضها الحرب الحديثة بالمدرعات والطيران، فضـلاً عن أن التركيب الاقتصادي الاجتماعي في اسرائيل وهو ما زال في مرحلة النمو لا يستطيع ان يتحمل على ارضه جراح المعركة او كسورها المؤلمة.

٤ـ إن الحـرب يجب ان تكـون خـاطفـة لأنــه: لا المـوارد البشــريـة الاسرائيلية ولا الموارد الاقتصادية الاسرائيليةـ تستطيع ان تتحمل حـربـاً ممتـدة تفرض ضريبتها من النزيف لوقت طويل.

ومعنى التعبئة العامة في اسرائيـل أن أكثر من نصف القـوة العاملة فيهـا سـوف تكون تحت السـلاح، وإذن فان الـطاقـة الانتـاجيـة الاسـرائيليـةـ أي المصانع والحقولـ سوف تكون نصف معطلة.

وهكذا فان معنى التعبئة العامة في اسرائيل ان الحياة كلها سوف تكـون هي الحرب وان الحرب سوف تكون هي الحياة كلها.

وهذا وضع لا يحتمل بعد حد معين.

٥ـ إن هـذا معناه ان اسـرائيل يجب ان تـواجه «الكم العـربي» الكبـير «بكيف اسرائيلي» منتقى.

يجب أن تواصل بـاستمرار تـطوير وتـدعيم الكيف الاسرائيـلي بشريـاًـ بـالهجرة من بـلاد متقدمـة، وعلمياًـ بتـوجيه جـزء هـام من مـواردهـا للعلوم والتكنولوجيا.

ويجب عليهـا في نفس الـوقت ان تـدفـع «الكم» العــربي وراء أسـوار التخلف ولا تسمح له مهما كانت الـظروف ان يحوّل نفسـه من «حجم الكم» الى «صفة الكيف» أيضاً.

باختصار سياسة اسرائيل هنا:

- أن تجعل العدد الاسرائيلي المحدود له قيمة.
- وفي نفس الوقت تلغى قيمة العدد اللامحدود فيما يتعلق بالعرب.

وإذا ضاعت قيمة العدد فانه يتحول الى عبء ولا يصبح ميزة!

٦ـ إن كل هذه الأسس في نظرية الامن الاسرائيلي تستطيع بقدرتها على الـردع ان تجعل بـدايته في قلب العـرب خوفـا ورعبا من «ضـربات اسـرائيل القوية ويدها القادرة على الوصول الى أي مكان»، حسب تعبير الجنرال ديان.

ولقد مشت سياسة تخويف العرب، وخلع قلوبهم من الرعب عـلى خط طـويل من مـذبحة ديـر ياسـين سنة ١٩٤٨ الى الفـخ الـذي نصب للطيـران السوري فوق طرطوس قبل أيام قليلة من انـدلاع الجولـة الرابعـة في الصراع العربي الاسرائيلي.

بعد أسوار التخلف وحبس العرب وراءها.. يجيء دور حـائط الخوف وتجميد العرب تحت ظلاله الكئيبة!

٧ـ إن الضمان الاخير لنظرية الامن الاسرائيلي هـو وجود صـديق دولي

كبير يساند اسرائيل ويدعمها بدون تردد او حتى بدون وساوس مهما كان مصدرها:

● ولم يدخل بن جوريون الى مغامرة السويس إلا بعد ان إطمأن الى اتفاق مكتوب وموقع في سيفر- قرب باريس- عليه تعهد وإمضاء فرنسا وبريطانيا معاً بانهما سوف تدخلان الحرب وراء اسرائيل بست وثلاثين ساعة.

● وحين ذهب ديان الى مقابلة دافيد بن جوريون في مستعمرة سد بوكر في الأيام الاخيرة من مايو سنة ١٩٦٧، يقول له ان اسرائيل قد قررت ان تضرب، فان سؤال بن جوريون الأول والأخير كان:

- هل أميركا معكم.. اذا كانت معكم فادخلوا.. واذا لم تكن فانتظروا فرصة اخرى!».

* * *

هذه هي نظرية الأمن الاسرائيلي.

وهي الآن بالضبط محور هذه المرحلة الراهنة من الصراع المسلح بين العرب واسرائيل.

ولقد كان هدف العمل العربي فيما أظن وكما نرى من تتبع خطواته واحدة بعد واحدة هو تحدي نظرية الأمن الاسرائيلي.

أمام كل أساس من أسس نظرية الأمن الاسرائيلي كانت هناك حركة عربية:

١- حشد قوة عربية تستطيع ان تواجه التفوق الساحق الاسرائيلي.
٢- حرب على جبهتين ضد اسرائيل لا تستطيع بسهولة ان تفرغ من واحدة وتستدير الى الأخرى.
٣- المبادأة والمفاجأة في يد العرب بعد إستفزاز اسرائيلي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

٤ـ حرب ممتدة، لم تحسمها اسرائيل في ساعات ولا في أيام.

٥ـ «كيف» عربي وليس مجرد «كم» عربي أمكن اعداده امام «الكيف» الاسرائيلي..

٦ـ حاجز الخوف تهاوى بعد اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف.

٧ـ الولايات المتحدة تحت ضغط يستطيع بحد أدنى من الارادة العربية ان يجعل نفسه محسوسا وملموساً.

□

والآن ما هي الإحتمالات؟

هل في وسع اسرائيل ان تترك هذه التحركات العربية تمارس فعلها وتأثيرها ضد اسس نظرية الأمن الاسرائيلي؟

ردي: ـ ليس بهذه السهولة.

لأن الناس قد يتخلون عن بعض ما في أيديهم اليوم، ولكنهم لا اليوم ولا غداً يستطيعون التخلي ـ بسهولة ـ عن فلسفة أقاموا عليها حياتهم.

ـــ إن نظرية الأمن الاسرائيلي ليست قطعة من الجولان او قطعة من سيناء او قطعة من القدس او قطعة من الضفة الغربية او قطعة من غزة، انها شيء أعمق من ذلك واكبر وأخطر. انها فلسفة الحياة لمجتمع وضع نفسه ـ صواباً او خطأ ـ في مكان أصبح فيه الأمن هو قضيته الأولى والاخيرة».

* * *

والمشكلة ان إهتزاز نظرية الأمن الاسرائيلي لن يقتصر تأثيره على المرحلة الراهنة من الصراع العربي الاسرائيلي، ولكن التأثير سوف يمتد بعيداً وعميقاً الى مراحل لاحقة.

ان الأمر الآن لا يتعلق بتحرير الأراضي العربية المحتلة بعد ٥ يونيو

سنة ١٩٦٧ وانما هو يضرب في المستقبل الاسرائيلي الى أبعد واعمق، حتى وإن لم يكن هذا بادياً للعيان من الآن.

ذلك انه إذا إستطاع العرب تحرير أراضيهم المحتلة بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ بالقوة المسلحة فما الذي يمنعهم في مرحلة تالية من تحرير فلسطين نفسها بالقوة المسلحة.

المسألة قبل أي شيء وبعد أي شيء مسألة موازين قوى وهنا مكمن الخطر بالنسبة لاسرائيل.

□

ولو أنني حاولت أن أتصور ردود الفعل الاسرائيلية إذا ما واصل العرب تحديهم لنظرية الأمن الاسرائيلي لوجدنا السلسلة تترابط حلقاتها.. أو ربما تنفك حلقاتها على النحو التالي:

١ـ رد الفعل الأولى هو الصدمة: ماذا حدث؟.. كيف حدث؟.. أين كنا؟

لكن الكل سوف يشعر بعد ذلك بأن هذه الاسئلة لا بد من تأجيلها حتى نهاية المعركة ولكي لا تؤثر على سيرها خصوصا وان أساطير القوة لا تنهدم مرة واحدة في عصر يوم واحد حتى ولو كان يوم الغفران او يوم التوبة او يوم الخلاص.. يتوقف على اختلاف الاجتهادات في الترجمة من العبرية الى العربية «ليوم كيبور».

٢ـ سوف تسمع صرخات الصقور في اسرائيل بعد ذلك بأعلى مما كانت تسمع من قبل وسوف تروح الصقور تقول:

ـ أما كنا ننادي دائماً بعدم عودة أي شبر من الأرض المحتلة الى العرب مهما كانت الشروط؟ ماذا كان يحدث لو ان العرب بدأوا هذا الهجوم من الخطوط السابقة على ٥ يونيو ١٩٦٧؟.. معناه ان الحرب كانت تدور الآن في اسرائيل ذاتها.

إن خطوط وقف إطلاق النار سنة ١٩٦٧ يجب أن تصبح هي حدود اسائيل، : لأنها حدود أمن اسرائيل على قناة السويس، على نهر الاردن، وفوق مرتفعات الجولان!».

٣ـ سوف تبدأ المقصلة دورانها وتسقط رؤوس كثيرة وكبيرة في اسرائيل. . رؤوس كانت نظرية الامن الاسرائيلي في عهدتها وتحت مسئوليتها.

وربما كان ذلك سر العصبية الخرقاء في تصريحات قادة اسرائيل العسكريين بعد الساعات الاولى من نشوب القتال.

لقد فهموا ما حدث يوم السادس من أكتوبر بعد وقت طويل.

وحين فهموا فانهم فوجئوا.

وحين فوجئوا فانهم ظلوا لعدة ساعات وربما لعدة أيام في حالة إرتباك.

وربما لا أبالغ إذا قلت انه مهما حدث او يحدث فان مستقبل الجنرال موشي ديان العسكري والسياسي قد انتهى يوم السادس من اكتوبر.

وربما لا أبالغ إذا قلت ان كل الجيل الجديد من المؤسسة العسكرية الاسرائيلية قد اهتزت الأرض من تحته والدليل على ذلك قرار الحكومة الاسرائيلية بالعودة الى جيل قديم من القيادات دُعي على عجل من الاحتياط ليتدارك الموقف اذا استطاع.

٤ـ اذا ما استمر ذلك كله فما الذي سيحدث للهجرة الى اسرائيل؟

لأيام وربما لأسابيع وشهور فان سيل المتطوعين سوف يتدفق على اسرائيل، لكن ما تحتاجه اسرائيل على المدى البعيد ليس هم المتطوعين وانما المهاجرون.

كان نداء الهجرة يرتكز الى جانب الاسطورة الدينية على ان الفرصة متاحة في اسرائيل، ثم ان الأمن حديد.

٥ـ وبريق اسرائيل في العالم: دافيد الذي تحدى جوليات.. الصبي الذي أمسك بسيفه القصير وقتل العملاق الخطير كما تقول الأساطير ـ ماذا يتبقى منه؟

لقد كان هذا البريق هو الذي يعطي لاسرائيل جزءاً كبيراً من دورها العالمي الخاص.

كان ذلك البريق يجعل كل شيء لامعاً في اسرائيل.

كان يعطيها مزيجاً غريباً يخلط بين قصص سفر الخروج في العهد القديم وقصص السفر الى القمر في العصر الحديث... مزيج من التاريخ والتكنولوجيا.

٦ـ وإذا ما خفت أسئلة الصدمة الحائرة، وإذا ما تلاشت صرخات الصقور، وإذا ما دارت المقصلة وسقطت رؤوس، واذا نضبت ينابيع الهجرة، واذا ما إنطفأ البريق ـ اذا ما حدث ذلك كله فما الذي سيكون عليه حال سكان اسرائيل؟

ما هو المستقبل؟

أين هو الأمن؟

هذه ستكون أسئلتهم.

إنهم مجتمع جرى تكوينه وسارت حياته على فلسفة معينة.

وأي مجتمع يستطيع ـ بسهولة ـ ان يفقد او يتخلى عن قطعة ارض ولكن اي مجتمع لا يستطيع ان يفقد او ان يتخلى ـ بسهولة ـ عن فلسفة حياته ذاتها.

* * *

تبقى حلقة سابعة في السلسلة المتصلة او المفكوكة اذا ما تحطمت نظرية الأمن الاسرائيلي. ومع انها تالية لما سبق كله ومترتبه عليه فلقد يحسن بنا ـ ولأهميتها ـ ان نفصلها عنه.

هذه الحلقة هي علاقة اسرائيل بالقوة العظمى التي كان ارتباطها بها جزءا مهماً، وضمانا أخيراً، في نظرية الأمن الاسرائيلي:

ذلك انه إذا تم تحدي نظرية الامن الاسرائيلي بنجاح فان العلاقة بين الولايات المتحدة الامريكية وبين اسرائيل سوف تشهد تغييراً جذرياً.

كانت اسرائيل بنجاح نظرية الامن خصوصاً بعد سنة ١٩٦٧ قد استطاعت ان تنقل علاقتها من مستوى تابع للولايات المتحدة الى مستوى شريك.. شريك صغير ولكنه شريك.

وزاد دور اسرائيل في المنطقة بزيادة اعتماد السياسة الامريكية عليها، فقد اصبحت مركزاً أمامياً متقدماً قادراً على حماية نفسه وقادراً على حماية المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط.

إن النجاح العربي الذي تحقق حتى الآن في تحدي نظرية الامن الاسرائيلي- ولو أن هذا النجاح ما زال في بدايته- قد أحدث بالفعل أثره ويكفي ان نتأمل بعمق تصريحات الرئيس ريتشارد نيكسون الأخيرة.

قال ريتشارد نيكسون:

«إن موقف الولايات المتحدة من أزمة الشرق الأوسط الآن تمليه نفس الاعتبارات التي أملت الموقف الأمريكي تجاه أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ وأزمة الاردن سنة ١٩٧٠».

وبدون ان أسيء الى لبنان أو الاردن فلا أظن انهم في اسرائيل سعدوا بهذه المقارنة التي تضع اسرائيل في موضع لبنان سنة ١٩٥٨ والاردن سنة ١٩٧٠..

* * *

وإذن ماذا؟

أقول باختصار ان اسرائيل سوف تخوض قتالاً مروعاً لا هوادة فيه.

وإذا كان من مصلحتها ان يتوقف أياماً تلتقط فيها أنفاسها فـانها سوف تنتهز اول فرصة لتعود اليه.

والهـدف ليس مجـرد استعـادة اجـزاء من الجـولان.. او جسـر الضفـة الشرقية لقناة السويس..

الهدف هو انقاذ نظرية الأمن الاسرائيلي.

فلسفة مجتمع بأسره.

□

إن هذه الفلسفة بالضبط هي هدف هذه المرحلة من صراعنا، ولا يجب لأحد ان يخطىء في تحليل وتقدير هدف هذه المرحلة.

هدف هذه المرحلة هو ضرب نظرية الأمن الاسرائيلي، وهي تتمثل على وجه التحديد في ثلاثة ملامح ظاهرة:

١ـ المؤسسـة العسكريـة الاسرائيليـة، وهي تحتل بسبب نـظريـة الأمن مركز القلب في اسرائيل، بصرف النظر عن الواجهة السياسية.

ولقد اهتزت صورة هذه المؤسسة العسكرية فعلاً منـذ الساعـات الأولى للحرب ويتحتم تشديد الضغط عليها الى أقصى درجة ممكنة.

٢ـ جهاز الحرب الاسرائيلي ـ جيش الدفاع الاسرائيلي كما يسمونـه ـ وهو الدعامة الرئيسية للحياة كلها، فهو المدرسة والجامعة، الحقل والمصنع، العلم والثقافة في اسرائيل.. على الهجوم من جانبنا ان يكون الهدف هو الانقضاض عليه وتدميره، وعلى الدفاع من جانبنا، يجب ان يتحول هذا الجيش الى أمواج تتحطم على صخورنا الصلبة.

٣ـ قناع الغرور الذي غطى وجه الشخصية الاسـرائيلية وحـول الجيتو ـ حارة اليهود في أي بلد اوربي ـ الى قلعة من قلاع القرون الوسـطى تتصور انها

قادرة على حكم الريف المحيط بها بوساطة غارات الفرسان الدامية والخاطفة.
إن قناع الغرور الذي يغطي وجه الشخصية الاسرائيلية اليوم، هو نتيجة غير مباشرة لحقن مستمر بعناصر نظرية الامن الاسرائيلي، ثم هو نتيجة مباشرة للدور الذي قامت وتقوم به المؤسسة العسكرية والجيش الاسرائيلي، والهالة التي تحيط بالاثنتين، سواء من تأثير الدعاية او من تأثير التجارب السابقة، ولا بد مهما كان الثمن من كسر هذا القناع المرسوم بالغرور والإدعاء والعداء للتاريخ!

□

فلسفة الأمن الاسرائيلي والملامح الواقعية الظاهرة لهذه الفلسفة هي إذن مضمون وشكل هذا الصراع المسلح الذي يدور على جبهات القتال الآن، بصرف النظر عن عشرة كيلو مترات الى الشمال او عشرة كيلو مترات الى الجنوب.. عشرين كيلو متراً الى الشرق او عشرين كيلومتراً الى الغرب.

فلسفة ونظرية الأمن الاسرائيلي هي النقطة الساخنة في الصراع كله الآن.

ساخنة اكثر من لهب القتال الدائر في البر والجو والبحر على كل الجبهات!

سؤال وجواب

٢٦ اكتوبر ١٩٧٣

هذه أسئلة عديدة وجهتها لنفسي، وذهبت معها بالتفكير بعيداً وعميقاً قدر ما استطيع. ووجهها لي غيري وجئت بها معي الى هنا الآن، أجرب الكتابة فيها محدداً وواضحاً قدر ما أستطيع.

***

■■■ **السؤال الأول**: «كان رأيي، وقد عبّرت عنه صراحة في الأسبوع الماضي انه «يصعب عليّ ان أرى نهاية قريبة لهذه المعارك الطاحنة التي تدور رحاها على المرتفعات السورية في الشمال وعلى رمال سيناء في الجنوب. وحتى اذا حدث وتوقف القتال في منتصف الطريق. فلعلي أقول من الآن ومبكراً ان اسرائيل لن تنتظر طويلاً قبل أن تعود الى إطلاق النار مرة أخرى والى إشعال الحريق.

وإذا بدا لبعضنا أو لغيرنا ان اسرائيل لا تمانع الآن في قبول وقف اطلاق النار في المواقع الحالية التي وصلت اليها قواتنا- شرق قناة السويس- فلقد يكون مفيداً ان نحتاط وان نقدر ان هذا القبول الاسرائيلي ليس علامة تسليم بأمر واقع جديد وانما هو فرصة لالتقاط انفاس أربكتها المفاجأة ثم اضطرب انتظامها مع سرعة تدافع الحوادث بعد المفاجأة.

تكرار جديد- مخيف اكثر وخطير أكثر- لمأساة الهدنة الأولى في فلسطين صيف سنة ١٩٤٨».

لم تكد تمر ثلاثة أيام على هذا الرأي الذي عبرت عنه صراحة في الاسبوع الماضي، حتى كان مجلس الامن قد أصدر قراراً بوقف اطلاق النار، وقبلته اسرائيل على الفور أثناء جلسة مجلس الأمن فجر يوم الاثنين ثم قبلناه نحن رسمياً بعدها بساعات عند الظهر لكنه عاد الى الاشتعال مرة اخرى وتلاحق دوي الانفجارات، بعضها غادر وبعضها الآخر غاضب!

ما هو تقديري لما حدث؟ هل ما زلت عند رأي أبديته في الاسبوع الماضي؟ هل تغير هذا الرأي؟ هل تغيرت الأوضاع؟ او ماذا. . ؟

. . . .

. . . .

. . . .

■■■ جوابي كما يلي:

لقد أبديت رأياً، وكل رأي اجتهاد، وكل اجتهاد معلق برؤية صاحبه، ثم انه مرهون بتقدير ظروف متحركة باستمرار، وقد تختلف الاجتهادات والرؤى وتقديرات الظروف المتحركة باستمرار، ولكني اريد ان أقول ـ بأمانة وصدق ـ انه في لحظات معينة من مسار التاريخ لا بد ان تكون هناك مساحة واسعة من الحرية لصانع القرار يتحرك فيها على مسئوليته ويلائم فيها شراعه مع الرياح ويملؤه بالهواء من أي ناحية ويحصل لنفسه بذلك على قوة اندفاع اكبر نحو نقطة وصول يرى عندها هدفه.

ولست من أنصار ترك كل شيء لأي فرد مهما بلغت درجة الثقة فيه، ولكني اعرف ان احوال العصر الحديث وبينها تعقيد وتشابك القضايا، وتزايد سرعة الحوادث، واحتمالات تراكم وتصادم الاعتبارات ـ تضع كلها على كاهل صانع القرار في هذا العصر اعباء ومسئوليات وتبعات لم تكن تخطر على البال في عصور سبقت.

ولقد يحتدم النقاش بيننا حول قضايا المصير، ولكن هناك لحظات يتحتم فيها على الكل ان يتبعوا الراية العالية الغالية، وان يحاولوا الفهم الى أقصى ما يستطيعون، وان يحاولوا العطاء الى أقصى ما يقدرون، محيطين كلهم بصانع القرار لأن القرار في قضايا المصير يصبح حياة وطن وحياة أمة، والجدل حوله بعد الأوان او قبل الأوان اما نوع من التزيد او نوع من الترخص كلاهما لا يليق.

ولربما كان أحسن ما نستطيع به متابعة وتحليل وتقييم تصرفات صانع القرار والمسئول عن ادارة الصراع ـ خصوصا اذا كنا نثق فيه ـ هو ان نحاول، وبمنتهى الموضوعية، ملاحظة وفهم ودراسة المناخ الذي يفكر ويمارس ويقرر فيه وتحت مؤثراته.

. . . .

. . . .

. . . .

وفيما يتعلق بقرار القبول بوقف اطلاق النار، فان صانع القرار المصري، كان فيما أتصور امام العوامل التالية:

١ ـ إن القوات المصرية المسلحة اثبتت نفسها بأكثر مما قدر اصدقاؤها واعداؤها على السواء خصوصا في نقطتين بارزتين:

النقطة الاولى: دقة التخطيط والتنفيذ لعملية العبور التاريخية التي تم بها وسط النار اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف.

وقد دخلت هذه العملية بالفعل الى التاريخ العسكري العالمي كله وسيبقى لها مكانها المرموق في سجلاته مهما حدث او يحدث.

النقطة الثانية: روح القتال العظيمة التي حارب بها ضباط مصر

وجنودها وفرضوا على الدنيا كلهاـ بما فيها العدوـ احتراما جديدا لقيمة الانسان العربي واستعداده لمجابهة تحدي الحياة وتحدي الموت معا.

إن هذا العامل ألحق تغييرات جذرية على ما أسميناه إصطلاحاً بأزمة الشرق الأوسط:

● لقد كسر الجمود الذي أحاط بها وغطاها بطبقة من الجليد كانت شبه متحجرة.

● ودعا القوى الدولية كلها الى الالتفات نحو ما يجري على ارض الشرق الاوسط، بعد ان كانت تدير له ظهرها، وإن التفتت اليه بين الوقت والآخر تربت على كتف العرب في عطف مرة، وتمسح لهم دموعهم بالمواساة مرة أخرى.

● وفتح خريطة الشرق الاوسط، وراجع الخطوط التي كادت تثبت عليها بست سنوات من امر واقع مفروض، وطرح رسم الخطوط من جديد.

● وأنهى أسلوباً من الغطرسة والتعالي، إتخذه العدو لنفسه منذ معارك الأيام الستة، وكان هذا الاسلوب يضع العدو في مركز يسمح له برفض مطالبنا وفرض مطالبه وردعنا بقسوة إذا بدا له تمردنا على الخضوع!

إن ذلك كله معنوياً وسياسياً وعملياً كان انجازاً عظيماً بأي مقياس والإنجاز وحده هو الذي يولد الثقة بالنفس والثقة بالنفس تعطي صاحبها قدراً من المرونة والمرونة في هذه الحالة تكتسب معنى آخر غير معنى المساومة.

. . . .

. . . .

. . . .

٢ـ إن صانع القرار المصري وجد امامه حركة منسقة من القوتين الأعظم في عصرنا: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وليس معنى التنسيق

ان نفترض وجود وحدة في المنطلقات، لأن منطلق الولايات المتحدة يختلف عن منطلق الاتحاد السوفيتي أكيداً ويقيناً.

أي ان التنسيق مع اختلاف المنطلقات هو محصلة نهائية لشد وجذب، وتعارض إرادات ثم هو في النهاية حكم ضرورات تعطي للقوتين الاعظم- شئنا او لم نشأ، شاء غيرنا او لم يشاءوا- دوراً خاصاً لا يحكم وإن كان يتحكم.

أعني انه دور لا يملي إرادته على الآخرين من أعلى، ولكنه دور لا يستطيع الآخرون ان يتجاهلوه حيثما كانوا وكانت درجاتهم على السلم الدولي.

وفضلاً عن ذلك فانه مما يجعل تأثير القوتين الأعظم محسوساً في أزمة الشرق الاوسط انهما معا مصدر السلاح الأساسي للطرفين المتحاربين على ارض المنطقة:

الولايات المتحدة: مصدر السلاح الرئيسي لاسرائيل.
والاتحاد السوفيتي: مصدر السلاح الرئيسي لمصر وسوريا.

ولقد كان مشهد القوتين الأعظم خلال الأزمة مشهداً عجباً في الصراعات الدائرة في عصر جديد.

وتخطر على بالي عند هذه النقطة مناقشة دارت بين السفير الفرنسي في القاهرة «برونو دي لوس» وبيني، في وقت كان القتال فيه محتدماً بعنف في صحراء سيناء.. صدام إرادات حتى النهاية، بكتل الحديد وعواصف النار ولحم ودم الرجال والشباب.

وقال لي السفير «دي لوس»:

«ـهل تستطيع تصور ما نراه أمام عيوننا بين القوتين الأعظم الآن؟

الحوار بالطائرات والدبابات والصواريخ دائر هنا . . والحوار بينهم هناك في الصالونات والمكاتب، والرسائل الشفرية على الخطوط الساخنة، وبالتليفونات بين واشنطن وموسكو.

وأغرب من ذلك ـ اغرب كثيراً ـ ما نراه في الجو والبحر:

● جسر جوي امريكي قادم عبر البحر الابيض ـ طولاً ـ من امريكا الى اسرائيل: من الغرب الى الشرق.

وجسر جوي آخر سوفيتي قادم عبر البحر الابيض ـ عرضاً ـ من الاتحاد السوفيتي الى مصر وسوريا: من الشمال الى الجنوب.

الجسران الجويان يتقاطعان مع بعضهما في نقطة ما من سماء البحر الابيض ولكن كلاً منهما يمضي في سبيله.

● ثم جسر بحري عبر البحر الابيض أيضاً.

أمريكي من الغرب الى الشرق.

سوفيتي من الشمال الى الجنوب.

والبواخر الحاملة للسلاح تتلاقى على الموج في النهار وفي الليل. وتحت الموج غواصات لكل طرف من الطرفين ترى كل شيء وتسمع كل شيء وتسجل ولا تتدخل.

أليس هذا منظراً عجباً؟

كيف نفسره؟ هل درسناه؟ لا بد ان نفعل ذلك!».

ويسكت السفير الفرنسي عن الكلام لحظة بشفتيه ولكن عينيه لا تسكتان وانما تلمعان بخواطر في مثل ومضات البرق!

. . . .

. . . .

. . . .

٣ـ ثم تابع صانع القرار المصري قوة الدولتين الأعظم تمارس حركتها لأول مرة في عصر الوفاق على مسرح مجلس الامن، بعد ان تم التوصل بينهما الى موقف مشترك:

تبادل كل منهما مع الآخر ما لديه من حقائق ومعلومات.

ثم تعرف كل منهما على الحقائق فيما يختص بالطرف المحلي الذي يؤيده في الصراع:

تعرفت الولايات المتحدة على الحقائق فيما يختص باسرائيل: ولم تكن سراً عليها ولكن الامر اقتضى مع ذلك ان يذهب هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية الى مبنى السفارة الاسرائيلية في واشنطن لكي يتصل من هناك بوساطة خط تليفوني مباشر ومؤمن ضد الاختراق والتسمع، مع جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل وكان كيسنجر يتصل عدة مرات كل يوم عن طريق هذا الخط بجولدا مائير.

وتعرف الاتحاد السوفيتي على الحقائق فيما يختص بمصر: ولم تكن سراً عليه ولكن الامر اقتضى ان يجيء اليكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي بنفسه الى خمس جلسات عمل مع الرئيس انور السادات في القاهرة ومن المفارقات ان اليكسي كوسيجين ذهب ثلاث مرات من قصر القبة الذي أقام فيه الى دار السفارة السوفيتية في الجيزة لكي يتصل من هناك بوساطة خط تليفوني مباشر ـ مؤمن ضد الاختراق والتسمع هو الآخر ـ مع الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف.

ثم طار هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية من واشنطن الى

موسكو في ساعات وعقد عدة جلسات مع ثلاثي القمة السوفيتية: بريجنيف وكوسيجين وبادجورني.

وبدأت القوتان الأعظم اول تطبيق عملي لمواجهة ازمة طارئة في عصر الوفاق:

● دعى مجلس الامن الى الاجتماع بعد ظهر يوم الاحد، وكل الاعضاء خارج نيويورك في عطلة نهاية الاسبوع، ولكنهم تلقوا الدعوة وعادوا جميعا الى مقاعدهم واجتمع المجلس.

● وكانت بريطانيا تطمح ان تقوم بدور يكون عليها فيه ان تقدم مشروع القرار الى مجلس الامن كما حدث سنة ١٩٦٧ ولكن القوتين الأعظم هذه المرة لم تكونا في حاجة الى طرف ثالث: وسيط او واجهة. وهكذا تقدمتا معا بمشروع قرار.

● وبعد ساعتين من المناقشات كان القرار صادراً بالاجماع بدون اعتراض من أحد.

ولم يعد القرار مجرد ارادة القوتين الاعظم- بعد التشاور مع اصدقائهما في منطقة الصراع- فحسب، وانما اصبح ارادة مجتمع الدول كله.

وهو مجتمع بذل العرب جهودا كثيرة ومضنية لكي يجعلوه يميل ناحيتهم بعد ان كان يميل الى الناحية الاخرى.

. . . .

. . . .

. . . .

٤- إن صانع القرار المصري كان عليه ان يأخذ في اعتباره تطورا له خطره.

في الايام العشرة الأولى من الحرب كان يقاتل اسرائيل وحدها: نـظرية الامن فيها، وجهاز الحرب المستعد عندها، وحماقة القوة التي انتشت بها ربـع قرن كاملاً من الزمان.

ولقد حقق المقاتل العربي ما لم يكن في حسبان احد.

في الايـام العشرة الاولى من القتـال استطاع ـ وسـوف اعتمد هنـا عـلى التقديرات الامريكية وحدها بغض النظر عن التقديرات العربيـة ـ ان يحقق ما يلي:

١ ـ تحطيم ٩٠٠ دبابة اسرائيلية [أي نصف القوة المدرعة لاسرائيل].
٢ ـ اسقاط ١٦٠ طائرة اسرائيلية [اي ثلث القوة الجوية لاسرائيل].
٣ ـ قتل ما بين خمسة آلاف الى ستة آلاف من ضباط وجنود اسرائيل.

وهذا الرقم خطير لأنه ـ لو اخذنا في الاعتبار نسبـة السكان في اسـرائيل الى نسبتها مع الولايات المتحدة ـ يماثل كما لو ان الولايات المتحدة خسـرت في حرب فيتنام نصف مليون قتيل.

وأهم من كل الارقام فان مفاجأة المؤسسة العسكرية في اسـرائيل بكـل ما حدث ونتائجه كانت قاسيـة، كما كـانت قاسيـة ايضا صـدمة الـرأي العام الاسرائيلي.

إن الولايات المتحدة بادرت من اللحظة الاولى الى تأييد اسرائيـل وراح التأييد الامريكي لاسرائيل يتصاعد ويتصاعد يوماً بعد يـوم، بل سـاعة بعـد ساعة:

● جسر جوي وبحري لاسرائيل تزداد كثفاته.

● الـرئيس ريتشـارد نيكسـون يـذهب الى الكـونجـرس يـطلب منـح اسرائيل سلاحاً امريكيا ثمنه ٢٣٠٠ مليون دولار.

● بنحاس سابير وزير المالية الاسرائيلية يجمع من يهود نيويورك ١٤٠٠ مليـون دولار ومن يهود اوربـا الغـربيـة ٦٠٠ مليـون دولار والمجمـوع ٢٠٠٠ مليون دولار- أي ان الاعتمادات التي اصبحت جاهزة تحت تصرف اسرائيـل لمجهود الحرب- فضلاً عن الميزانية الاسرائيليـة العاديـة- زاد عليها فجـأة مبلغ ٤٣٠٠ مليون دولار.

● متـطوعون امـريكيـون- خصـوصـا من الـطيـارين- يتـدفقـون عـلى اسرائيل.

● سيـل من الخبراء الامـريكيين يـظهرون مـع الاسلحـة الجـديـدة في اسرائيل.

● طائرات امريكية من طراز جالاكسي الجبارة تحمل الدبابات مباشـرة من امريكا الى مطار العريش الذي تحتله اسرائيـل لكي تنزل الـدبابـات عليه مباشرة وتتسلمها الأطقم الجاهزة لها من الاحتياط المستدعى وتتوجه رأسـاً الى ميدان القتال [ولقد ثبت ذلك عمليا بالاستـطلاع، بل وحتى بـالدليـل المادي فان احدى الدبابات من طراز م٧٠ التي تم أسرها أمام المواقع المصرية لم تكن قد سجلت على عدادها اكثر من ١٢٠ كيلو مترا، وكانت تلك هي كل المسافة التي قطعتها هذه الدبابة فعلا على الارض].

● اخطر من ذلك: طائرتان من طائـرات الاستطلاع العـالي الامريكي تختـرقان المجـال الجوي المصـري والمجال الجـوي السوري ونعبـران بـارتفـاع شاهق فوق جبهات القتال والصور بالتأكيد بعد دقائق في اسرائيل.

● ونتيجـة للاستـطلاع- الى جـانب نتـائـج اخـرى سـوف يجيء وقت الحديث عنها- فان الولايات المتحدة تفتح ترساناتها لتقدم لاسـرائيل مـا يلائم حـربها ويعضـه مما لم تستعمله هي- الـولايات المتحـدة- في حـروب خـاضتهـا بنفسها وأهمها قنابل صواريخ «سمارات» و«مافريك» وغيرهما.

والنتيجة انه بعد الايام العشرة الأولى من الحرب وجد صانع القرار المصري انه امام تدخل امريكي مباشر في ميدان القتال.

واعترف انني احسست ـ عميقا ـ بمشاعر انور السادات حينما لقيته بعد ساعات من قبوله لوقف اطلاق النار يقول وبغير أسى أو خوف:

إننا ضربنا اسرائيل ضربة لن تنساها مدى العمر..

ونحن الآن نجد الولايات المتحدة في الحرب ضدنا.

وهذا شرف لنا بغير جدال ولكنه شرف لم أسع اليه ولا أريده بالتأكيد».

ثم يضيف:

ـ «ان «اولادي» بمفردهم ضربوا اسرائيل بمفردها، ولكني لا أستطيع بمسئوليتي عنهم ان اقول لهم «واصلوا القتال وأمامكم الولايات المتحدة»..
ذلك يقتضينا حسابات اخرى.. وانا لا اخاف وانما لا بد من اعادة حساباتي».

. . . .

. . . .

. . . .

٥ـ إن صانع القرار المصري تنبه مبكرا الى التطورات المحتملة في الموقف كله واضعاً في اعتباره انه دخل الحرب وفق استراتيجية ليس له ان ينساها.

ولقد كان الهدف الاستراتيجي المصري المحدد، هو كسر السلام الاسرائيلي [كما عبر الرئيس انور السادات في خطابه امام مجلس الشعب واللجنة المركزية يوم ١٦ اكتوبر].

كسر سلام الامر الواقع . .
كسر السلام المفروض بالارهاب الاسرائيلي .

ومن ذلك الهدف الاسراتيجي ومن التنبه المبكر الى التطورات المحتملة فان الرئيس انور السادات طرح مشروعاً عربيا للسلام [في نفس خطابه يوم ١٦ اكتوبر] .

ولقد قدم انور السادات مشروع السلام العربي قبل خمس ساعات من وصول اليكسي كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي الى القاهرة، وبالتالي فان هذا المشروع العربي للسلام كان على المائدة في اجتماعات قصر القبة بالقاهرة .

ثم كان مشروع السلام العربي على المائدة بعد ذلك حينما اجتمع ثلاثي القمة السوفيتي مع هنري كيسنجر في قصر الكرملين بموسكو.

وكان مشروع السلام المصري اخيرا على المائدة حينما اجتمع مجلس الامن فجر يوم ٢١ اكتوبر في مبنى الامم المتحدة بنيويورك .

وأهم من ذلك فان مشروع السلام المصري كان في عقل وقلب صاحبه المسئول تاريخيا عن صنع القرار المصري حين دق التليفون القابع بجواره باستمرار هذه الايام، وقيل له في الساعة التاسعة تماما من مساء يوم الاحد ٢٠ اكتوبر، ان السفير السوفيتي في القاهرة فلاديمير فينوجرادوف يطلب مقابلة عاجلة معه، لأن لديه رسالة من ليونيد بريجنيف الذي يجلس الآن مع هنري كيسنجر في موسكو.

وقال الرئيس السادات في التليفون :
ـ أبلغوه انني في انتظاره الآن» .

وفي نصف ساعة كان السفير مع الرئيس يقدم اليه رسالة بريجنيف

وكانت فيها سمعت بعد ذلك رسالة مطولة من اجزاء متعددة :

● تفاصيل عن اتصالات القوتين الاعظم وعلى وجه الخصوص عن محادثات موسكو مع كيسنجر.

● نص مشروع القرار الذي تعتزم القوتان الاعظم تقديمه الى مجلس الامن الذي دعى الى الاجتماع الليلة وينتظر ان تبدأ جلسته «بعد ساعة ونصف الساعة».

● الضمانات التي اتفقت القوتان الاعظم على احاطة مشروعهما المشترك بها حتى يتم التنفيذ الفوري والكامل لقرار مجلس الامن.

● التأكيدات التي يعزز بها الاتحاد السوفيتي ثقته في هذه الضمانات.

ولقد عرف العالم كله بعد قليل صيغة القرار المشترك الذي تقدمت به الدولتان الاعظم الى مجلس الامن ولكن ما عدا ذلك من رسالة الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف كان لعلم الرئيس المصري وحده [واعتقد بدون معرفة بالتفاصيل ان هناك شواهد عديدة تؤكد ان الاتحاد السوفيتي متمسك بما قدم من تأكيدات لأنه يتحرك خصوصا خلال الساعات الاخيرة بقوة وفاعلية].

وقال السفير السوفيتي للرئيس بعد ان تم نقل الرسالة اليه بكل اجزائها :

ـ لقد كنت قبل قليل على التليفون مع الرفيق بريجنيف شخصيا.

وهو يقول لك انه «ظل ليالي طويلة ساهرا معك ومع احداث المنطقة وأما الآن وقد توصلنا الى بداية طريق فانه سوف يذهب لينام ويقترح عليك ايضا ان تنام لتستريح بعض الوقت».

وقال انور السادات للسفير السوفيتي :

ـ أرجوك ان تنقل للصديق بريجنيف كل شكري على ما سمعته منك الآن.

لقد احسسنا بجهده الكبير معنا خلال الايام الاخيرة، ومن حقه ان يستريح الآن بعض الوقت ويذهب لينام».

ثم أضاف انور السادات:

ـ من سوء الحظ انني لا أستطيع ان أنام.. لم يحن الوقت بعد لنا كي نستريح وننام».

. . . .

. . . .

. . . .

٦ـ وأخيراًـ وبالتأكيدـ فان صانع القرار المصري كان يتمثل في ذهنه بعض المواقف العسكرية الطارئة والمحتملة، سواء على الجبهة الشمالية في سوريا، او على الجبهة الجنوبية في مصر.

وهذا عامل أوثر ان لا أخوض في تفصيلاته، لأن الضرورات كلها تنهى عنه الآن، وتستبعده، ولكني اكتفي هنا باشارات سريعة:

● ان هذه المواقف العسكرية والطارئة لا تستطيع ان تغطي على العمل العظيم الذي قامت به قواتنا المسلحة.

● ان هذه المواقف لا صلة لها بشجاعة المقاتلين، فلقد كان هؤلاء، وفي أصعب الظروف، شرفا لأوطانهم واعلامهم وسلاحهم.

● ان جيلاً جديدا قد تعلم في وهج الحرب لمدة ثلاثة اسابيع بأكثر مما استطاع جيل قبله ان يتعلمه في ثلاثين سنة.

وأمس فقط كانت هذه النقطة مدار حديث بين الدكتور محمود فوزي وبيني، وكان قوله لي:

ـ لقد كنا ندعي ان في استطاعتنا ان نعلم شبابنا، والآن فان علينا ان نتواضع، وان نتعلم من شبابنا.

لقد حاربوا لأول مرة في حياتهم.

وحاربوا في عصر جديد يختلف عن عصور مسبقة.

وحاربوا بأسلحة لم تجرب من قبل في ميدان قتال على هذا المدى الواسع.

ولقد اثبتوا انهم قادرون على الحياة وعلى العصر وعلى سلاحه، ولا أقصد سلاح القتال وحده، وانما اقصد سلاح البقاء الحضاري كله».

* * *

كان هذا هو المناخ الذي فكر ومارس وقرر فيه وتحت مؤثراته صانع القرار المصري وأعلن قبوله لوقف اطلاق النار.

ولم تتوقف النار حتى هذه اللحظة برغم قرارات متلاحقة من مجلس الامن وبرغم بيانات ونداءات.

ولسنا في حاجة الى تحقيق لكي نعرف من الذي يعود الى اطلاق النار.

أقول بغير تردد وبغير انتظار تحقيقات تجريها لجان المراقبة الدولية او غيرها:

ـ العدو هو الذي يعود الى اطلاق النار.
ان هدفه هو تدمير القوات المسلحة المصرية.

ان النقطة الساخنة في الصراع ما زالت كما قلت في الاسبوع الماضي هي: نظرية الامن الاسرائيلي.

ولقد استطاعت القوات المسلحة المصرية ان تهز نظرية الامن الاسرائيلي

وهذا شيء يذهب بعيداً وعميقاً في تكوين وحياة ومستقبل اسرائيل.

ليست النقطة الساخنة في الصراع شريطا تحتله القوات المصرية على الشرق من قناة السويس.

وليست النقطة الساخنة في الصراع ثغرة فتحتها القوات الاسرائيلية على الغرب من قناة السويس.

النقطة الساخنة هي نظرية الأمن الاسرائيلي التي استطاعت القوات المسلحة المصرية ان تهزها بعرق ودم ضباطها وجنودها على ساحات القتال.

وأظن ان اسرائيل بعودتها الى اطلاق النار تريد تحقيق ثلاثة اهداف تبدو امامي واضحة:

● محاولة تدمير القوات المسلحة المصرية التي استطاعت ان تهز نظرية الامن الاسرائيلي بكل ما يعنيه ذلك في الحاضر والمستقبل.

● التأثير نتيجة لذلك على جو وعمل وموازين مؤتمر السلام المقترح ذلك لأن القاعدة الدولية الثابتة دواما هي ان أي وثيقة لا تستطيع الا ترجمة الحقيقة.

لأن الواقع هو الذي يملي على الصياغات ولا تستطيع الصياغات ان تملي على الواقع.

● وربما كان الهدف الثالث شعوريا اكثر منه عقلانياً ذلك ان بعض ما يجري الآن يعبر عن رد فعل بالغيظ لحالة فقدان التوازن بعد المفاجأة التي داهمت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية في الساعات والايام الاولى من القتال واسقطت هيبتها».

□

وليس بي قلق مما يجري الآن على ساحة ميدان القتال فهذه هي الحرب وجيشنا يخوضها صامداً لعواصفها وأعاصيرها شجاعاً ومقتدراً، كما ان جماهير شعبنا فيها بكل وعيها وإصرارها- ولكن قلقي احيانا مما يجري في اعصاب البعض منا.

ولعلنا ندرك ان اعصابنا اليوم هي أقوى سلاحنا، واختم بملاحظتين:

هناك منجزات لم نعد نملكها وانما تملكها بطولة الرجال وتضحيات الرجال ودماء الرجال وقد كان دورهم في ساحات القتال أنظف وانبل وأعظم مشهد في كل حياتنا وتاريخنا.

ثم ان امامنا مهام عاجلة ومتواصلة، اولاها وأهمها ألا نفك الاشتباك مع العدو حتى اذا هدأت اصوات الانفجارات على الجبهة.. الصراع الآن على الذروة، وحتى اذا سكتت النيران فان هناك ما لابد- ضرورة- ان نحققه بالقوة، وان لم يكن- ضرورة- بالنيران.

ان العدو الآن مهما بدا من عنفه مشدود على الآخر مكشوف على الآخر ماديا ومعنويا.. سياسيا واقتصاديا.. عسكريا ودوليا وليس من حقنا ان نتركه ليستريح الا عند نقطة نستطيع نحن عندها ان نستريح.

وعلينا ان نفكر بسرعة وعلينا ان نتحرك بسرعة وعلينا ان نحشد فكرا وعملا قدرات امة عربية بأسرها عليها الخطر اذا استفحل، ولها الأمن اذا انحصر وانحسر.

* * *

ولقد أطلت ولم أجب إلا على سؤال واحد مما وجهته لنفسي، ووجهه لي غيري، وهناك أسئلة اخرى كثيرة.

سؤال ثان

قصة التسلل.. الثغرة!..

٢٨ اكتوبر ١٩٧٣

سؤال ثانٍ مطروح بالحاح، ولعله من أهم الأسئلة التي تثيرها تطورات الحرب الدائرة الآن في الشرق الأوسط، واظنه سوف يظل من اكثر الموضوعات مدعاة للجدل في المستقبل وهو:

ـ ما هي قصة هذا التسلل.. هذه الثغرة.. التي استطاعت القوات الاسرائيلية منها ان تنفذ عبر البحيرات المرة من شرق الى غرب قناة السويس؟

ماذا حدث؟.. كيف حدث؟.. الى آخره»؟

□

ولعلي في البداية اتحفظ فأقول انني لست خبيراً بالشئون العسكرية، ولا متخصصا في علومها وفنونها، وقصارى ما أدعيه لنفسي ـ وقد أكون مخطئاـ ان تجربة العمل الطويل، كمراسل حربي قديم في ميادين قتال متعددة، فرضت علي ان أتابع قضايا ومشاكل الفكر الاستراتيجي، ثم انها ولدت في عقلي فضولاً شديدا يحاول باستمرار ان يتعلم، وان يستكشف، وربما ورطني فيما أحاول اكثر، ان قضايا الفكر السياسي وقضايا الفكر الاستراتيجي تشابكت معاً في العصر الحديث، حتى كادت تصبح مجالاً واحداً من مجالات المعرفة.

والهواية أشد غواية من الاحتراف.

أقـول ذلك اعتـذاراً مسبقاً عن إقحـام نفسي فيها يبـدو انه خـارج عن اختصاصي!

. . . .

. . . .

وإذا ما فرغت بسرعة من هذه البداية، فان جوابي على السؤال المطروح بالحاح عن قصة هذا التسلل. . هذه الثغرة، كما يلي:

■■■ أولاً: ربمـا قلتـ ولا أظنني أبتعد كثيـرا عن الحقيقـةـ ان قصـة هذا التسلل. . هذه الثغرة، بدأت بالضبط في الساعـة الواحـدة وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السبت الثالث عشر من أكتوبر.

في تلك اللحظة، اخترقت المجـال الجوي المصـري طائـرتان من طـراز [س-٧١]، على ارتفاع ٢٥ كيلو متراً، شقت الفضاء العالي بسرعـة تصل الى ثلاث مرات سرعة الصوت، وكان خط سيـرها من فـوق بورسعيـد حيث بدأ الاختـراق، ثم مروراً فـوق الجبهة المصـرية كلهـا، ثم عبوراً بشـاطىء البحر الاحمر، ثم التفافا من وراء نجع حمادي، ثم عودة بقـوس الى سماء القـاهرة، ثم مـروراً ثانية فوق الجبهـة بالعـرض هذه المـرة وليس بالـطول قـاصـدة الى الارض المحتلة ومنها الى الخطوط السورية، ثم خـارجة الى البحـر متجهة الى قاعدة في تركيا او في اليونان.

لقد بدا ذلك الاختراق غريبا لأول وهلة، ولكن وجه الغرابة فيه يـزول اذا تذكرنا خريطة الاوضاع على الجبهة المصرية وقتها.

كانت الاوضاع كما يلي:

١ـ قامت القوات المصرية بعملية العبور التاريخي واقتحام قناة السويس واجتيـاح خط بـارليف في سـاعـات اضـافت صفحـة جـديـدة الى التــاريـخ العسكري كله.

٢ـ تقدمت القوات المصرية شرق قناة السويس، والى عمق يتراوح ما بين ١٨ و٢٤ كيلو مترا، وتمركز الجيش الثاني في القطاع الشمالي، وتمركز الجيش الثالث في القطاع الجنوبي.

٣ـ كان ذلك ـ كما تشهد الدنيا كلها ـ مفاجأة كاملة وقاسية على العدو الذي كان قد بنى خط دفاعه الأول على غروره، وعندما تهاوت واجهةالغرور، فان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية بدت أمام شعبها وأمام غيره في وضع قبيح، عبر عنه احد الخبراء العسكريين البريطانيين بقوله:

ـ لقد ضبط جنرالات اسرائيل فجأة وبنطلوناتهم مدلاة.. نصف عراة»!

٤ـ واحدث ذلك ـ وكان لا بد ان يحدث ذلك ـ اثره في اسرائيل، فكان ما اسميناه ـ وبصدق ـ حالة فقدان التوازن التي امسكت بتلابيب القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل طوال الايام الاربعة او الخمسة الاولى من الحرب.

٥ـ ولم يكن فقدان حالة التوازن صورة معنوية، ولكن ضرائبها المادية كانت فادحة، فقد انهارت نظريات، وسقطت خطوط، وتحطمت مئات الطائرات والدبابات والمصفحات، ووقع في الاسر او القتل الوف، وفقد الجيش الاسرائيلي اهم ما يملكه وهو صورته العامة، سواء في الخيال الاسرائيلي او في الخيال العالمي.

....

....

■■■ **ثانياً**: في ذلك الوقت كانت هناك مناقشة واسعة دائرة بين كل الخبراء والدارسين والمعلقين العسكريين الذين شدت انتباههم حرب الشرق الاوسط.

وكان موضوع المناقشة، وهو موضوع الساعة ايضا، سؤالا يقول:

ـ ما هي النوايا المحتملة للقوات المصرية بعد المشهد الافتتاحي الاول العظيم لعملية العبور؟

ثم ما هي النوايا المحتملة للقوات الاسرائيلية بعد الصدمة العميقة التي أصابتها بعملية العبور؟

[ولعلي احدد هنا ـاحتياطاـ انني في كل ما أقول الآن، اعتمد على متابعتي للمناقشات التي دارت بين مراكز الدراسات الاستراتيجية في اوربا الغربية عموماً وفي لندن وباريس على وجه التحديد].

كانت النوايا المحتملة بالنسبة للطرفين بعد افتتاحية العبور العظيمة الاولى هي موضوع المناقشة. . موضوع الساعة كما قلت.

وربما استطعت تلخيص اهم ما قيل خلال هذه المناقشة على النحو التالي:

■ فيما يتعلق بنوايا القوات المسلحة المصرية، فقد كان هناك رأيان:

١ـ رأي يقول بأن القوات المسلحة المصرية سوف تتلقى امرا بالتشبث بالمواقع الجديدة التي احتلتها على الشريط الممتد من الشمال الى الجنوب بمحاذاة قناة السويس من الشرق، وبعمق يتراوح ما بين ١٨ و٢٤ كيلو مترا.

وهذه المواقع تتيح لها ان تتمتع بحماية حائط الصواريخ الهائل على الضفة الغربية للقناة وراءها، وذلك يلاشي بالنسبة لها خطر تفوق الطيران الاسرائيلي: مواقعها الجديدة في مدى عمل حائط الصواريخ. . . وحائط الصواريخ يسلب الطيران الاسرائيلي حرية العمل فوقها.

وكان التقدير على أساس هذا الرأي هو ان القوات المصرية سوف

تكـون بهذه الاوضـاع صخرة تتحـطم عليها مـوجات الهجمـات الاسرائيليـة المضادة موجة بعد مـوجة وهـذا استنزاف يمكن ان يكـون مميتا بـالنسبة للقـوة الاسرائيلية الضاربة.

٢ـ رأي يقول بأن القوات المسلحة المصرية سوف تتلقى امرا بالانطلاق الى المضايق الحاكمـة في سيناء لكي تتمـركز فيهـا، باعتبـارها المفتـاح الى قناة السـويس، بل المفتـاح من مصر الى فلسـطين ومن فلسطين الى مصـر، وهذه حقيقة عسكرية ثابتة اكدتها التجارب قديما وحديثا.

كان هذا الرأي يرى ان خط المضايق الجبلي واستحكاماتـه المنيعة، هـو الخط الطبيعي والمنطقي للتمركز المصري، ثم ان هذا الخط ينقل ميدان القتال الى الشرق سبعين او ثمانين كيلومترا ويبعده عن قناة السويس، بل ان انصار هذا الرأي كانوا يرون انه بـوصول القـوات المصريـة الى هذا الخط والتمـركز فيه، فان الحرب في سيناء كلها تعتبر في حكم المنتهية، لأن اسرائيـل عليها في هذه الحالة ان تتراجع الى الخط الطبيعي الثـاني، وهو قـريب من خط الحدود الدولية المصرية.

■ وامـا فيما يتعلق بنـوايا القـوات المسلحة الاسـرائيلية، فقـد كان من المسلـم به إجماعاً، ان الضربة المضادة سوف تكون عليها.

ان القوات المصرية ضربت بالعبور وباحتمالات تطويره.

وإذن فان الضربة المضادة على اسرائيل.

وهنـا أيضـا كـان هنـاك رأيـان فيـما يتعلق بنـوايـا القــوات المسلحـة الاسرائيلية:

١ـ رأي يقـول انـه لم يبق امـام اسـرائيــل الا ان تـدخــل في معـارك بالدبابات لمنع احتمالات تطوير الهجوم المصري.

ومع أن ذلك سوف يجري في ظروف غير ملائمة لها، فانه السبيل الوحيد الباقي امامها لمنع تطوير الهجوم المصري.

وكان القول بعدم ملاءمة الظروف يرجع الى اعتبارين:

ان الارض المفتوحة من المضايق الى خط القوات المصرية محصورة، وهي ليست الميدان الافضل للمناورة بالمدرعات واستعمالها في حركات الالتفاف والتطويق التي برعت فيها القوات الاسرائيلية، وفضلاً عن ذلك فان مساحات من هذه المنطقة المحصورة التي لا تسمح بحركات الالتفاف والتطويق، تقع تحت نيران المدفعية المصرية البعيدة المدى على الشاطىء الغربي لقناة السويس.

ثم ان هذه المنطقة المحصورة المفتوحة للعمل قريبة من حائط الصواريخ المصري، وبالتالي فان عمليات المدرعات سوف تدور بغير التمهيد والحماية الكافية من القوات الجوية الاسرائيلية.

٢- ورأي يقول ان القوات الاسرائيلية لا بد ان تجد لنفسها ضربة مضادة اكثر ملاءمة من هذا كله.

واذا كانت القيادة المصرية قد طرحت وضعاً يلائمها، اذن فان على القيادة الاسرائيلية ان تتجنب هذا الوضع وتبتعد عنه.

أي انه ليس محتماً عليها ان ترد على الضربة المصرية في ميدانها، وحيث رتبت نفسها، وانما يدعوها فن الحرب الى البحث عن مجال آخر وتصور آخر توجه منه ضربتها المضادة. ان اللعبة المفضلة للعسكرية الاسرائيلية هي الاختراق والتطويق- تطبيقا لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر- ولا بد ان تجد القيادة العسكرية لنفسها فرصة تمارس فيها لعبتها المفضلة.

. . . .

. . . .

■■■ **ثالثاً**: إن واحداً من مبادىء الاستراتيجية، وهـو متكرر في كـل كتابات أقطابها، من «كلاوز فيتز»ـ منذ مائتي سنةـ الى ليدل هارتـ منذ سنين قليلةـ يقول ان ضربة الاختراق والتطويق تحدث اثرها دائـما في المفصل الـذي يقع بين قوة وقوة على أي خط.

نقطة المفصل دائـما هي اضعف النقط خصوصـا في المرحلة المبكـرة من العمليات، ولذلك فان تأمينها دائما له اجراءات وصلت في الحرب العالمية الثانية الى حد كتابة وثائق موقعة، باجراءات تدعيم المفصل.

بمعنى انه اذا كان هناك جيشان عـلى خط واحد، فـان اجراءات تـأمين المفصـل بينهما تحتم تسجيـل وثيقة عليهـا توقيعـات اربعـة من ضبـاط اركـان الحرب في كل جيش من الجيشين.

وهكذا فان من اهم الاسرار في عمليات عسكرية ضخمـة تشترك فيهـا قـوات على مستـوى مجموعـات جيوش، ان يعـثر العـدو المهـاجم عـلى نقـطة المفصل وان يحددها تماما.

نقطة تنتهي عندها مسئولية جيش، وتبدأ عندها مسئـولية جيش آخـر. هذه هي النقطة الضعيفة دائما لأنها ملتقى او مفترق مسئوليتين.

وبالتالي فانه بالنسبة لأوضـاع القوات المصـرية شـرقي القناةـ فقـد كان البحث عن نقـطة المفصل بـين الجيش الثاني في الشمـال، والجيش الثالث في الجنوب هو الكنز!

ولقد كان مفهوما من قبل، وذلك امر طبيعي، ان العدو سـوف يعرف بمحاولات الاستطلاع والاشتبـاك نقطة المفصـل بين الجيشـين، ولكن المسألـة المهمة هي: متى؟.. وفي أي ظرف؟

العثور على نقطة المفصل بعد الوقت الملائم لا قيمة له.

والعثور على نقطة المفصل في غير الظرف الملائم لا قيمة له.

. . . .

. . . .

■■■ رابعاً: لست في حاجة الى القول بأن القوات الاسرائيلية اختارت ان تلعب لعبة الاختراق والتطويق.

ولست في حاجة الى القول بان العثور على نقطة المفصل بين الجيشين الثاني والثالث كان شاغلها الاكبر في الايام الاولى من معارك سيناء.

ولست في حاجة الى القول بان طائرتي الاستطلاع الامريكيتين من طراز [س- ٧١] لم تكونا في نزهة في الفضاء العالي فوق الجبهة المصرية.

ولست في حاجة الى القول بان ما التقطته عدسات التصوير الدقيقة من ارتفاع ٢٥ كيلو مترا، وبسرعة الصوت ثلاث مرات، وصل الى اسرائيل.

ويلفت النظر هنا تتابع التوقيت:

كان الاستطلاع الامريكي على الجبهة المصرية في الساعة الواحدة وخمس دقائق من بعد ظهر السبت الثالث عشر من اكتوبر.

وكانت الخطوة الاولى في عملية التسلل- كما اطلق عليها في البداية- مع آخر ضوء مساء يوم الاثنين الخامس عشر من اكتوبر.

لقد ظهر سر نقطة المفصل ما بين الجيشين.

واستقرت اسرائيل على شكل واتجاه الضربة المضادة التي كان محتماً ان تقوم بها.

وهكذا بدا الاستعداد للتنفيذ مهما كانت المخاطر.

ولست اريد ان يفهم احد بأن اسرائيل استقرت على ضربتها المضادة في ساعات وانما لابد ان احتمال الاختراق الى الغرب كان مدروسا من قبل وكانت هناك خطط بديلة جاهزة اذا طرأ ما يدعو اليها، بل ان هذا الاحتمال يتجاوز الظن لأنه كان معروفا وبتصريحات علنية لعديد من قادة اسرائيل: «انه اذا خطر للقوات المصرية في يوم من الايام ان تعبر الى الضفة الشرقية، فان عبور القوات الاسرائيلية الى الضفة الغربية لا يمكن استبعاده».

ثم جاءت اللحظة التي دخلت فيها جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثلاثاء السادس عشر من اكتوبر لتعلن اثناء المناقشة العامة في الكنيست ـ ولكي تقمع اصوات المعارضة فيه ـ «ان القوات الاسرائيلية تعمل الآن في غرب قناة السويس!».

. . . .

. . . .

■■■ خامسا: كانت الضربة الاسرائيلية على هذا الشكل، وفي هذا الاتجاه مغرية الى اقصى حد بالنسبة لاسرائيل لعدة اسباب:

١ـ هي لعبة الاختراق والتطويق مرة اخرى، لعبة المدرعات الاسرائيلية المفضلة.

٢ـ ان القيام بها ينقل المعركة من شرق القناة الى غربها، وبذلك فانها تتجنب مواجهة الجيوش المصرية وتلف وراء ظهرها.

٣ـ إن ذلك معنويا، سوف يحدث آثاراً كبيرة ترفع من روح الشعب في اسرائيل، وتخفف من وقع الصدمات التي نزلت عليه.

٤ـ إن ذلك ربما يتيح لها ان تتعامل بالمدرعات مع حائط الصواريخ على الغرب، وقد اعيتها الحيل في اختراقه وشل فاعليته بالطيران.

٥ـ ان ذلك يعطيها ميزة المفاجأة بكل ما يمكن ان تحدثه المفاجأة على الطرف الآخر في الحرب وعلى اعصابه.

. . . .

. . . .

■■■ سادسا: لا بد ان يقال، عدلا وانصافا، ان الجيشين الثاني والثالث حاولا بكل تصميم وعناد سد ثغرة المفصل بينهما ولكن العدو كان مستعدا عند هذه النقطة ان يصل الى النهاية وان يفتح طريقا للتسلل. . الثغرة مهما كان الثمن، وذلك حدث ويحدث في الحروب والمهم باستمرار هو ملاقاة الثغرة بهجوم مضاد يضرب في اتجاهها ويصد في نقطة المصب بينما تستمر الجهود لقفل الثغرة والاطباق عليها عند المنبع، ولا بد ان يقال عدلا وانصافا كذلك ان الخطة المصرية كانت تتوقع في حساباتها لعبة من هذا النوع تقوم بها اسرائيل، بل ولقد اقول ان المنطقة التي جرى فيها التسلل او الثغرة كانت أقرب ما تكون الى ما توقعته الخطة المصرية وتحسبت له.

ماذا حدث؟ . . وكيف؟ . . ولماذا؟

لا بد ان اقول صراحة ان ذلك ليس مطروحا للمناقشة هنا، كما انه ليس مطروحا للمناقشة الآن.

ومع ذلك، فلا بد ان أقول ان ما حدث لا ينتقص من فيمة الانجاز العسكري المصري، كما انه لا يتصل من قريب او بعيد بروح القتال لدى الضابط المصري والجندي المصري.

وفوق ذلك، فاني أضيف ان ما حدث كان ولا يزال في نطاق ما يمكن مواجهته وبكل الوسائل.

. . . .

■■■ سابعاً: ان القوات الاسرائيلية التي تدفقت من خلال الثغرة التي ركزت عليها المدرعات الاسرائيلية في المفصل ما بين الجيشين وعبر البحيرات المرة ـ واستماتت في التركيز عليها ـ سمحت لقوة عمل يقودها الجنرال آريل شارون، وهو من الخبراء في عمليات الاختراق والتطويق، ان تنفذ الى الغرب من قناة السويس.

وكانت قوة العمل الموضوعة تحت قيادة شارون، وفقا لتقديرات «درو ميدلتون»، وهو من ابرز المعلقين العسكريين الآن، تضم مجموعة لواءين من المدرعات، ولواء واحدا من المشاة الميكانيكية، ومجموعة من قوات الكوماندوز.

إن هذه القوة حاربت حربا غريبة، ولعلي أقول انها حرب جديدة.

أكاد أسميها حرب عصابات بالدبابات.

لقد تمركزت هذه القوة أولا في منطقة الدفرسوار، وهي ملتقى طرق متعددة: جنوبا الى السويس، وشمالا الى الاسماعيلية وبورسعيد.

ثم راحت هذه القوة ثانيا تدفع مغارز صغيرة من الدبابات في كل اتجاه، تجس هنا وهناك، وتبحث لنفسها عن طريق تندفع عليه.

كان هدفها مزدوجا:

هدف عسكري.. وهدف نفسي:

كان هدفها العسكري ان تطول اقصى ما تستطيع ان تطوله من مواقع شبكة الصواريخ المصرية.

وكان هدفها العسكري ايضا ان تعمل على مؤخرة جيش من الجيشين وعلى طرق امداده، بينما هو مشغول بمعارك الدبابات أمامه.

وفي النهاية، فان هذه القوة دفعت بعض عناصرها نحو الجنوب، وبدا ان هدفها هو مؤخرة الجيش الثالث.

وكان الهدف النفسي هو التأثير على الأعصاب، وبالذات هنا في القاهرة، ووراءها العالم العربي كله ثم العالم الخارجي اخيرا.

وصدرت البيانات الاسرائيلية تقول ان القوات الاسرائيلية على بعد كذا كيلو متر من القاهرة، وكان هذا كله- عسكريا- لا يعني شيئا، ولكنه بالنسبة لاعصاب مرهفة كان ثقيلا. وربما اضفت ان لهجة البيانات الرسمية المصرية الى جانب ما راحت تصبه الاذاعات الاجنبية، جعله أشد ثقلاً!

كانت الحرب هناك- الى جانب اهداف عسكرية معينة- حربا على الاعصاب هنا.

كانت في الواقع حرب عصابات بالدبابات.

عشر دبابات تتحرك على طريق، وعشر دبابات تظهر امام موقع، وعشر دبابات تلف من حول نطاق. بل وأحيانا وصل عدد الدبابات التي تتحرك على طريق، او تظهر امام موقع، او تلف حول نطاق، خمس دبابات. . . بل وثلاث دبابات في أحوال عديدة!.

ولقد أضع في اعتباري هنا عنصرا آخر.

ذلك هو ان اسرائيل كانت تتوقع قراراً بوقف اطلاق النار، ومن هنا فانها ارادت الانتشار مهما كان هشاً على أوسع مساحة، حتى اذا كانت لا تستطيع بسرعة تعزيز هذا الانتشار او حمايته. كان يهمها ان يجيء وقف اطلاق النار ووجودها محسوس على اكبر رقعة من الارض غرب سيناء.

وكان لبعض الخبراء، الى جانب ذلك، اجتهاد آخر يقول ان اسرائيل بذلك ارادت ان تضع القيادة المصرية امام احد سبيلين لمواجهة الموقف:

اما ان تسحب جيوشها من شرق القناة.

واما ان يزداد ثقل ما تقوم به هي في الغرب على الاعصاب في القاهرة.

. . . .

. . . .

■■■ **ثامنا**: لا بد ان ندرك ـ وان نتمسك بكل ما يترتب على هذا الادراك ـ ان معظم هذه التحركات الاسرائيلية بالانتشار بالشظايا من حفنات الدبابات جرى بعد صدور القرار الاول بوقف اطلاق النار فجر يوم ٢٢ اكتوبر.

. . . .

. . . .

■■■ **تاسعاً**: يبقى ان مواجهة هذه العملية من حرب العصابات، بكل الوسائل، ليست معضلة بغير حل اذا استعدنا زمام المبادأة في قلوبنا وفي عقولنا.

. . . .

. . . .

■■■ **عاشراً**: الوضع العسكري على الجبهة الآن كما يلي:

١ـ خطوطنا على الشرق من قناة السويس ثابتة: الجيش الثاني في القطاع الشمالي في وضع طيب، والجيش الثالث في القطاع الجنوبي يحتفظ بصلابته رغم وجود متاعب في مؤخرته من حرب العصابات بالدبابات.

٢ـ الخط على الغرب من الاسماعيلية الى الشمال سليم، برغم محاولات العدو بالطيران، وبالذات فوق بورسعيد.

٣ـ الخط على الغرب من الدفرسوار وجنوبا، يعيش ذلك المشهد الغريب من حرب العصابات بالدبابات، صنعت لنفسها هنا وهناك مواقع كالبقع تتحرك عليها بسرعة وتنتشر فوقها بغير تركيز وبغير عمق.

وهذه هي الصورة كاملة.

ولست من أنصار التهوين، ولكني لست ايضا من انصار التهويل.

وأقول بأمانة:

ـ اظننا نستطيع باعصاب هادئة وبردود فعل محتفظة بتوازنها.. وبكل وسائل القوة السياسية الشاملة [بما فيها السلاح].

ولو استطعنا، فان ما تصورته اسرائيل مخرجا لها.. قد يصبح مأزقاً لها!

□

ولقد كتبت ما كتبت لأني لا أتصور ان تعيش مصر هذه اللحظات في جو اعتام فكري، والإعتام في شوارعنا ضرورة ولكن الإعتام في رؤيتنا للصورة الحقيقية لا مبرر له.

ثم انني كتبت ما كتبت احقاقا للحق وانصافا للواقع، وكان في ضميري طول الوقت جهد اعظم الرجال، وأشجع المقاتلين، وأشرف الاجيال التي عاشت حتى الآن على أرض مصر.

رجال اعطوا وقاتلوا واكدوا قيمتهم وقيمة وطنهم، ولا تستطيع قوة على الارض- ولا يجب ان نسمح لقوة على الأرض- ان تسرق عطاءهم وقتالهم وتأكيدهم لقيمتهم وقيمة وطنهم.

لقد صنعوا ما صنعوه كله بالدم وفي النور.

ولا يمكن ان يضيع شيء منه بالغدر وفي الظلام.

السلام البعيد.. البعيد!

٢ نوفمبر ١٩٧٣

... برغم انني واحد من الذين يترددون باستمرار قبل التطوع باصدار أحكام مسبقة، خصوصا في ظروف لم تستكمل بعد شكلها النهائي، وازاء افعال ما زالت ردود فعلها تصل الينا كأصوات رجع الصدى مكتومة ومضغومة بحيث يصعب تفسيرها، على الاقل بالسرعة الكافية...

برغم ذلك فلعلي أقول:

ـ ان ما أراه أمامي، والطريقة التي افهمه بها، والاستنتاجات التي اخرج بها منه ـ يدعوني كله الى الاعتقاد بأن السلام ما زال بعيدا... بعيدا... بعيدا جدا.

حتى الطريق الى السلام ما زال بعيدا... حتى بداية الطريق الى السلام ما زالت بعيدة!».

وربما اضفت الى ذلك اعتقادي بان عودتنا الى ميدان القتال لمواصلة الحرب، اقرب الى الاحتمال في تصوراتي من ذهابنا الى مؤتمر للسلام في نيويورك أو في جنيف أو غيرهما من المدن الكبرى المطروحة للمناقشة كبيت لهذا المؤتمر المقترح تحت مظلة الامم المتحدة وفي اطار مجلس الامن وبالاشتراك المباشر لبعض أعضائه وبالذات أصحاب المقاعد الدائمة وفي مقدمتهم القوتان الاعظم...

والسبب الذي يجعلني أقول بذلك هو ما استطيع ان ألمحه، وما استطيع أن استقرئه، من اشارات وايماءات، الى اتجاهات التفكير والحركة في اسرائيل.

□

ولعلي أحدد في هذا الصدد ثلاثة تصريحات اسرائيلية لافتة للنظر بأهمية من صدرت عنهم، وبخطورة ما تعبر عنه، وهذه التصريحات الاسرائيلية الثلاثة، على النحو التالي:

١ ـ تصريح لجولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل اثناء زيارتها يوم ٢٩ أكتوبر لبعض وحدات جيشها في الثغرة المفتوحة على الضفة الغربية من قناة السويس وقد جاء فيه قولها:

«اننا ارغمنا على قبول وقف اطلاق النار قبل تحقيق اهدافنا وقد كان ارغامنا على ذلك بوساطة الولايات المتحدة، وقد اضطررنا الى القبول لان الولايات المتحدة هي المصدر الوحيد الذي نحصل الان منه على السلاح».

٢ ـ تصريح للجنرال دافيد اليعازار رئيس هيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلي اثناء مؤتمر صحفي عقده يوم ٢٨ أكتوبر أمام عدسات التليفزيون الاسرائيلي وقد جاء فيه قوله:

«اننا حرمنا من تحقيق انتصار حاسم كنا قادرين عليه، ولكننا لم نكن قادرين على الضغوط الدولية التي حالت بيننا وبينه بعد أن تحول التيار لصالحنا».

٣ ـ تصريح للجنرال حاييم هرتزوج رئيس المخابرات الاسرائيلية السابق والمتحدث الرسمي باسم القيادة العامة للجيش الاسرائيلي حاليا أثناء عرضه اليومي للموقف يوم ٢٧ أكتوبر أمام مجموعات الصحفيين والمراسلين الذين يتابعون أنباء الحرب من الجانب الاسرائيلي وقد جاء فيه قوله:

«ان العالم لم يكن يريد لاسرائيل ان تنتصر وقد اظهر نحوها في اللحظات الحرجة عداء غريبا لا نستطيع تفسيره الا بانه نزعة من نزعات معاداة السامية».

هذه هي التصريحات الثلاثة اللافتة للنظر، أوردتها بنصوصها وفي مناسباتها وبغير تحرج لانه من المحتم علينا ان نفهمها وأن نناقشها وأن نستخلص منها ما يتحتم علينا أن نستخلصه وان كنت اضيف على الفور وبغير انتظار انها جميعا معبأة برموز تشير الى اتجاهات التطورات المحتملة والقادمة!

* * *

ولربما كان ضروريا قبل أن نحاول فهم هذه التصريحات الاسرائيلية واستخلاص ما تعنيه ودلالاته- ان نسأل انفسنا اولاً:

- هل ذلك صحيح؟

هل صحيح ان اسرائيل حرمت انتصارا كان في يدها لان ضغوطا وقعت عليها ومنعتها من ان تلتقط باصابعها ثمرة كانت ناضجة على الشجرة؟!».

هذا هو السؤال...

وهو سؤال لا بد ان نناقشه باستفاضة لأن اشياء كثيرة في الحاضر وفي المستقبل سوف تتوقف على مناقشته بطريقة لا تترك مجالا لاي لبس او سوء فهم.

واحاول ذلك الان...

□

سوف أقول - بداية - انه مما لا شك فيه ان هناك عنصرا دوليا دخل

على حرب الشرق الاوسط وحولها في لحظة من اللحظات من مواجهة محلية واقعة بين العرب واسرائيل الى مواجهة دولية محتملة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

وكان ذلك منطقيا وكان متوقعا لعدة اسباب:

الشرق الاوسط منطقة حيوية بالنسبة للقوتين الاعظم على اختلاف المبادىء التي تحكم سياسات كل منهما فيه [لست في حاجة الى اعادة التذكير بالاهمية الاستراتيجية والاقتصادية والحضارية للمنطقة].

القوتان الاعظم هما مصدر السلاح بالنسبة لطرفي الحرب المسلحة في الشرق الاوسط: الاتحاد السوفيتي المصدر الرئيسي للسلاح العربي والولايات المتحدة المصدر الرئيسي للسلاح الاسرائيلي.

ومن هنا فانه مع اهمية المنطقة، ومع تصاعد الحرب فيها وتزايد الطلب على امدادات السلاح ـ فان القوتين الاعظم سوف تجدان نفسيهما بقرب ميدان القتال في لحظة من اللحظات.

الوفاق بين القوتين الاعظم ما زال في بدايته اي انه ما زال هشا في بنائه رغم قوة الدعائم التي يستند عليها ثم انه ما زال مفتوحا لاختبار النوايا لان الوفاق لم يغير اختلاف الطبائع بين القوتين الاعظم.

من هنا فاننا نستطيع ان نقول بتجرد ونزاهة:

ان حرب الشرق الاوسط دارت على مرحلتين:

مرحلة اولى كانت الحركة فيها هي حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية.

مرحلة ثانية تداخلت فيها تأثيرات التوازن الدولي مع حركة الميزان بين

القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية.

وقد احاول تبسيط المسألة اكثر فاقول:

ان حرب الشرق الاوسط التي احتدمت لمدة عشرين يوما تقريبا، تنقسم الى قسمين بالضبط:

عشرة ايام منها، الايام العشرة الاولى، وقد كانت الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجها لوجه، مباشرة، وبقوة كل منهما بمفرده.

عشرة ايام منها، الايام العشرة الاخيرة، ولم تكن الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجها لوجه، ولا مباشرة، ولا بقوة كل منهما بمفرده.

وهكذا فانه يتحتم علينا ان نسأل انفسنا سؤالين محددين:

ماذا حدث في الايام العشرة الاولى؟
ماذا حدث في الايام العشرة الثانية؟

* * *

نلتفت الى الايام العشرة الاولى وسوف نجد ما يلي:

١ ـ استراتيجية اسرائيل تقوم على احساس بالتفوق المطلق وكانت مكونات هذا الاحساس بالتفوق المطلق متعددة:

العرب رهائن لعقدة الخوف ولن يجسروا على اتخاذ القرار.
اذا اتخذوا القرار فانهم لا يعرفون ما هي الحرب الشاملة .

الامن الاسرائيلي منيع وراء حاجز قناة السويس ووراء استحكامات خط بارليف.
قوة الردع الاسرائيلي هائلة وسوف يكون انقضاضها رهيبا.

. . . . .
. . . . .
. . . . .

٢ـ ان قرار قبول التحدي وخوض الحرب كان صدمة لاستراتيجية اسرائيل نفسيا وفنيا:

نفسيا: لانه جاء على عكس كل توقعات وتقديرات القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل.

فنيا: لان مخابرات اسرائيل لم تعرف به، وان كانوا يقولون الان ـ ولعلي أميل الى تصديقهم في هذه النقطة فقط ـ انهم تأكدوا في صباح يوم ٦ اكتوبر ان الضربة قادمة في ساعات، ولكن الوقت كان قد فاتهم ولم يعد في مقدورهم مهما فعلوا ملاقاة الضربة او تفاديها.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . .

٣ ـ ان المفاجأة الحقيقية في الحرب كانت مفاجأة التاريخ، وهذه نقطة أريد أن اشرحها أكثر

وكنت اقول ـ دائما ـ وما زلت اقول ان صميم ازمة اسرائيل انها تتجاهل التاريخ تماما، وتعيش خارجه ، بل وتعيش ضده.

انها مثلا تقيم اساس وجودها على اسطورة غيبية تقول بأن هناك وعدا آلهياً لبني اسرائيل بالعودة الى أرض الميعاد، وهي في نفس الوقت تنسى الحقيقة التاريخية التي تقول بأن هناك شعبا اسمه شعب فلسطين عاش آلاف السنين وما زال يعيش على هذه الارض المقول بأنها أرض الميعاد.

اسطورة غيبية ضد حقيقة التاريخ.

وهي مثلا تقيم مبرر وجودها على اضطهاد النازية العنصرية ليهود أوربا وحق هؤلاء اليهود في وطن لهم يأمنون فيه، وهي في نفس الوقت تنسى ان

اضطهاد اليهود حقيقة تاريخية في أوربا، ولكن اضطهاد اليهود لم يكن في يوم من الايام حقيقة تاريخية في الشرق الاوسط.

فرض حقيقة تاريخية بعيدة على وضع تاريخي لا علاقة له بها.

كنت أقول بذلك دائما واضيف اليوم:

● ان الذي يتجاهل التاريخ هو من ينسى ان البذرة هي التي تصنع الشجرة.

● والذي يعيش خارج التاريخ هو من يتصور ان بمقدوره ان يفرض على اليوم ما لا علاقة له بالامس.

● والذي يعيش ضد التاريخ هو من يجري حساباته على شكل الاشياء متغافلا عن مضمون الاشياء او يجري حساباته على ما هو منظور من العوامل فقط ناسيا ما هو كامن وهو احيانا اقوى وافعل من المنظور.

ولقد افرغ بسرعة مما يبدو انه فلسفة لا داعي لها لاقول:

ان مفاجأة التاريخ التي قلت انها كانت اكبر مفاجآت الحرب هي:

الانسان العربي العادي وما استطاع ان يعطيه في الحرب.

أن اسرائيل حسبت أسباب تفوقها طائرة ضد طائرة، ودبابة ضد دبابة، وصاروخا ضد صاروخ ثم اعتبرت ان جرد الحساب كان لصالحها.

كان ذلك هو حساب الشكل والتغافل عن المضمون.

حساب المنظور ونسيان غير المنظور.

أو بمعنى اصح نسيان الاعتبار المعنوي... الاعتبار التاريخي واثره على عطاء الانسان العربي في المعركة الجديدة.

اقول بوضوح اكثر.

ان بطل الحرب الحقيقي هو الانسان العربي العادي وما كان ولا يزال كامنا في اعماقه، الى جانب ما كان ولا يزال يحمله من السلاح.

ولقد تتبعت تفاصيل كل المعارك على الجبهة المصرية وعلى الجبهة السورية وخرجت بيقين لم اتزحزح عنه وهو ان الانسان العربي العادي كان هو العنصر الجديد في الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة... الراهنة.

لقد استطاع احمد وجرجس... عويس ومرقص ان يواجهوا موشيه وحاييم... آري وافراهام.

استطاع خريج الهندسة المصري المجند مثلا ان يواجه خريج التخنيون- أرقى معاهد التكنولوجيا في اسرائيل- الاسرائيلي المجند - كلاهما يدير اعقد الاجهزة الاليكترونية ويوجه اشد الاسلحة فتكا واكثرها تعقيدا.

استطاع «الفلاح» المصري ان يواجه «السابرا» الاسرائيلي - وليد حركة المستعمرات في اسرائيل - واكثر من ذلك استطاع ان يضربه.

كان الانسان العربي، وهذه هي مفاجأة التاريخ التي اعنيها، على استعداد لان يعطي باكثر مما كان منتظرا منه، بل باكثر مما كان منتظرا بأي مقياس.

ولقد تابعت نماذج لا ينبغي - ولا يحق - لاحد ان يتجاهل عطاءها.

ومثلا فلقد كان هناك اعتقاد بان الطيران المصري ليس كفؤا للطيران الاسرائيلي ولكن بعض ما حدث كان لا يصدق ولا يمكن تفسيره الا على ضوء غير المنظور من اثر العمق التاريخي.

كيف يمكن مثلا تفسير ان بعض الطيارين قاموا بست وسبع طلعات في يوم واحد؟

كيف يمكن تفسير حقيقة ان طيارا مصريا يقود طائرة من طراز ميج ١٧

استطاع ان يهاجم وان يسقط طائرة اسرائيلية من طراز ميراج... والميراج اقوى من الميج ١٧ بغير جدال، واذن فان الفارق كان في الانسان الحي ولم يكن في آلة الحرب؟

ولقد قال لي بعض من سألت من الخبراء العارفين:

ـ ان الطيارين كانوا يحسون ان هناك من وضعوا جزءا كبيرا من نكسة سنة ١٩٦٧ على عاتق الطيران والضربة الاولى التي اصابته صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧... ولقد ارادوا هذه المرة ان يثبتوا ـ برغم كل شيء ـ انهم على استعداد للمواجهة مهما كان الثمن».

ولم يكن هذا التفسير كافيا لاقناعي. ولعلي اعترف ان طيارا اسرائيليا اسيرا اعطى اجابة اكثر قدرة على الاقناع.

كان الطيار الاسرائيلي ضمن تشكيل اغار على قاعدة من القواعد الجوية المصرية في الدلتا، واصابت وسائل الدفاع الجوي المصري طائرته بصاروخ وقفز هو بالمظلة بينما هوت طائرته محترقة على احد الحقول الخضراء.

ونزل بالمظلة ليجد كمينا في انتظاره قام باسره ودخل به الى القاعدة الجوية التي جاء لمهاجمتها.

وتصادف وقتها ان قائد الطيران المصري بنفسه كان في القاعدة، واتيحت له الفرصة ليرى الهجوم الاسرائيلي ويتابع نتائجه وحين عرف ان احد المهاجمين من طياري العدو قد وصل الى القاعدة اسيرا فانه طلب ان يراه.

وقال القائد المصري للطيار الاسرائيلي الاسير:

ـ انني رأيت هجوم تشكيلك على هذه القاعدة الجوية ولم يكن مستواكم في الهجوم كما توقعت».

واستطرد القائد المصري يقول:

ـ كنا نظنكم اكفأ من هذا... ماذا حدث لكم... هل تغيرتم؟»

ونطق الطيار الاسرائيلي الاسير ـ نطق بالحكمة كلها ـ قائلا بالحرف:

ـ سيدي... انتم الذين تغيرتم!!».

.....

.....

......

٤ ـ لقد كانت النتائج المحققة للمرحلة الاولى من الحرب... الايام العشرة الاولى من الحرب، وحين كان العرب واسرائيل وجها لوجه، مباشرة، وبقوة كل منهما بمفرده على النحو التالي:

فقد الجيش الاسرائيلي نصف قوته المدرعة [٩٠٠ دبابة].

فقد الجيش الاسرائيلي اكثر من ثلث قوته الجوية [١٧٠ طائرة].

فقد الجيش الاسرائيلي من ضباطه وجنوده قرابة سبعة آلاف قتيل واكثر من عشرين الف جريح الى جانب مئات من الاسرى.

[ويلاحظ هنا انني اتحدث عن التقديرات الدولية المحايدة لخسائر سرائيل واترك جانبا تقديراتنا كلها مهما كانت مصادرها].

محصلة ذلك فيما هو غير منظور وهو في رأيي اهم من المنظور أنّ:

● المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ـ وهي عز اسرائيل وفخرها ـ فقدت هيبتها.

● حدث انكسار في الثقة بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة السياسية في اسرائيل.

● حدث اهتزاز في العلاقة ما بين القمة والقاعدة في اسرائيل.

● تأثرت بغير جدال صورة اسرائيل العامة في العالم وكانت تبثها على اساس انها تكاد تكون «قوة عظمى اقليمية» اذا جاز هذا التعبير!

* * *

هذه لمحات قد تعطي صورة اجمالية لشكل المرحلة الاولى. . . الايام العشرة الاولى من الحرب، وقت كان العرب واسرائيل وجها لوجه، مباشرة، وبقوة كل منهما بمفرده.

ولا بد لي ان اضيف شيئا آخر لكي تكون المسائل في حدودها الحقيقية وفي احجامها الطبيعية

اريد ان اضيف انه قرب نهاية المرحلة الاولى. . . قرب نهاية هذه الايام العشرة الاولى من الحرب - فان القيادة في اسرائيل، سياسية وعسكرية، تمكنت من استعادة توازنها، وعادت الى السيطرة على ادوات قوتها، خصوصا باتمام حالة التعبئة العامة الى حدودها القصوى.

بدأت تتصرف بعقل. . .

وبدأت خططها تتحرك بكفاءة

وراح ذلك يظهر في ميدان القتال.

وهذا شيء لا بد أن نعترف به اذا كنا لا نريد ان نخدع انفسنا مع العلم بأننا لا نستطيع فيها ان نخدع غيرنا!

لكن ما حدث قبل ذلك. . . كان قد حدث، ولم يعد في مقدور شخص او شيء ان يلغي آثاره:

١ - استراتيجية اسرائيل القائمة على الاحساس بالتفوق المطلق. . . مضروبة.

٢ - صدمة القرار بقبول التحدي وما يعنيه ذلك نفسيا وفنيا. . قائمة.

٣ - مفاجأة التاريخ. . . اكدت نفسها.

٤ - خسائر اسرائيل في المنظور وفي غير المنظور. . . حقائق.

□

وكنت اتحدث وفق هذا المنطق مع احد سفراء الدول الغربية الكبرى في القاهرة وقال لي:

ـ انك فيما كتبت احيانا كنت تحذر من تجميد الحوادث عند لحظة معينة يكون عليها القياس واستخلاص النتائج . . . كنت تقول بأنه لا يمكن تجميد لحظة معينة لان الحوادث مستمرة.

واريد ان اسألك: الم يكن من شأن عودة العقل والكفاءة الى التصرفات الاسرائيلية بعد المفاجأت والصدمات الاولى ان يحدث اثرا بعيدا على ميدان القتال وتطورات الصراع فيه؟

انني أسألك . . لا لانني اعترض على سياق منطقك ـ فأنا أوافق عليه في جملته ـ وانما اسألك لكي نصل معا الى تحديد مشترك».

وقلت:

ـ لقد حذرت دائما ـ وما زلت احذر ـ من تجميد الحوادث عند لحظة معينة لان الحوادث ببساطة لا يمكن تجميدها.

لكن علينا ان نفرق هنا بين شيئين:

التداعي الطبيعي لموقف معين . . . وبقوة عناصره الذاتية.

ثم الحقن الصناعي لموقف من المواقف . . . وبما هو خارج عن نطاق عناصره الذاتية.

واذا أردنا ان نطبق ذلك على الواقع فاني اقول:

ـ اننا في المرحلة الاولى . . . الايام العشرة الاولى من الحرب دمرنا من قوة اسرائيل المنظورة وغير المنظورة بأكثر مما كانت تستطيع التغلب عليه بقوة ما لديها ذاتيا.

لست اقول انه كان في استطاعتنا توجيه ضربة قاضية لها ـ اذا جاز لي

استعمال تعبيرات الرياضة في الملاكمة مثلا .

لكني اقول انه مهما كان ما تفعله او ما تقدر ان تفعله، فلقد كان بعيدا عليها ان تهزمنا. . . ولقد اقول بغير تجاوز اننا في هذه المرحلة من لعبة الحرب هزمناها. . . ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط!

واريد ان تعرف ان الذي هزمناه بالنقط في هذه المرحلة من الحرب لم يكن دولة، ولا كان جيشا، وانما كان فلسفة ونظرية. . . فلسفة ونظرية الامن في اسرائيل هذه هي النقطة الساخنة في الصراع وسوف اظل ـ وفي غير عناد ـ مصمما على انها بؤرته الحقيقية!»

* * *

ماذا حدث في المرحلة الثانية. . . الايام العشرة الاخيرة من الحرب؟

لقد تحركت الموازين الدولية عند القمة.

دخلت الولايات المتحدة بكل ثقلها لنجدة اسرائيل.

وجاء الاتحاد السوفيتي ليقف بجانب اصدقائه العرب.

ولا بد ان نلاحظ هنا فارقين:

١ ـ من ناحية كانت الولايات المتحدة تلقى بكل ثقلها الى جانب استمرار احتلال اسرائيل للاراضي العربية بعد سنة ١٩٦٧ ـ اما الاتحاد السوفيتي فقد كان يقف بجوار حق اصدقائه العرب في تحرير اراضيهم المحتلة بعد سنة ١٩٦٧.

٢ ـ ان الولايات المتحدة بالجسر الجوي والبحري الذي اقامته لامداد اسرائيل كانت تعطي لاسرائيل مددا جديدا ـ لم تكن اسرائيل نفسها تظن انها سوف تحتاجه يوما. واما الاتحاد السوفيتي فانه ـ بالجسر الجوي والبحري الذي اقامه لامداد اصدقائه العرب ـ كان ينفذ بسرعة وبامانة عقودا سابقة كان العرب قد احسوا بحاجتهم الى ما فيها وطلبوها فعلا وتعاقدوا عليها ونشبت الحرب قبل وصولها.

□

نعود الى السؤال الذي يعنينا هنا:

ـ ماذا حدث في هذه المرحلة الثانية... هذه الايام العشرة الاخيرة من الحرب؟

ان ساحة الصراع تغيرت... لم يعد هناك طرفان فيه ولكن اربعة.

لم يعد هناك العرب واسرائيل وحدهما وانما نزل الى الساحة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية.

اصبح الصراع دائرا على مستويين:

- صدام اقليمي بالسلاح في الشرق الاوسط.
- واحتمال صدام عالمي عند القمة الدولية بين القوتين الاعظم

ونتيجة لذلك فقد تغير شكل اللعبة وتغيرت قواعدها لكن الحقائق التي كانت قد فرضت نفسها على ساحة الصراع قبل هذا التطور لم يكن ممكنا خلعها او نسيانها...

ان التحركات الجديدة في اللعبة كانت تجري من حولها.

واصبح المشهد العام للمسرح كله مزدحما اكثر... معقدا اكثر.

وتلك كلها موضوعات سوف اعود اليها بالتفصيل وان كنت افضل هذه اللحظة ان اعود الى حيث بدأت هذا الحديث بثلاثة تصريحات اسرائيلية لجولدا مائير ولدافيد اليعازار ولحاييم هرتزوج.

* * *

واذا عدت لهذه التصريحات الثلاثة فما هو تعليقي عليها بعد كل ما قلت؟

تعليقي كما يلي:

١ ـ لم يكن في وسع اسرائيل ان تحرز انتصارا حاسما علينا ولا كانت هناك ثمرة على الشجرة.

٢ ـ اذا كانت اسرائيل قد عوضت خسائرها وزيادة، في المنظور اي في عدد الطائرات والدبابات والمدافع ـ وذلك بفضل المدد الامريكي المتدفق عليها ـ فليس لها ان تشكو او تتململ اذا كان الذي اعطاها جرعة القوة الجديدة المضافة تعويضا ونجدة ـ هو الذي يحاول وضع خط لحدود استعمالها.

٣ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية اذا كانت قد وضعت خطا لحدود استعمال ما اعطته لاسرائيل تعويضا ونجدة ـ فان ذلك لم يحدث محبة في العرب ولكن حسابا لموازين اخرى على القمة الدولية.

اخلص من ذلك الى حقيقة اريد اثباتها ظاهرة لكي لا نخطىء وهي:

ان هذه التصريحات الاسرائيلية الثلاثة لا تعكس مقدرة اسرائيلية ارغمت على التوقف في منتصف الطريق بقدر ما تعكس نوايا اسرائيلية يراودها الاغراء بان تفلت وتتجاوز الحد المرسوم لها»

□

بوضوح اكثر فان الذي افهمه من قراءة واستقراء هذه التصريحات الاسرائيلية الثلاثة كما يلي:

١ ـ ان اسرائيل ليست راضية عن نتيجة الحرب حتى الان لانها فقدت فيها سواء من المنظور او غير المنظور ما يفوق تحملها العملي والعصبي.

٢ ـ ان الحكم القائم في اسرائيل الان قد تساوره غوايات ان يفلت من اي قيد وان يتحرك حتى وان كانت حركته ستؤدي الى فتح الباب امام الطوفان... ليجيء الطوفان وسوف تجد اسرائيل اصدقاء لها يهرعون لانقاذها قبل اللحظة الاخيرة ويحملونها في سفينة نيكسون التي تتصورها اسرائيل اكبر واقوى من سفينة نوح!

٣ ـ ان الضغوط الداخلية قد تشتد وقد تجنح المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الى مد يدها لتحالف جحال اليميني المتطرف وتفرض بذلك

حكومة ائتلافية في اسرائيل ـ يمكن معها تأجيل الانتخابات العامة وهي على الابواب لظرف آخر ـ مع التفرغ الان لتصحيح الاوضاع على هوى اسرائيل تماما في ميدان القتال.

وفي هذه الحالة فان احتمال المغامرة الاسرائيلية قد يكون اكثر تجاوزا واصرارا.

* * *

ولقد حاولت عرض صورة لميدان الصراع والذي جرى فيه والمحتمل بعده، ولعلي ابدي بعض ملاحظات شخصية:

١ ـ لم اقصد بكل ما قلته ان أبرر شيئا... ليس ذلك شأني ولا هو دوري.

٢ ـ لا اريد ان اغطي على شيء لاني اعتقد حتى الان ان ما في يدنا كثير.

٣ ـ لا استطيع ان انكر اننا لم نستعمل بعض ما لدينا في اللحظة المناسبة في المكان المناسب.

٤ ـ لا أرضى بالمنطق الذي يقول انه لو لم نفعل شيئا غير عملية اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف ـ لكفانا في هذه المرحلة لاني واحد من الذين يؤمنون بقاعدة أن «من لا يتقدم هو في الحقيقة يتراجع».

* * *

ثم اقول في النهاية:

ـ من هذا كله فان يقيني ما زال كما عبرت عنه:

عودتنا الى ميدان القتال اقرب في ظني من ذهابنا الى مؤتمر للسلام.

ما زال السلام بعيدا... بعيدا... بعيدا جدا.

.....

.....

.....

عن السلام الحقيقي اتكلم!»

سؤال ثالث

الدور الأمريكي.. قيمته وقدرته وكيف يمكن إختبار الاثنتين معًا ؟!

٤ نوفمبر ١٩٧٣

هناك سؤال لا بد ان نسأله لأنفسنا، وعلى وجه اليقين فأن هذا السؤال مثار على كل مستويات الحوار في مصر وفي العالم العربي كله.

وموضوع السؤال هو: موقف الولايات المتحدة الامريكية منا، وموقفنا نحن من الولايات المتحدة الامريكية...

... كونها السند الرئيسي - وربما الوحيد- لاسرائيل في معركتها الدائرة الآن ضدنا، وكوننا قبلنا بفتح جسر للاتصال معها، مع استمرار المعركة الدائرة الآن ضدنا.

هل ذلك معقول؟... هل هو مقبول؟... او ماذا؟!»

□

ومن الدواعي التي تسبب الحيرة في موقف الولايات المتحدة الامريكية منا، وموقفنا نحن من الولايات المتحدة الامريكية، هو ذلك الاختلاف الشديد في رد فعلنا ضد الولايات المتحدة فيما ساندت به اسرائيل في معارك سنة ١٩٦٧، ورد فعلنا ضد الولايات المتحدة فيما ساندت به اسرائيل في معارك سنة ١٩٧٣.

سنة ١٩٦٧، كان رد فعلنا ضد الولايات المتحدة عنيفا.

وسنة١٩٧٣ ، فأن رد فعلنا ضد الولايات المتحدة هادىء حتى الآن على الاقل.

وذلك على الرغم من ان مساعدات الولايات المتحدة الامريكية لأسرائيل سنة ١٩٦٧ ، كانت مساعدات خفية، احسسنا بها ولم نجد دليلا قاطعا عليها، واما في سنة ١٩٧٣ ، فأن المساعدات الامريكية ظاهرة أمامنا لا يحاول احد اخفاءها ولا حتى الولايات المتحدة.

وذلك يمكن تعليله، ففي سنة ١٩٦٧، كانت الجهة التي تتولى تقديم المساعدات لأسرائيل هي وكالة المخابرات المركزية الامريكية، واما في سنة ١٩٧٣، فأن البيت الابيض تقدم بنفسه لهذه المهمة، وكان الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون هو الذي وضع توقيعه على مشروع قانون بعث به الى الكونجرس الامريكي لاقرار مساعدات عسكرية لأسرائيل قيمتها ألفان وثلاثمائة مليون دولار!

هذا هو السؤال المثير بكل مفارقاته وملحقاته.

وهذه فيما يلي محاولة لا تستهدف الرد عليه، ولكنها اشتراك في المناقشة الدائرة من حوله.

***

ولقد ابدأ بتعليق عام يمس الشكل اكثر مما يمس صميم الموضوع، وفي هذا التعليق العام فأنني ابدي الملاحظات التالية:

١ـ حسن، ان رد فعلنا ضد الولايات المتحدة فيما ساعدت اسرائيل به، لم يكن عنيفا بالطريقة التقليدية، اي طريقة الهياج الهستيري ينفس عن مشاعره بالغضب ولا يحول غضبه الى فعل مضاد.

٢ـ حسن، ان الهياج الهستيري لم يتملكنا، والا لكان ذلك اعترافامنا امام العالم بأننا فوجئنا بما لم يكن في حسابنا، وذلك ليس منطقيا ، فلقد كان

اول ما يتحتم علينا ان نضعه في اعتبارنا هو ان الولايات المتحدة سوف تهرع لمساعدة اسرائيل . . وقد كان.

٣ـ حسن، ان اية انفعالات انسانية ـ ولو بغير هياج ـ لم تحجب عنا ضرورة ان تبقى قضيتنا الكبرى بعيدة عن مأزق الاستقطاب الحاد ومخاطره في الحياة الدولية.

ثم انتقل بعد ذلك الى صميم الموضوع الذي اقترح تناوله في ثلاثة اجزاء محددة على النحو التالي:

الجزء الاول: «نحن وامريكا بصفة عامة».
الجزء الثاني: «تحفظات على الوضع الامريكي الراهن».
الجزء الثالث: «اختبار للقدرة، بصرف النظر عن النوايا».

* * *

■ ■ ■ في الجزء الاول، وعن «نحن وأمريكا» فأني اريد ان اقول ما يلي:

١ـ لقد كان رأيي باستمرار، وما زال، هو ضرورة تحييد امريكا ـ او على الاقل محاولة ذلك ـ وتحييد امريكا لا يكون باسترضائها، ولكن بالضغط عليها الى اقصى ما نستطيع لتحديد مجال الضرر الذي تستطيع الحاقه بنا بواسطة ما تقدمه الى اسرائيل.

٢ـ لقد كان رأيي باستمرار، وما زال ، هو اننا يجب ان نفتح بابا على الولايات المتحدة لسبب واضح، هو اننا في عصر لم يعد ممكنا فيه ان تسوى اية مشكلة عالمية في غيبة من القوتين الاعظم: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، لانهما معا ركيزة النظام العالمي الراهن المتمثل في الامم المتحدة، وذلك ما فعلته فيتنام الشمالية. . . وذلك ما فعلته الصين الشعبية، وذلك ما كان يجب ان نفعله وقد فعلناه.

٣ـ لقد كان رأيي باستمرار، وما زال، هو اننا في ازمة الشـرق الاوسط بالذات لا نستطيع على الاطلاق ان نتجاهل دور امريكا، لانها تكـاد تكون ـ ولا اقول انها بالضبطـ طرفا مبـاشرا في الازمـة، بحكم مدى وحجم التـزامها تجاه اسرائيل.

ذلـك رأيي، وقد قلتـه من قبل، وعـدت الى اثبـاتـه الآن مـرة اخـرى كموقف عام، اخطو بعده الى الجـزء الثاني الـذي وصفته بـأنه «تحفـظات على الوضع الامريكي الراهن».

* * *

■ ■ ■ في هـذا الجـزء الثـاني: «تحفـظات عـلى الـوضـع الامـريكي الـراهن»، فأني ـ مـع عدم الاخـلال بما سبق كله ـ لا استـطيع الاطمئنـان الى صدق وقيمة الدور الامريكي في الازمة الحالية، واسبابي في ذلك كما يلي:

١ـ اذا كنت قد قلت ان مسارعة امريكـا الى مساعـدة اسرائيـل لم يكن فيها عنصر المفاجأة، لانها مسألة متوقعة، فـلا بد ان اضيف ان الـطريقة التي جرت بها المسارعة الى المسـاعدة كـانت مزعجـة، ذلك ان الـرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون اعطى لأسرائيل من السلاح في دفعة واحدة بأكثر مما اعطاها في طول مدة رئاسته كلها. ومع العلم بـأن ما حصلت عليـه اسرائيـل في مدة رئاسته وحدها يزيد عـلى كل مـا حصلت عليه اسـرائيل في مـدة ولاية اربعـة رؤساء سبقوه منذ قيام اسرائيل وهـم: «هاري ترومـان» و «دوايت ايزنهاور» و «جون كيندي» و «ليندون جونسون».

٢ـ والمشكلة ان المسارعة للمسـاعدة بهـذه الطريقـة لم تكن صادرة عن قـوة الرئيس الامـريكي وانما كـانت صـادرة عن ضعفـه، اعني ان المسـارعـة للمساعدة بهذه الطريقة لم تعكس اقتناع الرئيس الامريكي، بقـدر ما عكست رغبته في استرضاء جماعات الضغط في المجتمع الامريكي.

٣ـ ان قوة اسرائيل الكامنة في المجتمع الامريكي تتمثل بالدرجة الاولى

في جماعات الضغط المؤثرة على الكونجرس الامريكي، وعلى الصحافة، وعلى مراكز التأثير الاقتصادي والثقافي والاعلامي. وبالتالي قدرتها على توجيه الرأي العام الامريكي.

ودور جماعات الضغط يقل اذا كان في وسع الرئيس الامريكي ان يقود.

فأذا كان الرئيس الامريكي عاجزا، فأن جماعات الضغط هي التي تقود.

٤ـ ان الرئيس الامريكي ، وبالذات بسبب فضيحة ووترجيت، في موقف بالغ الضعف، بل ان هذه الفضيحة لم تؤثر على الرئيس الامريكي الحالي فحسب، ولكنها اثرت بطريقة مخيفة على هيبة منصب الرئاسة كله.

والرئيس الامريكي، والحال كذلك، مشغول بالدفاع عن نفسه شخصيا، اكثر من انشغاله بالدفاع عن المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة، وهذه واحدة من مآسي هذه القوة العظمى التي تلعب دورا رئيسيا في حياة العالم المعاصر، ومع ذلك يكاد يصدق عليها وصف «جورج برنارد شو» لها، بأنها «الامبراطورية الوحيدة التي انتقلت من مرحلة الهمجية الى مرحلة الانحلال دون مرور بعصر من الحضارة».

٥ـ ان نوعية الزعامة الامريكية الحالية المتمثلة في شخص الرئيس ريتشارد نيكسون مثيرة لكل الشكوك، فالرئيس متهم في وطنه بالتدخل ضد العدالة في قضية ووترجيت وبالكذب المتعمد على المحاكم، وعلى الكونجرس، وبالفساد المالي، وبالاستعمال التحكمي لسلطة منصبه، الى درجة لم يسبق لها مثيل. واذا كان ذلك ما هو متهم به في وطنه فان من حق اوطان اخرى ان تكون قلقة على اطراف اصابعها خشية من اخلاقيات تناوله لقضاياها.

٦ـان الرئيس الامريكي تورط الى درجة جعلت كثيرين في الولايات

المتحدة يصلون الى حد الاعتقاد بأنه لم يتورع عن اعلان حالة الطوارىء في القوة النووية الامريكية الضاربة، لكي يغطي على تصرفاته في فضيحة ووترجيت، عندما طرد وزير العدل «اليوت ريتشاردسون» وطرد ايضا «ارشيبالد كوكس» المدعي الخاص الذي عينه بنفسه للاشراف على التحقيق في فضيحة ووترجيت.

والذين يعتقدون بذلك في امريكا، وهم كثيرون، يقولون ان الرئيس الامريكي انتهز فرصة الاهتمام الامريكي بحرب الشرق الاوسط، ولحظة معينة في مسار هذه الحرب، واعلن حالة الطوارىء في القوة النووية الامريكية الضاربة، بغير مبرر حقيقي يستوجبه ذلك الاجراء.

كانت الاتصالات بينه وبين الاتحاد السوفيتي مستمرة.

وكانت مواقف كل طرف معروفة سلفا للطرف الآخر.

وفجأة اتخذ الرئيس الامريكي قراره الذي لم يكن هناك مبرر حقيقي له، وعندما وقف وزير خارجيته «الدكتور هنري كيسنجر» يتحدث عن ازمة الشرق الاوسط، وما جد من تطوراتها، مما استدعى اعلان التعبئة العامة، كان السؤال الملح الذي وجه اليه هو: «هل كان ذلك الاجراء غطاء على بعض التصرفات في فضيحة ووترجيت»؟.

ولقد كان الاتحاد السوفيتي اكثر من فوجيء باجراءات الرئيس نيكسون، وكان التعليق السوفيتي على ذلك الاجراء لاذعا، فقد قالت وزارة الخارجية السوفيتية ما نصه:

«اذا كان ذلك الاجراء رسالة تحذير. فقد كان هناك خطأ في عنوان المرسل اليه كما كتب عليها».

٧ـ ان الرئيس الامريكي اتخذ قراره بالطريقة التي سارع بها الى

مساعدة اسرائيل ، مع علمه ان سلاح البترول العربي مشهر في وجه الولايات المتحدة.

لكن همه لم يكن مصلحة الولايات المتحدة، وانما كان همه هو مشكلته الداخلية، ولم تكن سياسته ان يقود، وانما كان في وضع لا مفر فيه من ان يقاد.

٨ـ ان الرئيس الامريكي فيما اتخذ من قرار، سواء بالمسارعة الى مساعدة اسرائيل، او باعلان حالة الطوارىء في القوة النووية الامريكية الضاربة، لم يستشر حلفاءه في اوربا الغربية.

في غمرة زحامه بمشكلته الداخلية، نسي الجانب الاخر من الاطلنطي، برغم ان المساعدة العسكرية الامريكية لاسرائيل مرت في قواعد كثيرة من قواعد اوربا الغربية موجودة للدفاع عن الفضائح الشخصية للرئيس الامريكي. ثم ان اعلان حالة الطوارىء جرى ايضا في هذه القواعد في اوربا الغربية، وكان مما يدعوللعجب بالنسبةلاوربا ان تجد نفسها على حافة حرب نووية ـ مفترضة او متوقعة ـ وهي لا تعرف شيئا عنها ولا عن اسبابها ولا عن اجراءاتها التي تمت فوق اراضيها وضد سيادتها.

٩ـ ان الاتحاد السوفيتي قد يلائمه ان يتعامل مع رئيس امريكي ضعيف، مشغول بالدفاع عن نفسه في ووترجيت، اكثر مما هو مشغول بالدفاع عن امن الغرب على جانبي الاطلنطي، ولكن ذلك بالنسبة الينا هنا ـ وفي ازمة الشرق الاوسط بالذات ـ قضية مختلفة الى اقصى حد.

١٠ـ انني واحد من الذين يثقون في علم وكفاءة الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الحالي، ولكن السؤال هو:

ـ «ما هي سلطة هنري كيسنجر»؟»

والرد ان سلطته كلها معلقة بسلطة الرئيس الامريكي وهيبته وهنا نقطة الخطر!

□

وربما خلصت من هذه التحفظات على الوضع الامريكي الراهن، بالتعبير عن مخاوف، لا ينبغي لها ان تشل تفكيرنا، وان كان علينا ان نضعها في حسابنا، وهي كما يلي:

١ـ اخشى ان التفكير الامريكي القديم ـ حتى مع افتراض القدرةـ لم يتغير، ذلك ان اعطاء السلاح لاسرائيل يبرر دائما بأنه الوسيلة التي تعطيها طمأنينة اكثر، ومن ثم فأنها تعطيها مرونة اكبر.

وقد اثبتت التجارب مع اسرائيل بطلان هذا المنطق.

انها لا تحصل على السلاح لكي تطمئن، ولكنهاتحصل على السلاح لكي تمارس التهديد به، ولكي تواصل العدوان.

٢ـ اخشى ان يكون هدفهم في واشنطن هو كسب الوقت وامتصاص التوتر، وذلك حدث بعد مبادرة روجرز سنة ١٩٧٠، التي توقفت معها حرب الاستنزاف.

٣ـ اخشى في حالة التقدم الى حل، ان يكون جهد الولايات المتحدة الامريكية كله موجها الى حل امريكي، وهو في هذه الظروف لن يكون الا حلا اسرائيليا.

هذه هي مخاوفي وقد عبرت عنها، وانتقل بعدها الى الجزء الثالث والاخير من هذا الحديث، وهو «اختبار للقدرة، بصرف النظر عن النوايا».

* * *

□ □ □ وفي هذا الجزء الثالث: «اختبار للقدرة، بصرف النظر عن النوايا»، فأني اريد ان اقول بمنتهى الموضوعية والامانة ما يلي:

اتمنى ان اكون مخطئا في تحليل وتقييم الوضع الامريكي الراهن، واتمنى ان يثبت الرئيس الامريكي ان احساسه بأمن الولايات المتحدة الامريكية اقوى من احساسه بضعف مركزه الشخصي، واتمنى ان يثبت، كما اثبت ايزنهاور في ازمة السويس سنة ١٩٥٦، انه في خيار بين الاصدقاء وبين المبادىء، فأنه سوف يختار المبادىء.

اتمنى ذلك كله، ولكن المنى لا تتحقق بمجرد التمني!

ومع ذلك نفترض!

نفترض ثم نسأل انفسنا: اليس من حقنا في هذه اللحظات، وبينما الولايات المتحدة تتقدم لدور رئيسي في ازمة الحرب الجديدة في الشرق الاوسط، وتحاول القيام بدور الحكم- اليس من حقنا في هذه اللحظات ان نطلب منها دليلا على القدرة بصرف النظر عن النية؟.

لنفترض ان نوايا رئيسها احسن من سوء ظن الاخرين به،

ولنفترض، ولنفترض، ولنفترض، ما شاءت لنا الافتراضات، اليس من حقنا ـ وواجبنا ـ ان نسأل الولايات المتحدة دليلا على قدرتها؟.

ولكي لا يكون الكلام مجملا او مبهما، فأن هناك دليلين اثنين فيهما الكفاية هذه اللحظات:

١ـ ان تقوم الولايات المتحدة باقناع اسرائيل بجدية موقفها، وذلك عن طريق الزامها بالعودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣، وهي الخطوط التي سرى عندها وقف اطلاق النار الذي تقدمت به القوتان الاعظم الى مجلس الامن وقبله اطراف الحرب في الشرق الاوسط جميعهم.

واذا لم تكن الولايات المتحدة قادرة على اقناع اسرائيل بالعودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر- كما يقول قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ ـ فكيف اذن

تستطيع اقناعها بالعودة الى خطوط ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ، كما يقول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، الذي هو اساس قبول وقف اطلاق النار، بغية ايجاد حل فوري للازمة؟ .

ان الكلام في موضوع الاسرى الاسرائيليين، وفي موضوع فك الحصار البحري المصري على باب المندب عند المدخل الجنوبي للبحر الاحمر، يصبح مهزلة بغير التمهيد للحديث عنها بالعودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر.

وحتى اذا قيل بأن التنفيذ العملي لقرار العودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر سوف يدخل بنا جميعا الى تفاصيل فنية لا نهاية لها، فأن الحل ليس هو القبول بالامر الواقع الذي استطاعت به اسرائيل في يومي ٢٢ و ٢٣ اكتوبر ان تحتل من الضفة الغربية لقناة السويس ضعف مساحة الارض التي تمكنت من احتلالها من ١٥ اكتوبر حين بدأ فتح الثغرة الى ٢٢ اكتوبر حين صدر قرار وقف اطلاق النار. ولربما يكون الحل الامثل في هذه الظروف هو القفز مباشرة الى مرحلة الفصل بين القوات المتحاربة على اساس بدء الانسحاب الاسرائيلي فعلا من الضفة الغربية لقناة السويس

اليس ذلك منطقيا؟ .

٢ـ ان تقوم الولايات المتحدة باقناعنا نحن بجدية موقفها، بمعنى انه اذا لم تفعل اسرائيل ذلك بقدرة الولايات المتحدة عليها، اذن أفلا يحق للطرف العربي ان يطلب دليلا آخر، هو بالتأكيد في قدرة الولايات المتحدة الامريكية، وذلك هو وقف امداد السلاح المتدفق على اسرائيل، او على الاقل وضع قيد على بعض الاسلحة المتطورة في هذا الطوفان المتدفق؟ .

اليس ذلك منطقيا؟!

* * *

ولست متشددا او متعصبا، كذلك فأني لا اضع نفسي في عداد

الصقور، ولقد اردت ببساطة ان الفت النظر الى ثلاث نقط:

- الاتصال بالولايات المتحدة ضروري.
- هناك تحفظات لي على الوضع الامريكي الراهن.
- لا بد ان نطالب بأدلة على القدرة اذا كانت الولايات المتحدة تريد القيام بدور الحكم.

ولعلي اضيف في النهاية ان في يدنا وسائل للقوة كافية:

١ـ هناك استعدادنا للعودة الى ميدان القتال.

٢ـ وهناك استمرارنا في التصاعد بكل امكانيات الضغط العربي الى مداها.

٣ـ وهناك حقيقة ان القرار الذي قبلناه كان قرارا امريكيا سوفيتيا يحمل ضمان الاثنتين تجاه بعضهما الى جانب ضمان الاتحاد السوفيتي امامنا.

٤ـ وهناك تمسكنا بالصداقة مع الاتحاد السوفيتي، وقد كان سلاحه هو ما حاربنا به حتى الان دفاعا عن انفسنا وضد العدوان.

٥ـ وهناك اوربا الغربية ودولها القائدة التي شعرت ان الولايات المتحدة تتلاعب باقدارها في دهاليز السياسة الامريكية الداخلية ومستنقعاتها.

٦ـ وهناك نفوذ شعوب العالم التي وقفت معنا بحزم وفي مقدمتها مجموعة الدول غير المنحازة، ومجموعة الدول الافريقية.

٧ـ وهناك عزلة اسرائيل الرهيبة وهي عزلة لها آثارها الاقليمية ولها آثارها العالمية، ولعلي اقول انه لم يحدث من قبل ولا اظنه سوف يحدث فيما بعد، ان بلدا من البلدان وجد او سوف يجد نفسه في مثل العزلة المفروضة على اسرائيل الان.

ولعلي اضيف ان هذه العزلة وما تعنيه ترجح كفة الموازين الاقليمية والعالمية لكي تميل مع الجانب العربي.

□

ثم لقد يفيدنا ان نعرف ان المواجهة طويلة، ثم هي معقدة، ولقد دخلناها فعلا وليس هناك بديل آخر غير مواصلة الطريق الى آخره.. اي الى «هدف نرضاه لانفسنا» كما قال انور السادات.

وليس لنا ان نتشاءم بغير سبب.

ولكن ليس لنا ان نتفاءل قبل الاوان!

على الطريق
إلى مؤتمر قمة عربي

٩ نوفمبر ١٩٧٣

يبدو اننا في الطريق الآن الى مؤتمر عربي على مستوى القمة . . .

وكانت الدعوة الى مثل هذا المؤتمر من قبل حرب اكتوبر، نداء يتردد بالالحاح احيانا، وبالدعاء، بل وبالضراعة احيانا اخرى، استعدادا وتأهبا لما هو قادم، وتحسبا لاحتمالاته ـ لكن الظروف لم تسمح، ولم يجتمع هذا المؤتمر قبل الحرب، ولم يمارس ما كان لا بد من ممارسته بالحق وبالضرورة معا، وان كان لا بد عدلا وانصافا ان نقول: ان الاتصالات الثنائية غطت جزءا من الفجوة التي تركها غياب الدور القيادي لمثل هذا المؤتمر.

□

ولعل الأسباب التي حالت دون انعقاد مؤتمر عربي على مستوى القمة قبل حرب اكتوبر ـ يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ ان ازمة التصديق بين الحكومات العربية وبين الشعوب العربية، كانت مصحوبة وموازية لأزمة تصديق بين الحكومات العربية بعضها البعض.

وكانت هذه الأزمة في التصديق بين الحكومات والشعوب من ناحية وبين الحكومات وبعضها البعض من ناحية اخرى تشمل المقاصد كما تشمل الاساليب ايضا.

أعني ان الشك كان يحيط بالأهداف المعلنة، كما ان الشك كان يحيط

أيضا بالسياسات المتبعة لتحقيق هذه الأهداف.

وكانت هناك مبررات كثيرة لذلك ليس هذا وقتها، ولكن الأزمة كا
ملموسة ومحسوسة.

٢ ـ لقد كانت هناك الى جانب ذلك وساوس وهواجس تتعلق بالمقـ
على الاحتفاظ بسر، وكانت هناك تجارب سابقة تغذي هذه الوساو
والهواجس، لأن اعز الاسرار العربية في مؤتمرات عربية سابقة وجدت طريقة
الى اخر من كان يجب ان تجد طريقها لهم، ولم يكن ذلك بسوء النية بقدر
كان بسوء التقدير أو لعلها شهوة الكلام وحب التفاخر والخلط في المـز
العربي بين تناقل الاساطير وتناقل الأسرار!

٣ ـ ومن نتيجة الاعتبارين السابقين ـ فلقد ساد اعتقاد بانه لا بد
حدوث جديد في الساحة العربية لكي تنجلي ازمة التصديق في العالم العربي
ثم لكي يشعر الجميع فيه حتى على مستوى القمة ان الامور جد خطيرة و
العرب يمكن ـ بل لا بد ـ ان يكون لهم سر مكتوم.

واعترف انني ذهبت يوما الح على انور السادات في اهمية عقد مؤ
عربي على مستوى القمة، وكان بين ما قلته له:

ـ انك اتخذت القرار بقبول التحدي، واذن فان مصر سوف تحارب
ومن شأن ذلك ان يعطيك ويعطي مصر في المؤتمر قوة لا حدود لها.

لقد كنا دائما نخشى من الذين يزايدون... يتكلمون ولا يفعلون،
يتكلمون فيما لا يعرفون. واما بالقرار فانك ومصر في موضع مختلف.

ولقد نكسب قوى مضافة للصراع الساخن القادم اذا جعلناها مواجهة
عربية شاملة. وقد يصبح تأثير هذه القوة المضافة فعالا اذا عرفت كل منها
موقعها ورتبت نفسها عليه واستعدت لأدائه من قبل أن تجيء لحظة الخطر».

واشهد ان انور السادات كان هادىء الاعصاب، ولعله كان واقعيا ـ برغم خيال الشاعر فيه ـ وكان قوله:

ـ لست مقتنعا بذلك الآن انهم لن يصدقوا واذا كنا نحن هنا لا نصدق انفسنا. . . فكيف نتصور ان يصدقنا غيرنا حتى ولو كانوا اخوة لنا؟.

لا بد ان تندلع الشرارة اولا، وعندما يحدث ذلك فان الصورة كلها سوف تتغير.

واذا كنا سوف نفقد شيئا بالاعداد المسبق على مستوى القمة، فاننا نستطيع ان نلحق بما نريد وكما نريد اذا اندلعت الشرارة».

[كانت كلمة «الشرارة» هي الاسم الرمزي الذي اختاره انور السادات بنفسه لخطة قبول التحدي].

وكان انور السادات يضيف:

ـ لنأخذ المخاطرة نحن وسوريا، ولنقبل التحدي، ولن تتأخر الامة العربية، وسوف ترى. واما قبل الشرارة فلنحاول كل ما نستطيع عن طريق الاتصالات الثنائية».

ثم كان انور السادات يستدرك:

ـ وبعد ست سنوات من الهزيمة، فان مشهد مصر في مؤتمر عربي على مستوى القمة سوف لا يكون مقبولا اذا كان قولها: سوف افعل

واذا ذهبت مصر وقالت: ها قد فعلت. . . اذن فان صوت مصر لن يكون مقبولا فقط. . . وانما مسموع ايضا».

□

ومهما يكن فلعل الحوار بين اجتهادين فيما يتعلق بمؤتمر عربي على مستوى القمة:

اجتهاد يطلبه سابقا «للشرارة».

واجتهاد يطلبه لاحقا «للشرارة». . . .

لعل هذا الحوار بين الاجتهادين هو نفسه الحوار الأبدي الأزلي بين ما يجب ان يكون وبين ما هو كائن فعلا.

لعله الحوار الأبدي الأزلي بين المثال والواقع.

او لعله حق حامل القلم بان يفكر، ثم واجب حامل المسئولية بان يفكر ويقرر.

***

المهم في هذا كله ما يبدو الآن من اننا في الطريق الى مؤتمر عربي على مستوى القمة ترددت الدعوة اليه من قبل حرب اكتوبر، ثم لم تستطع رعود الحرب ان تغطي على العودة الى طلبه وقد طلبه كل الزعماء العرب تقريبا حتى كان اللقاء الأخير في القاهرة بين الرئيس أنور السادات والرئيس هواري واقترح الرئيس السادات على الرئيس بومدين أن يتولى وتتولى الجزائر مهمة الدعوة الى هذا المؤتمر واستضافته على ارضها.

□

. . . هكذا يصبح لازما ان يتحول اي حديث من مجرد توجيه الدعوة الى هذا المؤتمر ـ الى الآفاق الواسعة للمهمة الكبيرة التي تنتظر هذا المؤتمر.

واتحدث عن المهمة الكبيرة التي تنتظر هذا المؤتمر فأقول مبدئيا ما يلي:

ان هذا المؤتمر العربي على مستوى القمة في الجزائر لا بد له ان يحمل مسئولية صون التضحيات التي قدمها الانسان العربي، ومسئولية حماية التصميم الذي اظهرته الأمة العربية وان يصل بالاثنتين معا الى هدف يرضاه

النضال العربي لنفسه في هذه المرحلة وظروفها وفي هذا العصر وموازينه.

بمعنى ان هذا المؤتمر يجب ان يتحمل بالتخطيط وبالتنفيذ مهمة تحقيق الانسحاب الكامل من كل الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل بعد ٥ يونيو ١٩٦٧، وكذلك مهمة استعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين واولها حقه في تقرير مصيره وبارادته الحرة.

ومما يضاعف من خطورة المسئولية الملقاة على المؤتمر القادم انه ينعقد في ظل معجزتين:

■ **الأولى**: ان الانسان العربي العادي قد أثبت قدرته كما اكد جوهره.

ان الانسان العربي اعطى دمه، وكان عطاؤه بالدم هو وحده الذي حول عملية تصورتها اسرائيل مهزلة مؤسفة ليجعل منها بالفعل دراما تاريخية عظيمة

كانت اسرائيل تتصور ان اي مواجهة عربية بالسلاح ضدها سوف تصبح كارثة عربية تهون ازاءها كل الكوارث السابقات .

ولكن الانسان العربي بعطاء الدم وحده غطى كل قصور وتجاوز كل خطأ وحول العملية الى ملحمة لم يستطع العالم ـ حتى الكاره والحاقد فيه ـ الا ان يقف معجبا مبهورا امامها.

■ الثانية: ان الامة العربية في وقت امتحان رهيب اثبتت وحدتها وأكدت سلامة المنطلقات التي تقوم عليها هذه الوحدة بصرف النظر عن اية مظاهر مما يصنعه الصراع الاجتماعي التاريخي داخل شعب واحد او مما يصنعه اختلاف مراحل التطور بين شعوب متعددة.

ولقد كان هناك كثيرون يشكون ـ او ربما يشككون ـ في حقيقة وحدة الامة العربية وكان «للجنرال ديان» رأي مشهور قال فيه:

ـ لا ارى امامي وحدة عربية. . . ربما يحدث ذلك بعد مائة سنة. . . ولكن اسرائيل لا تستطيع ان تقيم حساباتها بالنظر الى كرة بلورية ترى فيها المستقبل البعيد».

بل لقد كان هناك تصريح اخير للرئيس الامريكي «ريتشارد نيكسون» نزع فيه عن مصر عروبتها بكلمة منه ـ !!ـ فقال بالحرف:

ـ انني لا اعرف ان مصر بلد عربي»!

ولكن الامة العربية في وقت امتحان رهيب كذبت كل شك وتشكيك وصدقت نفسها. . . وصدقت مع نفسها حين اظهرت واعطت امكانيات للتأثير على الحوادث. . . كافية وقادرة.

□

وربما اضفت الى ما قلت في هذا الصدد اعتبارا آخر له شأنه فيما يتعلق بمهمة المؤتمر المنتظر والمسئولية الملقاة عليه.

هذا الاعتبار هو ان المنطق عاد الى أوضاع العمل العربي المشترك.

ان الهزيمة في سنة ١٩٦٧ احدثت مضاعفات كان من الصعب انكارها ومن هذه المضاعفات ما أثر على الاحجام الطبيعية للكيانات العربية ومن ذلك مثلا ان الهزيمة تضاءلت بحجم مصر الطبيعي وكان ذلك وضعا يصعب معه على اي عمل عربي مشترك ان يعد نفسه لمهمة او مسئولية.

لكن حرب اكتوبر صححت. وربما كان من ميزات حرب اكتوبر وتجاربها ان مصر استعادت حجمها الطبيعي بل ولقد أضيف ان الادوار الى جانب الاحجام برزت لتحقق ذاتها.

برز الدور الجزائري بما يوازي اهمية الثورة الجزائرية.

وبرز الدور الليبي بما يوازي شباب الثورة الليبية.

وبرز الدور السعودي ـ ودور الكويت ودور ابـو ظبي ـ بما يشـير الى ان التقليد له في ازمات المصير نفس فاعلية التجديد.

وذلك كله يسهل على مؤتمر القمة المنتظر توجيه عـطاء الانسان وتـوجيه طاقات الامة، وكلاهما الان ليس فرضية تحت الاختبار ـ وانما حقائق تسـاعد على التوجه نحو هدف يرضاه النضال العربي لنفسه.

* * *

ولقد نسأل انفسنا هذه اللحظة:

ـ ما هي المجالات التي يستطيع العمل العربي الموحد ان يتوجه لها الان ويكون من اثر توجهه لها تعزيز عطاء الانسان وتأكيد طاقات الامة؟»

وهنـا يطول الحـديث لأن هذا السؤال يمس مبـاشرة جـوانب حيويـة في مسار الازمة التي تصاعدت فاصبحت حربا.

واذا حاولت ان اختصر فانني استعرض المجالات التالية:

■■■أولاـ هنـاك في العالم مـوازين دولية، وقـد كانت هـذه المـوازين الـدولية من العـوامل التي جمـدت ازمة الشـرق الاوسط فيها اسمينـاه «حـالـة اللاسلم واللاحـرب»، وعندمـا اندلعت النـار وذاب الجليد من حـول الازمة وتحولت الى حرب فان نفس الموازين حاولت ان تخلق حالة جديدة نستطيع ان نسميها «حالة اللانصر واللاهزيمة».

أي ان هذه الموازين فعلت بالازمة ما يلي:

في موقف السكون:

فرضت عليها «حالة اللاسلم واللاحرب»

حاولت أن تفرض عليها «حالة اللانصر واللاهزيمة» وهذا مفهوم

ولنا ان نتساءل: هل كان في استطاعة الولايات المتحدة - ومن وجهة نظرها - ان تسمح لنا بانتصار محقق على اسرائيل.

وما هو أثر مثل ذلك لو انه حدث؟

● لو انه حدث، وانكسرت نظرية الامن الاسرائيلي تماما لاصبح كيان اسرائيل ذاته مهددا مهما جربوا من اساليب التخويف ومهما جربنا نحن من اساليب ضبط النفس.

● ولو انه حدث، لانقلبت الاوضاع في الشرق الاوسط رأسا على عقب ولأحس كثيرون ان مصالحهم فيه مهددة.

● ولو انه حدث، لكان جزء من الفضل فيه راجعا للسلاح السوفيتي بما يعنيه ذلك كله من ردود فعل على الاستراتيجية العالمية كلها.

وإذن فان انتصارا عربيا محققا لم يكن في حدود ما هو مسموح به من وجهة نظر الاستراتيجية العالمية.

وهكذا تقدمت الولايات المتحدة الامريكية لا لتساعد اسرائيل فحسب، وانما الى جانب مساعدة اسرائيل، لكي توقف تداعي موقف وراءه ما وراءه.

وبعد تدخل الولايات المتحدة فلقد اصبح في وسعها وفي وسع غيرها ان يقولوا:

- انكم عبرتم الى الشرق من قناة السويس... ولكنهم ايضا عبروا الى الغرب من قناة السويس... وهنا نتوقف لنقيم ميزانا جديدا».

[وهناك فارق في الحقيقة بين عبور وعبور، هناك فارق بين العبور المصري امام حصون خط بارليف وضد عدو حاول ترسيخ تفوقه، وبين عبور اسرائيلي في خضم معركة وضمن حركة اختراق ممكنة في مسار الحروب... مع التسليم بانه لم يكن هناك ما يبرر وقوعها على النحو الذي وقعت به، ولا التأخير في حصرها وتصفيتها].

وربما كنت واحدا من الذين يعتبرون ان هذه النتيجة ـ برغم ذلك ـ وحتى بمقتضى المعايير الامريكية هي لصالح العرب اكثر مما هي لصالح اسرائيل، وذلك لسبب واضح:

كنا مهزومين... لم نعد مهزومين... وهذا من وجهة نظرنا ـ ونظر غيرنا ـ صعود الى اعلى.

وكانوا منتصرين... ولم يعودوا منتصرين... وهذا من وجهة نظرهم ـ ونظر غيرهم ـ هبوط الى أدنى!

لكنني أسلم بان هذا الوضع يمكن ان يكون خطيرا اذا توقفت الأمور عند هذا الحد وعادت الامور الى حالة الجمود مرة اخرى ومضت عليها الشهور والسنون.

.....

.....

واذن فان هنا وبالتحديد مجالا لتأثير عربي جماعي ـ سياسي اقتصادي معنوي ـ يضيف الى نتيجة ما حدث في ميدان القتال ويميل بالميزان درجة او درجات الى الناحية الصحيحة... ناحيتنا.

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها... وانما تستطيعه وتملك وسائله امة عربية بأسرها!

■■■ثانيا: ان الازمة في تصاعدها ارتفعت بسرعة الى القمة الدولية، ومست الوفاق بين القوتين الاعظم.

وهذا مفهوم ايضا.

لأن القوتين الاعظم هما موردا السلاح الرئيسي لطرفي النزاع المسلح في الشرق الاوسط:

الولايات المتحدة مورد السلاح الرئيسي لاسرائيل.

والاتحاد السوفيتي مورد السلاح الرئيسي للعرب.

ولقد كان مقدرا حتى من قبل ان تبدأ الحرب يوم ٦ اكتوبر ان طرفي النزاع المسلح كليهما: العرب - مصر وسوريا في هذه الحالة - واسرائيل، لديهما ما يكفيهما لمواصلة المعارك على هذه الدرجة من العنف والضراوة لفترة لا تزيد على ثلاثة الى أربعة اسابيع...

فاذا لم يتمكن احدهما من احداث نصر ساحق في هذه الفترة- اذن فان العودة الى مصادر السلاح الرئيسية تصبح ولا بديل لها.

ولم يكن مطروحا ان يستطيع العرب تحقيق نصر ساحق... وانما كان املهم في حرب طويلة... ممتدة.

ولم تستطع اسرائيل - كما تعودت من قبل - تحقيق نصر ساحق... ولقد تصاعدت بالمعارك عنفا وضراوة واستنفدت ما عندها واستدارت الى ترسانات الولايات المتحدة الامريكية.

وهكذا دخلت القوتان الاعظم الى ساحة الصراع تحاولان وقفه قبل ان تطير منه شرارة تشعل حريقا او جحيما نوويا بينهما.

وكان خوف الاطراف المباشرين في الصراع المسلح: العرب واسرائيل، ان يكون بين ما تتفق عليه القوتان الاعظم: حظر على تصدير السلاح الى المنطقة وهذا الاحتمال ما زال قائما.

.....

.....

واذن فان هنا وبالتحديد ايضا مجالا لتأثير عربي جماعي يحتفظ للقوة العربية بمدد من السلاح لا ينقطع ولا يشمله حظر.

ولقد اتجاسر هنا فاضيف ملاحظة اضعها تحت الاهتمام العام:

- لماذا تقبل الامة العربية بحظر على بيع السلاح لها؟

لنكن واضحين. . . ولندع الحياء والخفر. . . ولندع التردد والخجل جانبا لكي نقول لكل الاطراف:

ـ نحن نصدر لكم سلعة استراتيجية وهي البترول. . . وفي مقابلها فان لنا الحرية في ان نطلب منكم في مقابلها سلعا استراتيجية هي السلاح في هذه الظروف.

اننا نبيع لكم ما ترغبون انتم في شرائه منا وليس ما نرغب نحن في بيعه اليكم.

واذن فان من حقنا ان نشتري منكم ما نرغب نحن فيه، وليس ما ترغبون انتم في بيعه لنا.

حظر بحظر. . . وقيود بقيود».

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها. . . وانما تستطيعه وتملك وسائله امة عربية باسرها. . .

■■■ثالثا ـ ان مشكلة السلام والحرب في الشرق الاوسط تتعدى حدود المنطقة، ثم ان الاهتمام بها ليس ـ ولا ينبغي ان يكون ـ مقصورا على القوتين الاعظم ولا بد ان تدخل الى الساحة اطراف اخرى لها القدرة على التأثير، ومن هذه الاطراف أوربا الغربية التي يتحتم عليها ان تعتبر امن الشرق الاوسط جزءاً لا يتجزأ من أمن أوربا، ثم ان رخاء الشرق الأوسط جزءاً لا يتجزأ من رخاء أوربا.

ولقد دعا الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو الى مؤتمر قمة لدول السوق الاوربية وسوف يعقد هذا المؤتمر في الشهر القادم بالدانيمارك، والموضوع الأول على رأس جدول اعماله هو أزمة الشرق الاوسط ومخاوف أوربا من تركها للتفاعلات المحلية المتفجرة وحدها أو للضوابط المفروضة من القوتين الاعظم منفردتين.

وفي استطاعة اوربا بغير شك ان تقوم بدور كبير. . . وهي لم تقم به يقينا حتى الان مع كل التقدير الكافي للبيان الذي صدر عن المؤتمر الاخير لوزراء خارجية السوق المشتركة.

وهناك مشكلة في أوربا تقتضي منا علاجا سليما.

عواطف اوربا مع اسرائيل ومصالح اوربا معنا.

وهكذا فان:

اتجاهات الرأي العام في اوربا موالية لاسرائيل، ولكن بعض حكومات اوربا تحاول مداراة العرب.

ولقد آن الوقت لجهد بناء، وحازم ايضا، مع اوربا، وان كان علينا ان نمارسه بدقة، وبرقة، لكي لا نخسر ارضا بينما نحن نريد ان نكسب ارضا.

وربما كان علينا ان نتشاور اكثر مع اوربا، وان نتحدث اليها ونستمع منها، ونجعلها ترى الحقيقة وتساعدنا بما هو اكثر من الغمغمة بكلمات مجاملة يتصورون احيانا انها تؤثر في الشرق.

ومنذ أيام ذهب سفير دولة اوربية كبرى ليقابل عربيا له دوره وقال السفير الاوربي:

ـ ان هناك لغطا ضد بلادي. . . وهناك من يطالبون بمقاطعتها بتروليا. . . ولست اعرف ماذا تطلبون منا اكثر من تأكيدنا لكم اننا نؤيد قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢؟».

وقال العربي بهدوء:

ـ ان جامبيا الصغيرة في افريقيا تؤيد قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وفوق ذلك فانها قطعت علاقاتها باسرائيل. . .

وجامبيا ـ سيدي السفير ـ ليست قوة اوربية كبرى!!».

. . . . . .

. . . . .

واذن فان هنا وبالتحديد ايضا مجالا لتأثير عربي جماعي يجعل البحر الابيض جسرا ولا يجعله فاصلا بين اوربا الشرق والاوسط ، ليعرفوا ـ وبمنتهى التواضع ـ انه لا امن لهم بدون امن لنا، ولا رخاء بدون رخاء لنا.

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها . . . وانما تستطيعه وتملك وسائله امة عربية بأسرها!

■■■**رابعا** ـ ان العالم ليس هو القوتين الاعظم وحدهما ، ولا هو القوتان الاعظم مضافا اليهما اوربا الغربية، وانما العالم اوسع بكثير وقد ثبت انه بالنسبة لنا اوسع بكثير.

ولقد أخص بالذكر افريقيا . . . ثم أخص بالذكر أيضا مجموعة الدول غير المنحازة.

ان افريقيا ومجموعة الدول غير المنحازة هي التي استطاعت تحقيق عزلة اسرائيل بطريقة تكاد تكون كاملة وشاملة ولنا ان نعرف ان هناك بينها من هو معرض للعقاب بسبب وقوفه معنا.

وهنا تواجهنا مهمة مزدوجة:

ان نحتفظ بتأييد الذين اعطونا تأييدهم

ثم ان نثبت ان في طاقتنا حماية الذين اعطونا تأييدهم.

واذا سمحنا لتأييد حصلنا عليه ان يصيبه الوهن او يضعف واذا سمحنا لتأييد حصلنا عليه ان يعاقب لهذا السبب ـ اذن فنحن نعري انفسنا

من غطاء حصلنا عليه.. بل نكاد نعري انفسنا من ملابسنا ذاتها بصرف النظر عن اي غطاء!.

.....

....

واذن فان هنا وبالتحديد ايضا مجالا لتأثير عربي جماعي يحتفظ للعرب بنطاق واسع من التأييد حموا انفسهم به وعزلوا اسرائيل في نفس الوقت، ثم هو تأثير عربي يعطي للعرب دور قوة عظمى تملك ان تساعد اصدقاءها وتقدر على حمايتهم.

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها... وانما تستطيعه وتملك وسائله امة عربية بأسرها!

■■■**خامسا** - هناك لضمان هذا كله، ولضمان غيره شيء آخر، ولقد فكرت ان اجعل منه نقطة البداية - النقطة الاولى - في هذه الاحتمالات ولكني رجحت ان يجيء في ختامها لكي يمسك بمجمل الاحتمالات كلها.

ذلك الشيء الذي اقصده هو ضمان استراتيجية عربية موحدة ولعلي اقول - بغير تجاوز - ان هناك مخاطر على الموقف العربي من الداخل بسبب وقف اطلاق النار بينما الحرب مستمرة.

ان وهج النار يخلق التلاحم في المواقف ولو بغير تنسيق.

ولكن وقف اطلاق النار قد يفك هذا التلاحم سواء باعتقاد خاطيء بان المعركة انتهت، او بتصورات متسرعة ترى ان المعركة ماعت او جرى تمييعها.

وكلا الامرين تجاوز. لكنها طبيعة حالة وقف اطلاق النار بعد حالة كثافة اطلاق النار، خصوصا اذا كانت هناك اطراف قريبة وبعيدة يهمها «فك» هذا التلاحم العربي الذي لمع فجأة في وهج اللهب!

وفوق ذلك فهناك مسألة اخرى تلك هي ان امامنا احتمالين لا ثالث لهما:

١ ـ ان نعود الى ميدان القتال.

٢ ـ او ان نتوجه الى مؤتمر سلام.

والعودة الى ميدان القتال ـ وهي الاحتمال الاول ـ تقتضي استراتيجية عربية موحدة للحرب.

واذا قيل ان مثل هذه الاستراتيجية الموحدة كانت صعبة قبل الشرارة، فانها الان ضرورة حيوية لا غنى عنها خصوصا في ظل ثلاثة اعتبارات:

١ ـ استمرار المدد الامريكي المتدفق على اسرائيل.

٢ ـ زوال عنصر المفاجأة الذي صاحب قبولنا للتحدي الاسرائيلي يوم ٦ اكتوبر العظيم.

٣ ـ مزاج المؤسسة العسكرية الاسرائيلية وهي الان مثل ذئب جريح على استعداد لان يضع ضراوته كلها في قضمه واحدة!

ولقد اقول ان استراتيجية السلام اصعب من استراتيجية الحرب واسبابي في ذلك ايضا:

١ ـ ان الامة التي حققت وحدتها امام الموت يجب الا تفقد وحدتها امام الحياة والا فانها مأساة مروعة.

٢ ـ ان السلام ليس هوى دولة عربية واحدة بل يجب ان يكون السلام ارادة امة عربية صنعته بقوتها الشاملة وبفكرها الواضح يوجه قوتها الشامله.

٣ ـ ليس هناك سلام يمكن ان تصنعه دولة عربية بمفردها ومثل ذلك لن يكون سلاما وانما سوف يكون فخا تقع فيه وحدها. وليس الفخ سلاما

وانما هو أسوأ من حالة اللاسلم واللاحرب. . . وهو اصعب من حالة اللانصر واللاهزيمة.

ومثل هذه الدولة لن تكسر وحدة هذه الامة فحسب، وانما سوف تعزل نفسها ايضا.

* * *

والخص ما قلت بسرعة فاقول ان العمل العربي يتحتم عليه في المؤتمر القادم ان يغطي مسافات كبيرة من ارض الأزمة وفي نواح متعددة:

دوليا: عليه ان يغطي المسافة بين امكانيات الوفاق بين القوتين الاعظم، وبين ضرورات الامن العربي.

واذا واجهتنا القوتان الاعظم بشيء يفرضه الوفاق ونرفضه نحن ـ فعلينا ان نكون مستعدين.

واذا اقبل علينا الاتحاد السوفيتي ـ برغم الوفاق وذلك موقفه الان فعلا ـ فعلينا ان نكون مستعدين.

وإذا اقبلت علينا الولايات المتحدة وذلك فيما ارى صعب بل هو شبه مستحيل بسبب قوة جماعات الضغط الموالية لاسرائيل من ناحية، وبسبب ضعف موقف الرئيس الامريكي الحالي ازاءها من ناحية اخرى ـ فعلينا ان نكون مستعدين.

واذا تحطم الوفاق كله بسبب أزمة الشرق الاوسط ـ وهو ما استبعده حتى هذه اللحظة رغم كل مظاهر التوتر ـ فعلينا ان نكون مستعدين.

عسكريا: فان العمل العربي يتحتم عليه ان يغطي المسافة بين احتمالات اي حظر على السلاح والضرورات الحيوية لحصولنا على ما نحتاج اليه من السلاح.

سياسيا: فانه يتحتم على العمل العربي ان يغطي المسافة بين التأييد العالمي الذي حصلنا عليه وبين الضغوط المخيفة التي سوف يتعرض لها اولئك الذين اعطونا تأييدهم.

عربيا: فانه لا بد للعمل العربي ان يغطي المسافة ما بين لحظة اخذنا فيها اسرائيل بالمفاجأة، وبين لحظة قد تجرب فيها اسرائيل ان تأخذنا بالمفاجأة... ثم ان هذا العمل لا بد له ان يغطي المسافة بين انكار اسرائيل الاعمى لحقوق الشعب الفلسطيني، وبين اصرارنا على ان تخرج حقوق هذا الشعب من ظلام المخيمات الى نور الشمس.

نفسيا: وهذا هو التحدي الاعظم للقمة العربية، فان العمل العربي يتحتم عليه ان يثبت ان القمة العربية جديرة بالقاعدة العربية، وان الذين يحكمون قادرون على العطاء بنفس النسبة التي اعطى بها المحكومون، ولسوف تكون مسألة خطيرة اذا ثبت ان الانسان العربي العادي ـ وهو بطل هذه الحرب حتى الان ـ اصلب من الحاكم العربي الذي يمسك باطراف السلطة، وان الجيوش التي نفذت الحرب على الخطوط الامامية كانت اكثر كفاءة من حكومات شاركت في ادارة الخطوط الخلفية بعيدا عن ميدان القتال.

وهذه ايضا مسافة واسعة شاسعة لا بد من تغطيتها لكي يكون هناك انسجام.

ثم لكي يكون هناك سلام يرتفع بقيمة التضحيات ولا يهدرها.

* * *

واخيرا فليتحرك الان موكبنا على مستوى القمة الى الجزائر... ومعه روح الجولان وروح السويس... روح الصدق والتصديق...

الحلم .. وتحقيق الحلم

١١ نوفمبر ١٩٧٣

اذا صح، وأظنه صحيحاً حتى الآن، أن مؤتمراً للسلام سوف يعقد في جنيف في بداية الاسبوع الثاني من الشهر القادم، ديسمبر ١٩٧٣ ـ فإنه لا بد قبل ذلك، في تقديري، من أن ينعقد مؤتمر عربي على مستوى القمة لكي يضع استراتيجية عربية شاملة للمرحلة المقبلة.

واذا سئلت عن الأسباب التي تدعوني الى القول بذلك، فإني أطرح الأسباب التالية:

١ـ ما زلت مقتنعاً بما قلته قبل عشرة أيام، من أن السلام بعيد، بعيد، وذلك رغم أن الظروف قد أتاحت لي خلال هذه الفترة أن أقبل دعوة من الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية، لحوار ممتد معه، استمر ساعتين ونصف الساعة، من الحادية عشرة مساء يوم الاربعاء الى الواحدة والنصف صباحاً، ولقد طوفنا بكل الآفاق كما يقولون، والتقت وتباعدت وجهات نظرنا في عديد من القضايا، وشدت انتباهي في حديثه وقائع وآراء، ولكني توقفت طويلاً عندما قال لي بالحرف الواحد.

ـ ما أطلبه الآن هو الصبر... انني خائف من الرومانسية العربية... أخشى أن تتصوروا الحل عند أول منحنى من الطريق... واعتقادي انه

تلزمنا فترة ما بين ستة أشهر الى سنة كاملة حتى نصل الى بداية شيء معقول».

[ولن أستطرد أكثر من ذلك في النقل عن الدكتور كيسنجر، وربما أعود الى حوارنا باستفاضة في مرة أخرى].

٢ـ إنني ما زلت متمسكاً بتحفظاتي على الموقف الامريكي من الأزمة: ولست أعتقد ان الرئيس الامريكي الحالي ريتشارد نيكسون، يقدر ـ حتى لو كان يريد ـ على مواجهة القوة المنظمة لجماعات الضغط اليهودي والاسرائيلي في المجتمع الأمريكي، ذلك لأن مركزه ضعيف بسبب فضيحة ووترجيت وأكاد أقول ان جماعات الضغط اليهودي والاسرائيلي تستطيع أن تطول الرئيس الأمريكي في وضعه الحالي، أكثر مما يستطيع هو أن يطولها مع وضعه الحالي.

٣ـ ان لعبة اسرائيل واضحة فيما أرى، وهي في ظني تريد أن تكسب وقتاً تتحقق لها فيه عدة أهداف:

تتغلب على الآثار المادية المعنوية للصدمة التي أصابتها يوم ٦ أكتوبر العظيم.

تعيد تنظم صفوفها وأوضاعها ليوم تكون فيه المفاجأة سلاحاً في يدها ولا تكون قنبلة في وجهها.

تنتظر تفكك الموقف العربي الذي صنعته وحدة أمة في لحظة صعود عرفت فيها هذه الأمة ان الذين يتقبلون الموت هم الذين يستحقون الحياة.

تعاود الهجوم السياسي من جديد في أوربا الغربية، مستغلة ـ ضمن ما يمكن ان تستغله ـ آثار الضغط بالبترول خصوصاً اذا أخطأ العرب في حساباتهم فخففوا قبل الدرجة الملائمة، أو زادوا على هذه الدرجة الملائمة.

تستبقي الجيوش العربية المقاتلة في أوضاعها الراهنة، وهي أوضاع أقل

ما توصف به انها غير متوازنة من وجهة النظر الاستراتيجية، ومن ثم فان هذه الجيوش- كما تتمنى اسرائيل - ربما تفقد على الأقل روح ٦ أكتوبر، وجسارتها، ونبلها.

وهكذا فإني أتوقع أن تخرج اسرائيل بالعجائب كلها في الأسابيع والشهور القادمة، ولن يكون المسرح لذلك هو مؤتمر السلام وحده، وانما سوف تكون المنطقة والعالم كله مسرحاً لهذه العجائب من المطالب المستحيلة والمسالك الفرعية والتعقيدات الاجرائية والموضوعية، وما يخطر أو لا يخطر على أي بال.

والمقصود كله: كسب الوقت لنفسها... قتل الوقت لأعدائها!

٤- ان الصراع المسلح في الشرق الأوسط، لم يصبح صراعاً محلياً، وانما تصاعد هذا الصراع بسرعة فأصبح صراعاً عالمياً، وان لم يكن مسلحاً. وحجم الصراع على هذا النحو أكبر من أن تواجهه دولة عربية بمفردها، خصوصاً أمام حقائق هذا العصر الكبرى، وأهمها حقيقة الوفاق بين القوتين الأعظم.

٥- ان الأسلحة التي تقاتل هذا الصراع على الناحية العربية ليست سلاحاً واحداً يملكه شعب واحد من شعوب الأمة العربية. واذا كان عبء الاحتكام الى النار في هذا الصراع قد وقع بالدرجة الاولى على كتفي مصر وسوريا - فإن هناك أسلحة أخرى لا تقل في فاعليتها عن النار تؤدي الآن دورها في الصراع باقتدار، وأهمها سلاح البترول، وهو سلاح لا تملك مفاتيحه مصر أو سوريا، وإنما مفاتيحه في السعودية والكويت وأبو ظبي وليبيا والجزائر، وبعض هذه الدول لم يكن بترولها فقط في الصراع، وانما كان هناك قبله سلاحها، وبالذات سلاح ليبيا والجزائر.

إن نتيجة هذا الصراع لن يقتصر تأثيرها على حدود الدول التي فتحت

فوهات نيران المدافع أو حبست فوهات آبار البترول ـ وانما نتيجة هذا الصراع سوف تشمل حاضر أمة بأسرها، وتحدد لها مكانها على خريطة العالم والعصر، سواء فيما يتعلق بالمكانة، أو فيما يتعلق بالكرامة.

ان المناخ العام الذي ولده هـذا الصراع عـلى الأرض العربيـة قد خلق فرصة لن تتاح لنا بسهولة مرة أخرى لتحقيق أمل عزيز كان في أحلام وخواطر كثيرين من الذين رأوا ان الأرض العـربية مهيـاة لظهـور قوة عـظمى جديـدة تشارك بنصيب ايجابي وخلاق في توجيه أمور دنياها.

وليس شرطاً لتحقيق ذلك ان تتم الوحدة الدستورية بين شعوب الامـة العربية، وإنما يكفي أن تتحقق لها في هـذه المرحلة ارادة الـوحدة... وحـدة العمل على الأقل.

والتجـربة المشتـركة في هـذا الصراع الكبـير، وما أثبتتـه وأكدتـه هـذه التجربة المشتركة من الامكانيات الهائلة لوحدة العمل العربي ـ هي بمثابة لحظة ثورية لا بد أن نمسك بها.

ولقد نتذكـر أنه ليس هنـاك في التاريـخ شخص ثوري، وإنمـا هناك في التاريخ لحظة ثورية، واذا استطاع أصحاب هذه اللحظة أن يلحقوا بها، وأن يمسكـوها، فـإنهم يتمكنون من القفـز واختصـار مـراحـل طـويلة من التـطور البطيء... التقليدي والرتيب.

***

واذا كانت هذه الأسباب معقولة، وبالتالي مقبولة، فإننا لا بد أن ننتقل من الحـديث عن الضرورات التي تـدعو الى عقـد مؤتمـر عـربي عـلى مستـوى القمة ـ الى الحديث عن اسلوب العمل لتحقيق المهام التي تنتظر هذا المؤتمـر، ذلـك ان هذا المؤتمـر، يختلف اختلافـاً جذريـاً عن أي مؤتمر عـربي سبقـه من قبل، سواء عند القمة أو دونها، والسبب ان هذا المؤتمر المنتـظر هو أول مؤتمـر

ينعقد في ظل قدرة عربية، ولا ينعقد في ظل عجز عربي وكان اليأس باستمرار سابقاً لكل المؤتمرات العربية ولاحقاً لها، وفي هذا المؤتمر، فان الأمل سابق، وربما كان في استطاعتنا ـ ان نجعل الأمل في هذا المؤتمر سابقاً ولاحقاً.

وهذا فارق كبير في الحقائق المؤكدة، وفي الأجواء السائدة.

□

ولقد كانت هناك عمليات تمهيد ضرورية لهذا المؤتمر، بعضها تم فعلاً وبعضها ينتظر المحاولة لكي تكون الأرض مستعدة مهيأة لما هو قادم.

كانت هناك اتصالات ضرورية بين مصر وسوريا، بعد تجربة القتال وملابساتها ودروسها، وقد إجتمع أنور السادات وحافظ الأسد لهذا الغرض بالفعل في مطار الكويت ودام حديثهما سبع ساعات طيبة.

ثم كانت هناك اتصالات ضرورية بين دول الحزام الأول ـ خط المواجهة المباشر ـ وبين دول الحزام الثاني ـ خط الدول المساندة ـ وقد جرت اتصالات كثيرة في هذا النطاق، شارك فيها أنور السادات وهواري بومدين ومعمر القذافي.

ولا يزال هناك ـ في ظني ـ اتصال آخر ضروري يتوجه الى العراق، ومع إني مثل كثيرين غيري ـ من الذين عجزوا عن رؤية أو فهم وجهة نظر حكومة العراق في قرارها بسحب قواتها من سوريا بعد توقف إطلاق النار ـ ألا أنني ـ وكثيرين غيري ـ ما زلنا نرى أنه لا بد من علاج لحساسيات الحكم في بغداد، لأن هذا البلد العربي الكبير له دوره في الصراع، ولا أظنه يريد أن يتخلى عنه، كما لا أظن أن أحداً يريد أن يحجبه عنه..

***

واذا كان بعض ذلك قد تم فعلاً، وبعضه الآخر واجب التمام، فإننا نخطو بعد ذلك خطوة الى مجموعة من الاعتبارات لا بد أن تكون في ذاكرة

الجميع وهم يضعون أوراقهم في حقائبهم قاصدين الى مقر انعقاد المؤتمر، ولقد ألخص هذه الاعتبارات فيما يلي:

١ـ ان مصر قد استعادت حجمها الطبيعي في العمل العربي المشترك، وحجم مصر الطبيعي يعطيها الحق في أن تقود.

وهنا نقطة لا بد أن يلاحظها الكل وهي أنه:

ليس معنى أن تقود مصر. . . أن تحتكر مصر.

إن قيادة عمل مشترك ليست إحتكاراً للقرار فيه، وإنما القيادة عطاء، وبدون استعلاء

ولقد أعطت مصر بالفكر وبالعمل، وبشجاعة وسخاء ـ الاثنين معاً.

٢ـ ان الدول العربية التي يجمعها عمل مشترك متساوية في الحقوق، ولكنها ليست متساوية في الواجبات.

ومؤدى ذلك إن حقوق سلطان عمان مثلاً قد تكون مساوية لحقوق رئيس الجزائر، ولكن واجبات رئيس الجزائر أكبر، وبالتالي فإن مسئولياته أكثر، وذلك يعطيه دوراً خاصاً، وإن كان لا يعطيه إمتيازاً خاصاً.

ومعنى ذلك ان الدول العربية يجب عليها مقدماً أن تعرف إن هناك تفاوتاً في الأدوار، وليس لذلك أن ينشىء أية حساسيات، فالعمل المشترك بين شعوب غيرنا يخلق نفس الأوضاع.

وعلى سبيل المثال فان وضع فرنسا في مجموعة السوق الاوربية المشتركة ليس هو بالضبط وضع لوكسمبورج. . . أو وضع بلجيكا التي أصبحت عاصمتها بروكسل عاصمة للسوق الأوربية المشتركة كلها.

ولذلك فإني أتصور مقدماً إن هناك دولا عربية سوف تتحمل بمقتضى

ما عليها من الواجبات أدواراً محددة، وذلك بحكم مسئـوليات محـددة تحملتها بالفعل في التجربة الأخيرة، وسوف تتحملها يقيناً مع الاستمرار.

لعلّي من هنـا أتصـور أدواراً خـاصـة لست دول عـربيـة هي: مصـر وسوريا والسعودية والجزائر وليبيا والعراق.

٣ـ ان أحـداً لا يحق له أن يحـول المؤتمر القـادم الى منـاظـرة في المـطلق والمجرد، كما ان أحداً لا يحق له أن يجعله ميداناً للمناقصات أو للمزايدات.

ان الذين وضعوا المخططات في غنى عن سماع المحـاضرات. والـذين غسلوا ميـدان القتال بـدمائهم لا يحق لهم أن يعـرضوا أنفسهم- أو يعـرضهم غيرهم ـ لأشعار الحماسة والبلاغة. والذين وضعوا امكانياتهم وراء المعركة لا وقت لـديهم ولا أعصاب لكي يـروا تلك المشاهـد المسرحيـة التي حفلت بهـا مؤتمرات القمة فيما مضى، وكانت لتسلية الجمهور خارج القاعـة، ولم تكن في خدمة القرار.

وأتـذكر كلمتـين لتقي الدين الصلح رئيس وزراء لبنـان، وكـان ضيف غداء معي أول أمس

كانت كلمته الاولى:

ـ لا بد أن نتغير كما تغيرت الظروف... كنا نقول في الجلسات السرية شيئاً ونقول في الاجتماعات المفتوحة شيئاً آخر... وليتنا الآن نفهم أن ما كنا نقوله في الجلسات السرية أصبح ضـرورياً قـوله في العلن، ومـا كنا نقـوله في العلن أصبح ضرورياً قوله في الجلسات السرية».

وكانت كلمته الثانية:

ـ نحن مقبلون عـلى امتحان كبـير... وصنع السـلام قد يكـون أكـثر مشقة من شن الحرب.

كنا نحسد الذاهبين الى ميدان القتال. . . ونحن لا نحسد الذاهبين الى مؤتمر السلام!»

***

واذا كانت هذه الاعتبارات كلها في ذاكرة الجميع، فإننا الآن نستطيع الانتقال الى صلب الموضوع في هذا الحديث، وهو اسلوب العمل لتحقيق المهام التي تنتظر هذا المؤتمر القادم.

وأتصور ما يلي:

١- ان المؤتمر القادم لا بد له أن يضع استراتيجية لأهداف العمل العربي المشترك، ولقد يكون مجدياً هذه المرة أن يركز على الأهداف القريبة، محتفظاً بالأهداف البعيدة الى اجتماع تال.

والأهداف القريبة في ظني هي:

● إنسحاب اسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها بعد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧.

● حق الشعب الفلسطيني وبوساطة ممثلين شرعيين له في تقرير مصيره.

ولا أظن أن ظروف المرحلة الحاضرة، كما لا أظن أن موازين العصر الراهنة تسمح لنا بما هو أكثر من ذلك.

وبالتالي فإنه لا يحق لهذا المؤتمر، وفقاً للتعبير الأثير لدى الدكتور محمود فوزي «أن يضيع الممكن في طلب المستحيل».

٢- بالتوازي مع ذلك مباشرة، فإن المؤتمر القادم لا بد له من إعادة دراسة أوضاع القوة العسكرية العربية.

إن الأمة العربية لديها الآن، وربما لأول مرة في تاريخها الحديث، فرصة إقامة قوة عظمى على أرضها:

- لديها الطاقة الاقتصادية.
- ولديها الكفاءة العسكرية.

والطاقة الاقتصادية والكفاءة العسكرية، هما الدعامتان لقيام قوة عظمى في العصر الحديث، وربما في كل العصور.

ولعلنا ننظر الى ما قررته إسرائيل.

كنا نعتقد أن لديها ألف دبابة، وأثبتت تجربة ميدان القتال أن لديها الفي دبابة ـ وقد قررت رفع قوتها المدرعة الى أربعة آلاف دبابة.

وكنا نعتقد أن لديها ٣٧٥ طائرة، وأثبتت تجربة ميدان القتال أن لديها خمسمائة طائرة ـ وقد قررت رفع قوتها الجوية الى ألف طائرة.

واذا كان يتحتم علينا أن نواجه تحديات الأيام المقبلة، اذن فإن قوتنا المدرعة يجب أن ترتفع الى ما بين ستة آلاف الى ثمانية آلاف دبابة، ثم ان قوتنا الجوية يجب ان ترتفع الى ما بين الف وخمسمائة الى ألفي طائرة.

وفوق كل ذلك، فعلينا في تخطيطنا العسكري ان ننسى إسلوب القبائل في الحشد، اسلوب أن نتنادى للقتال بعد اشتعال النار.

لا بد أن ندرك إنه لا فائدة من قوة مسلحة لا تكون في ميدان المواجهة فعلاً من قبل إطلاق الرصاصة الاولى بزمن طويل.

ان أية قوة تصل بعد بدء المعارك الى ميدان القتال، تصبح عبئاً عليه وليست إضافة الى طاقته.

وعندما كان القتال رجالاً بالسيوف والحراب، فلقد كان اسلوب

التنـادي القبائـلي الى الحـرب جـائـزاً. . . أمـا الآن والقتـال معـرفـة بمسـرح العمليات، ومعرفة بالعدو ومعرفة بجو المعـركة. فـإن ذلك الاسلوب القـديم يجب أن يتغير.

٣ـ ان العمـل المشتـرك، في صـراع يمس المـوازين الـدولية العليـا، وبأسلحة متعددة ومتنوعةـ لا بد له من قيادة مشتركة، وهنا يجيء دور توزيع الواجبات وفق الطاقات وتوزيع الأدوار طبقاً لاحتمالات الاداء.

وربما يكون مناسباً لو ان هذا المؤتمر اختار لجنة عليا من الرؤساء تشرف على ادارة الصراع حتى يصل الى نتيجة محققة لهذه المرحلة، ثم يعد نفسه بعد ذلك لما تجيء به التحديات.

وربما كان مناسباً أيضاً أن تضم مثل هذه اللجنة رؤساء الدول العـربية الست التي أشـرت اليها من قبـل: مصر وسـوريا والسعـودية والجـزائر وليبيـا والعـراق، ثم يكون لهـذه اللجنة من الـرؤساء الستـة نظام عمـل دائم ولجان اتصال لا ينقطع.

ولربما استطعنا أن نصل الى توزيع للمسئوليات يسهل معه حمل المهام.

وتطبيقاً لذلك، فلقد يكون في استـطاعة مصـر أن تتولى ادارة الصـراع العام سياسياً وعسكرياً تنفيذاً لاستراتيجية تم الاتفاق عليها وتحددت خطوطها الرئيسية.

ويكون على الجزائر مثلاً أن تتولى جبهة اوربا الغربية.

ويكون على السعودية مثلاً أن تتولى جبهة البترول.

أو ربما يكون هناك توزيع آخر للأدوار.

٤ـ ان الجبهـات الدوليـة التي وقفت بجانبنـا قد تـرتبت لها حقـوق بما اتخـذت من مواقف، ولقـد يكون بـين اهتمـامـات المؤتمـر ان يحتفظ للنضـال

العربي بمساندة هذه الجبهات، ثم أن تكون هذه الجبهات على اتصال مباشر بتطورات الصراع.

وعلى سبيل المثال فإن الاتحاد السوفيتي قام - ويقوم - بأهم الأدوار الخارجية المساندة لنا في الصراع، ولا بد أن يأخذ دوره ما يستحقه من اهتمام الامة العربية، ثم اننا لا بد أن نشجع هذا الدور لكي يواصل حركته، ولسوف تكون مأساة خطيرة أكثر مما هي محزنة، اذا كان ما حاربنا به سلاحاً سوفيتياً، ثم يكون ما نقبل به في النهاية حلاً أمريكياً.

وعلى سبيل المثال فإن الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الافريقية قامت جميعها - تقريباً - بقطع علاقاتها السياسية باسرائيل واشترطت لعودة هذه العلاقات انسحاباً اسرائيلياً كاملاً من أراضينا المحتلة سنة ١٩٦٧.

ولقد اقترح أن ندعو لجنة اتصال من منظمة الوحدة الافريقية الى الاقامة بصفة دائمة في القاهرة حتى يتحقق الانسحاب.

تكون هذه اللجنة ارتباطاً أفريقياً بتحركات العمل العربي.

ثم تكون هذه اللجنة متابعة أفريقية لخطوات حل - أو تعثر - الأزمة خطوة بعد خطوة.

ثم تكون هذه اللجنة دليلاً أمام العالم كله على التزام افريقيا بقضيتنا المصيرية.

ولقد نرى أن نفعل ذات الشيء مع مجموعة الدول غير المنحازة.

ولقد نرى الى جانب ذلك، أن نقيم اتصالاً مستمراً مع أوربا الغربية، نشرح لها من خلاله نوايانا وخططنا، وما نحن على استعداد لقبوله، وما نحن على غير استعداد لقبوله.

ولربما رأينا في حالة اوربا الغربية بالذات، أن نجدد الطلب ونصر عليه

بضرورة اشتراك فرنسا وبريطانيا في أعمال مؤتمر السلام القادم.

ان اوربا الغربية دخلت في مشكلة مع الولايات المتحدة، لأنها رفضت ـ باستثناء البرتغال ـ أن تجعل من أراضيها ممراً لجسر السلاح الممتد من الولايات المتحدة الى اسرائيل.

ولقد كان غضب الولايات المتحدة على اوربا الغربية شديداً وقاسياً، ولا أتصور ـ والحال كذلك ـ ان نقبل مساهمة أمريكية نشطة في حل الأزمة ـ مع كل مخاطر ومحاذير المساهمة الامريكية في هذا الصدد ـ ثم نوافق نحن في نفس الوقت على أبعاد أوربا الغربية عن هذا الدور ولها مقعدان دائمان في مجلس الأمن: المقعد الفرنسي والمقعد البريطاني.

ولقد نتذكر أن أوربا الغربية أصبحت تجد لنفسها مصلحة مختلفة ـ وليست متعارضة ـ عن الولايات المتحدة.

ولقد نتذكر أن أوربا الغربية لديها مخاوف من القوة العسكرية المتعاظمة للاتحاد السوفيتي، وهي تخشى ـ باختلافها مع الولايات المتحدة ـ أن تجد نفسها في حالة «فنلدة»، أي حياد مفروض في ظلال القوة السوفيتية الضخمة.

ومن هنا فان أوربا في حالة بحث عن دور مستقل لنفسها في العالم، ولقد نساعدها على هذا الدورولقد نجد في هذا الدور- اذا تم العثور عليه- مصلحة لنا.

ومهما يكن فان وجود فرنسا وبريطانيا في مؤتمر السلام ـ فضلاً عن اعتبارات كثيرة ـ عامل مساعد أمام الوفاق ـ أو حتى أمام الشقاق ـ بين القوتين الأعظم.

الى جانب ذلك كله فلعلنا لا ننسى أن هناك عملاقاً جديداً في العالم اسمه الصين، ولقد أثبت هذا العملاق في ممارسته للقوة أن الاستعمال العاقل لها يضاعف من قيمتها كما أن الاستعمال الأحمق لها ينزل بقيمتها.

لقد وصلت الصين بالاستعمال العاقل لقوتها المحدودة حتى الآن الى وضع لم يكن يخطر على بال. ومع أن قوة الولايات المتحدة الامريكية تزيد أكثر من مائة مرة على قوة الصين فان الاستعمال الأحمق للقوة الامريكية هبط بوزنها الى درجة تدعو للرثاء!

والى جانب علاقات وثيقة لا بد من اقامتها مع الصين، فلقد نستفيد من الاسلوب الصيني في استعمال عناصر القوة العربية.

٥ـ ان المؤتمر المقبل للقمة العربية قد يجد ان هناك مهمة اعلامية عاجلة لا بد من القيام بها توجهاً للرأي العام العالمي كله.

ان العالم رأى ملامح سريعة مما حدث يوم ٦ أكتوبر، ومن حقه أن يرى الصورة كاملة.

ثم أن العالم الآن يحس بأزمة في الطاقة، ومن السهل تصويرها أمامه بأنها عقاب وقع عليه بسبب ما لا دخل له فيه، وهذا التصوير ينبغي تصحيحه.

ثم أن لنا، بصرف النظر عن يوم ٦ أكتوبر وعن أزمة الطاقة ـ قضية لا بد أن تزداد الدنيا معرفة بها لتزداد الدنيا تأييداً لها.

وربما كنت واحداً من الذين يعتقدون أن الإعداد الإعلامي ليس أقل أهمية من الاستعداد العسكري، لإننا في عصر أصبحت فيه لكل حقيقة صورتان:

- الصورة كما هي فعلاً.
- ثم الصورة كما يراها الناس.

وأهمية الصورة كما يراها الناس لا تقل عن أهمية الصورة كما هي فعلاً.

الصورة كما هي فعلاً: حقيقة علمية.

الصورة كما يراها الناس: حقيقة سياسية.

***

بقى أن بعض المراقبين السياسيين يرون أن مصر لا حاجة بها الى مؤتمر عربي على مستوى القمة لأن مثل هذا المؤتمر قد يقيد حركتها أو هو يحرمها من ميزة المناورة الواسعة.

واعترف أن لي رأياً مختلفاً.

ان مصر في حاجة الى الحركة هذا صحيح، ولكن حاجة مصر الى الحركة لا بد أن تكون اعتماداً على القوة، والقوة الى أقصى مدى يمكن توفيره.

والقوة ليست قيداً على الحركة وإنما القوة قاعدة أساسية لفاعلية أي حركة خصوصاً اذا كنا ندرك ان الحرب ما زالت مستمرة بوسائل أخرى غير النار مع العلم بأن العودة الى النار احتمال وارد - ولا بد أن يكون وارداً - في أي لحظة ومع العلم بأنه لا يصح لأحد أن يثق حتى الآن ومع الظروف القائمة في نوايا أو قدرة الولايات المتحدة على ممارسة أي ضغط مؤثر على اسرائيل.

ثم أن ميزة المناورة الواسعة لا تعني التحرر من الالتزام وألا كنا هنا نخلط بين الانتهازية والواقعية.

إن ميزة المناورة هي انها تعطي امكانية الوصول الى الهدف بطريق الاقتراب غير المباشر اذا إستعصى إقتحام الطريق اليه عنوة ومباشرة.

ولكن ميزة المناورة لا تعني الحركة المتحررة من الالتزام.

ربما كان علينا أن نفرق بين شيئين:

الشطارة والذكاء.

والشطارة هي براعة الأفلات من المواقف الصعبة.

وأما الذكاء فهو مقدرة الاستعداد للمواقف الصعبة.

واعتقادي انه ليس هناك ما يمكن لمصر أن تخشاه على حقها في ميزة المناورة الواسعة ـ اذا ما اشتركت الآن في مؤتمر عربي على مستوى القمة. ولقد أحسست بإطمئنان شديد عندما سمعت عن الرئيس الجزائري هواري بومدين قوله:

ـ ان مصر قاتلت، وليس لأحد أن يزايد عليها، أو يسد طريقاً أمامها»

□

لعلّي أقول انني أفضل عبارة الرئيس أنور السادات التي قال فيها:

ـ إننا سوف نواصل سيرنا على الطريق حتى نصل الى هدف نرضاه لأنفسنا ويرضاه لنا نضالنا»...

... أفضل هذه العبارة على عبارة أخرى مشهورة «لجورج بيدو» الذي كان رئيساً لوزراء فرنسا وقت أزمتها الكبرى سنة ١٩٤٠، وكان «بيدو» قد قال في تلك العبارة:

ـ رباه انني لا أعرف الى أين نحن ذاهبون... ولكن أعرف أننا ذاهبون اليه بسرعة شديدة!!»

***

وأخيراً فلقد يسألني أحد:

ـ هل يمكن حقيقة لمؤتمر عربي على مستوى القمة أن يحقق هذا الذي

تمنيته أو بعضاً منه . . . أو ان ذلك كله مما قلته غير قابل للتنفيذ وإنه أحلام مما يصنعه فرط الحماسة؟

وأقول لنفسي :

ـ في ظني أنه كله قابل للتنفيذ . . . ثم أليست الارادة وحدها هي الجسر بين الحلم وتحقيق الحلم؟ ثم الا تستحق شجاعة الرجال وتضحيات الرجال تكريماً يصونها ويحتفظ لها ـبما جادت بالحياة في سبيل الوصول اليه ويضيف اليه اذا استطاع، بكل وسائل القوة الشاملة لأمة بأسرها؟»

مناقشة مع كيسنجر

١٦ نوفمبر ١٩٧٣

لا اعرف ماذا اترك، وماذا أتناول، من حوار دام ساعتين ونصف الساعة مع الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية.

● من ناحية ـ لأن الحديث بيننا طال وتفرع وتشعب، ومس افكارا وأدوارا وأحداثا تمتد من الماضي الى الحاضر الى المستقبل، وتتصل من نواح عديدة بفلسفة السياسة والتاريخ والتطور، ثم انه اتسع من مصر الى الشرق الأوسط الى العالم المعاصر بأوضاعه وحقائقه وموازينه.

ومحاولة ربط هذا كله معا وضغطه في مساحة محدودة ـ مهمة صعبة، خصوصا وان المساحة ليست محدودة فقط، وانما الظروف الى جانب ذلك دقيقة لا تحتمل المغامرات. . . ولو حتى بالحكايات!

● ومن ناحية اخرى ـ فلقد احسست ان الدكتور هنري كيسنجر حاول ان يكون مفتوحا وواضحا معي الى درجة كبيرة. وقد كان لقاؤنا بناء على رغبة أبداها، فقد نزل الى مطار القاهرة مساء يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر الماضي ليقول لمضيفه اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصرية «انه قرأ مقالا لي نشر قبل أيام عن الدور الأمريكي في الأزمة وأهميته وقيمته، وهو يريد مناقشتي فيما كتبت» ـ ثم عاد الدكتور هنرى كيسنجر فأثار موضوع هذا المقال خلال اجتماعه مع الرئيس انور السادات صباح يوم الأربعاء ٧ نوفمبر.

وعنـدما التقيت بـالدكتـور هنري كيسنجـر عـلى العشـاء، مسـاء نفس اليـوم: الاربعاء ـ وكـان هذا أول لقـاء بيننا ـ فـوجئت بـه أمـام كثيـرين من المدعوين في بيت وزير الخارجية يأخذني بحفاوة شديدة ويقول لي برقة زائدة: انني من كثرة ما قرأت لك اشعر وكأننا اصدقاء من عشرين سنة على الأقل».

ثم اقتـرح ان نلتقي بعد العشـاء في الجنـاح الـذي ينـزل فيـه بفنـدق هيلتون، ون نتناقش «بصراحة» كاثنين من المهتمين بالتفكير السياسي الجـديد وتطبيقاتـه وبصرف النـظر عن الخلافـات الناشئـة من تباين المصـالح القـومية والعقائد الاجتماعية.

واحسست ونحن وحدنا في الجناح الرئاسي في الدور الثاني عشر بفندق هيلتون ـ انه يريد المناقشة حرة من أي حرج فقد قال وسـأل بغير تـردد، وان كان قد توقف في بعض مواضع الحوار ليقول لي:

ـ بالطبع... هذا لعلمك فقط»

ولقد قدرت صراحته فيها قال وسأل بغير تحـرج، ثم انني ملتزم بتقـدير رغبتـه فيـها طلب كتمـانـه ـ وتلك قيـود اخـرى الى جـانب قيـود المسـاحـة المحدودة، والظروف الدقيقة!

ومن هنـا تساؤلي في مـطلع هذا الحـديث من انني لا اعرف مـاذا اترك وماذا اتناول من حوار دام ساعتين ونصف الساعة مع الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة؟!

* * *

كانت الساعة الحادية عشرة الا ربعا مساء عنـدما دخلت الجنـاح الذي ينزل فيه الدكتور هنري كيسنجر، وقـوطع حـوارنا قبـل ان يبدأ عنـدما جـاء روبرت ماكلوسكي المتحدث الرسمي بـاسم وزارة الخارجيـة يهمس بشيء في اذن كيسنجر، والتفت اليَّ كيسنجر يقول:

ـ هل يضايقك لو تركتك لمدة عشر دقائق اذهب فيها الى لقاء الصحفيين الأمريكيين الذين يتابعون مهمتي في القاهرة. . . هم في غرفة اعددناها للمؤتمرات الصحفية هنا. . . ويبدو انهم يريدون مني ان احدثهم عن نتائج عملنا اليوم. . . وأظنك تعرف الصحافة. . . »

وذهب وعاد بعد ربع ساعة وبدأ حوارنا في حوالي الساعة الحادية عشرة تماما، وقوطع مرة اخرى في منتصفه ولم تكن المقاطعة هذه المرة من الصحافة وانما كانت من جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل، فقد دخل علينا احد مساعدي كيسنجر، وكان الهمس مرة اخرى، وقال لي كيسنجر:

ـ سوف اذهب دقيقتين الى غرفة استقبال الرسائل. . . اذ يبدو لي ان آلاتنا تدق برسالة من جوزيف سيسكو مساعدي لشئون الشرق الأوسط الذي بعثت به الى تل أبيب ظهر اليوم يحمل بعض مقترحاتي الى رئيسة وزراء اسرائيل. . . يبدو انه قابلها. . . ويبدو انه يدق على أجهزة اللاسلكي الآن ردها المبدئي على مقترحاتي».

وذهب كيسنجر وعاد بعد خمس دقائق. . . واتصل حوارنا.

* * *

كنت البادىء بفتح باب الحوار. . . قلت لكيسنجر ونحن بالكاد نجلس في مقعدين متواجهين في صالون جناحه:

ـ انت رجل مشغول، ثم انك مرهق برحلتك الطويلة وانت بعد في مقدمتها. ولا اريد ان اطيل عليك بعد الحد الذي تراه أنت».

وقال كيسنجر: بانجليزية ملكونة بلهجة أمريكية، معجونة بنبرة المانية، لكن كل كلمة فيها واضحة بدقة استاذ بارز في العلوم السياسية اتيحت له الفرصة لكي يفكر نظريا ويمارس عمليا على نحو لم يتح لغيره من اقطاب العالم المعاصر البارزين:

ـ ربما كنت مشغولا . . . وربما كنت مرهقا . . . ولكني اريد ان اسألك في أشياء كثيرة لأني أريد أن اعرف وأفهم من وجهة النظر العربية ما هو ابعد من سطح المشاكل العملية التي تشدنا اليها الأزمة .

انني لم اكن قد فتحت بعد ملف أزمة الشرق الأوسط .

كنت اتصور انها سوف تنتظر دورها .

ولكن الأزمة فرضت نفسها على الجميع وانا بينهم على غير انتظار»

واستطرد مبتسما :

ـ انكم في هذا نجحتم . . . وانا اول من يسلم لكم بهذا النجاح .

وها نحن جميعا . . . امام الأزمة وجها لوجه . . . وأنا كما قلت لك لم أفتح ملفاتها القديمة بعد»

قلت لهنري كيسنجر :

ـ قبل ان نفتح بالحديث ملفات الأزمة القديمة لديَّ سؤال متصل بهذه الدقيقة .

سؤال متصل بك انت وبدورك الذي تقوم به الآن هنا في القاهرة، وغدا في عمان، وبعد غد في الرياض .

اريد ان اسألك : من انت؟

انك عالجت من قبل وباقتدار كبير مشاكل ضخمة : حرب فيتنام . . . فتح الأبواب مع الصين . . . الوفاق مع الاتحاد السوفيتي .

لكنك في هذه المشاكل جميعا كنت تمثل الطرف الآخر في المشكلة .

كانت الولايات المتحدة الامريكية هي الطرف الاخر المباشر في مشكلة

حرب فيتنام، وفي العلاقات مع الصين، وفي الوفاق مع الاتحاد السوفيتي.

باختصار فانت في المرات السابقة كنت مفاوضا من حيث انك كنت طرفا مباشرا.

اما هذه المرة وفي أزمة الشرق الأوسط فان السؤال عن: من أنت؟ يصبح سؤالا ضروريا لكي نعرف أين نحن بالضبط!

هل انت طرف؟... هل انت مفاوض؟

لا أظن

انكم اول من يقول بأن اسرائيل لها ارادة مستقلة عن الولايات المتحدة، ومع انكم تعترفون بأن لكم تأثيرا كبيرا عليها، ولكن مؤدى ما تقولون به في النهاية هو ان هناك مساحة ما بين الارادة الأمريكية والأرادة الاسرائيلية... انتم ترون هذه المساحة بين الارادتين واسعة وربما اختلفنا معكم ووجدنا هذه المساحة بحكم قرب الارتباط وحجمه ـ ضيقة... شديدة الضيق... لكن هناك مساحة لا تجعلك بالضبط طرفا... وبالتالي لا تجعلك بالضبط مفاوضا!

واذا لم يكن دورك هو دور «الطرف الثاني» «دور المفاوض» ـ اذن فما هو دورك بالضبط... هل هو دور «الوسيط»؟ لا اظن مرة اخرى... بل لعلي واثق!

ان دور «الوسيط» يقتضي حيادا بين الطرفين... او على الأقل احساس الطرفين بوجود او امكانية وجود هذا الحياد.

ونحن لا نشعر بذلك... انحيازكم لاسرائيل لا يحتاج الى دليل... آخره هذا الجسر الجوي والبحري الذي يحمل الاسلحة والذخائر من الولايات المتحدة الى اسرائيل.

واذن فانتم لستم ـ ولا يمكن ان تكونوا ـ محايدين.

واذن فأنك لا تستطيع ان تكون «وسيطا».

واذا لم تكن «مفاوضا» لانك لست طرفا مباشرا، واذا لم تكن «وسيطا» لأنك لست محايدا ـ اذن فما هو دورك بالضبط؟

انني لا اسأل هذا السؤال من باب الفضول، ولكن لأن اجابتك عليه سوف تضبط ايقاع الكلام بيننا كله».

ـ انني وجهت هذا السؤال لنفسي، واذا كان السؤال مهما لك في ضبط ايقاع الكلام بيننا فهو مهم لي لضبط ايقاع الحركة حركتنا، حركة الولايات المتحدة في الأزمة.

انني لا امثل طرفا مباشرا في الأزمة... انا اقول بذلك. ثم انني لا امثل دور الوسيط بين الطرفين في الأزمة... انت تقول بذلك.

لنقل، ونتفق على القول، بانني امثل «اهتمام» الولايات المتحدة بأزمة خطرة، تدور في منطقة حساسة بالنسبة لنا... منطقة لنا فيها مصالح استراتيجية ـ سياسية واقتصادية ومصالح أمن ـ ونحن نريد المحافظة على هذه المصالح وذلك بالطبع الى جانب اهتمامنا بالسلام العالمي والى جانب حرصنا على صداقة شعوب هذه المنطقة.

لنقل ما يلي:

١ ـ ان لنا مصالح استراتيجية في المنطقة.

٢ ـ ان القوة الاعظم الثانية ـ الاتحاد السوفيتي ـ لها مصالح في هذه المنطقة.

٣ ـ اننا نحاول اقامة نظام عالمي جديد يقوم على الوفاق بعد زوال عصر الحرب الباردة ولكن الوفاق لن يجرنا الى ترك المنطقة لنفوذ القوة الاعظم الثانية.

٤ ـ اننا لا نريد ان تتصاعد أي أزمة لكي تؤثر على الـوفاق لأن مخـاطر ذلك اخطر من ان تتحملها البشرية بأسرها.

٥ ـ ان لنا علاقة خاصة باسرائيل ونحن ملتزمون بحماية امنها، ونحن نعتبر ان حماية امن اسرائيل لا يمكن ان تتحقق الا باحترام سيادتكم.

٦ ـ اذا كانت لنا علاقة خاصة باسرائيل فاننا لا نجد في ذلـك تعارضـا مع صداقة نريد تنميتها وتقويتها معكم.

٧ ـ اننا لا نريد ان نكون بمفردنا، ولا بالمشاركة مع غيرنا، اوصياء على المنطقة ولكننا نريد لشعوب هذه المنطقة ان تبني لنفسها نظام حياتها وامنها وفق ما تراه وبانسجام مع حقائق العالم.

هذه هي عناصر موقفنا كما يتصوره الرئيس نيكسـون، وكما اتصـوره انا واتفق معك على اني لست «طرفا».

واتفق معك على اني لست «وسيطا»

وربما تتفق معي على ان ما أمثله هو: «اهتمام» امريكي بـأزمة الشـرق الأوسط، وهو اهتمام يحاول ان يؤدي دوره حفاظا على مصالحه وبغـير تناقض مع مصالح الآخرين».

* * *

واستطرد هنري كيسنجر:

ـ انني اعرف انني اتناول مشكلة معقدة وصعبة

اجـدها أصعب من مشكلة فيتنـام، واجدهـا اصعب من فتـح ابـواب الصين، وأجدها اصعب من الوفاق مع الاتحاد السوفيتي.

المشكلة هنا معبأة على الآخر بعناصر متضاربة ومتفجرة. . .

عناصر تاريخية وقومية ونفسية، ورواسب قديمة وجديدة، ونزعات شك وخوف لا نهاية لها.

ولقد تناولت مشكلة الشرق الاوسط عارفا بما ينتظرني عارفا انني لا امثل «طرفا» كما انني لست «وسيطا» وما ادعيه هو انني تعبير عن اهتمام امريكي.

سوف اقول لك شيئين فيما يتعلق بطريقة تناولي للمشاكل.

الشيء الأول: هو انني لا احب ان اقترب من مشكلة الا اذا احسست ان عناصرها الأساسية او على الأقل جزءا كبيرا من عناصرها الأساسية في يدي.

كان ذلك متوفرا لي في حرب فيتنام فقد كان الرأي العام الأمريكي يريد نهاية لهذه الحرب.

وكان ذلك متوفرا لي في بكين وموسكو لأن حقائق العصر الجديد كانت تسير في الاتجاه الذي اسير فيه.

في أزمة الشرق الأوسط لا استطيع بالضبط ان احسب ما في يدي من العناصر الأساسية في الأزمة.

الشيء الثاني: هو انني اكره الفشل...

ان لدي رصيدا من النجاح ولست اريد ان افرط فيه.

لا اتحدث عن جائزة نوبل للسلام...»

واستدرك كيسنجر:

ـ هناك قصة سوف احكيها لك: ذهب بعض زملاء ابني في المدرسة اليه يقولون له: هل تعلم ان بعض اصحابنا يقولون ان أباك لا يستحق جائزة نوبل للسلام ولقد غضبنا منهم وقلنا لهم ان ذلك لا يصح.

ولكن ابني قال لزملائه:

ـ وماذا يهم... ان امي قالت لي نفس الشيء!».

وضحك كيسنجر واستطرد:

ـ مشكلتي اذن في ازمة الشرق الأوسط كما يلي:

ليست في يدي عناصر كافية من عناصر الأزمة، امثل اهتماما امريكيا بها، ولكن كل ما استطيع الاعتماد عليه هو سمعتي الشخصية... رصيدي الشخصي...

واعتقد برغم صعوبة الظروف ان هناك فرصة للنجاح ولكني اريد وقتا...

اريد من الاطراف ان يعطوني صبرهم.

ما اطلبه الآن هو الصبر...

واعترف انني خائف من الرومانسية العربية... اخشى ان تتصوروا الحل عند أول منحنى من الطريق... واعتقادي انه تلزمنا فترة ما بين ستة اشهر الى سنة كاملة حتى نصل الى بداية شيء معقول.

وعندما اجتمعت مع وزراء الخارجية العرب الأربعة في بداية الحرب الأخيرة في الشرق الأوسط قال لي بعضهم.

ـ ان الرجل الذي استطاع حل مشكلة حرب فيتنام، وفتح الأبواب مع الصين، وبنى الوفاق مع الاتحاد السوفيتي ـ يستطيع ان يحل ازمة الشرق الأوسط.

وقلت لهم:

ـ ارجوكم ان لا تنظروا الى الأسبوعين الأخيرين في باريس [مقر

مفـاوضات فيتنـام] او الأيام الأخيـرة في بكين او مـوسكو. . . ان هـذه الأيام سبقها تحضير وعمل سنين طويلة حتى استطعنا ان نصل الى الأسـابيع والأيـام الحاسمة.

قلت لهم انه ليس في وسعي ولا في وسع غيـري ان يصنع المعجـزات، والسياسة الدولية ليست مهنة الحواة».

* * *

واستطرد هنري كيسنجر:

ـ ان بعضا منكم في العالم العربي اساء فهم اقتراحي الذي طرحته في اليوم التالي لنشوب القتال في الشرق الاوسط وهو اقتراحي بعودة القوات المتحاربة الى المواقع التي كانت فيها قبل ظهر يوم ٦ اكتوبر.

لم اكن في هذا الاقتراح متحيـزا لاسرائيـل كما بـدا لكم وانما كـانت لي تصورات مختلفة. . .

سوف اروي لك القصة كلها:

قبل ٦ اكتوبر كانت كل معلوماتنا تستبعد احتمال قيام الحرب ومع انـه كانت هناك اخبار كثيرة متواترة عن حشودكم فقد كان التقدير ان الحشود هي للقيام بمناورة وليست لشن حرب.

ثم ان جميع الخبراء لدينا كـانوا يتصـورون انكم لو بـدأتم الحرب فـان القوة العسكرية الاسرائيلية سوف توجه اليكم ضربة قاضية.

وعندما بدأت الحرب فعلا فلقد ثبت ان معلوماتنا كـانت خاطئـة وبقي لدينا الاعتقاد بأن تصوراتنا حول نتائجها ما زالت صحيحة.

وفي ذلـك الوقت جـاء اقتـراحي بـوقف اطـلاق النـار وعـودة القـوات المتحاربة الى الخطوط التي كانت عندها قبل بدء القتال.

تصورت ان ذلك في مصلحتكم قبل ان يكون في مصلحة اسرائيل.

دعني اضع المسألة امامك بطريقة اخرى.

- لـو قلت لـك انني كنت افكـر في مصلحتكم فـقط لأحسـست اني اخـدعك وانـا لا اريد ان افعـل ذلك او احـاولـه لانـك تستـطيـع اكتشـاف الحقيقة.

ان تفكيري سار على النحو التالي:

- ان المصريين قاموا بمغامرة خطيرة... ربما دفعهم اليها اليأس، ولكن القوة العسكرية الاسرائيلية سوف تنقض الآن عليهم بمنتهى القسوة.

ماذا سيحدث بعد ذلك؟

ان مصر سوف تتجه الى الاتحاد السوفيتي لينقذها وهناك احتمالان:

ان يتدخل السوفيت بطريقة تفرض علينا التدخل نحن الاخرين وهـذا يضعنا امام احتمال رهيب... نحن وهم معا.

واما ان لا يتدخل السوفيت ولكنهم سوف يدخلون الى مصر بطريقة لا يخرجون منها بعد ذلك ابدا... وهذا أيضا احتمال لا نريده.

لم تكن المسألة حرصا على مصر وحدها ولكن المسألة بالدرجة الاولى كانت حرصا على حقائق وموازين القوة في هذا العصر ومن هنا جاء اقتراحي بوقف اطلاق النار فورا وعودة القوات المتحاربة الى مواقعها قبله...»

* * *

واستطرد هنري كيسنجر:

- بعد يومين كان القتال ما زال عنيفا في سيناء.
معلوماتنا كانت خاطئة عن حشودكم للحرب.

وتصوراتنا بدت هي الاخرى خاطئة عن قدرتكم على الحرب!

لقد رحت اطلب تقارير البنتاجون عن سير المعارك وسألتهم في قيادة الجيش الامريكي اكثر من مرة:

- ماذا يجري في الشرق الأوسط بالضبط؟

وكان ردهم:

- ان الصورة تختلف كثيرا عن تصوراتنا السابقة.

وجاءتني التقارير بعد التقارير، عن عملية عبوركم لقناة السويس، وعن ارادة القتال لدى جنودكم وضباطكم، وعن معارك الدبابات في الصحراء.

وكانت المعارك ما زالت مستمرة...»

واستطرد هنري كيسنجر:

- لقد قلت وقتها، ان الظرف اصبح الآن ملائما لوقف اطلاق النار.

ان المصريين اثبتوا قدرتهم على القتال...

انهم غيروا الاوضاع في الشرق الاوسط وهناك الان حقائق جديدة يجب ان نأخذها في الحساب.

وكان رأيي ان الاستمرار في اطلاق النار بعد ذلك لا مبرر له.

ان الهدف السياسي من قبول المصريين لمخاطرة الحرب اصبح واضحا، واذن فانه لا بد ان نسعى جميعا الى وقف اطلاق النار وان نباشر العمل السياسي لحل الازمة من اساسها.

واتصلت بالسوفيت

وربما قلت لك ايضا انني بعثت برسالة الى القاهرة.

كان اقتراحي وقتها هو وقف اطلاق النار في المواقع الحالية. . . كان ذلك فيما اظن اليوم العاشر من اكتوبر.

ولقد اذكرك هنا بنقطتين:

الاولى ـ انك قد تلاحظ اننا لم نتوقف طويلا امام السؤال الذي يقول:

ـ من الذي بدأ اطلاق النار؟.

والثانية ـ انك قد تعرف ان التقدم لاسرائيل باقتراح لوقف اطلاق النار في مواقع العاشر او الحادي عشر من اكتوبر لم يكن سهلا.

لقد كانت ثورتهم علينا عارمة لانهم كانوا يقدرون انه مع اتمام حالة التعبئة العامة في اسرائيل فانهم سوف يصبحون قادرين على تغيير سير المعارك لكنهم في النهاية رضخوا، اما انتم فقد جاءتنا الكلمة منكم بواسطة السوفيت ـ والبريطانيين ايضا ـ بانكم لستم على استعداد للقبول، ولو اني تلقيت في ذلك الوقت ومن القاهرة شروط الرئيس السادات للسلام وهي الشروط التي اعلنها بعد ذلك بأيام أمام البرلمان ـ لاختلف الحال ولم تكن المشكلة في ذلك الوقت شروط السلام وانما كانت شروط وقف اطلاق النار. . .».

[هناك اجزاء من حديث هنري كيسنجر في هذا الموضع لم يحن وقتها بعد. . . .وهي في نطاق ما لا داعي لقوله الآن ثم هي في نطاق المحظور مما طلب كتمانه].

***

ويستطرد هنري كيسنجر:

ـ الخلاصة اننا لم نستطع التوصل الى وقف اطلاق النار في ظرف اعتبرته مناسبا.

دعني اقل لك شيئا عن رأيي في حل النزاعات.

اذا كنا نريد حل نزاع متأزم فيجب ان تكون النقطة التي نبدأ منها هي نقطة يشعر فيها كل طرف انه حصل على شيء... وان التوقف عندها ليس هزيمة له.

ومثل هذا الموقف كان متاحا لنا في نهاية النصف الاول من اكتوبر.

مصر عبرت قناة السويس واقتحمت خط بارليف وتقدمت بضعة كيلومترات في سيناء الى الشرق من خط وقف اطلاق النار قبل ٦ اكتوبر.

واسرائيل تمكنت من وقف الهجوم السوري ـ وقد كان قويا وكثيفا ـ في الجولان وتقدمت بضعة كيلومترات الى الشمال من خط وقف اطلاق النار قبل ٦ اكتوبر.

واذن فان كل طرف حصل على شيء مما كان يريد وان لم يحصل على ما يريده كله.

واذن فهذا هو الوقت للتوقف عن القتال والبحث بالسياسة عن حل»

ويستطرد هنري كيسنجر:

ـ انك تستطيع بالطبع ان تتصور الضغوط الداخلية التي بدأنا نتعرض لها لكي نسارع الى مساعدة اسرائيل.

وعندما لم نستطع مواجهة الضغوط الداخلية بقرار من مجلس الامن بوقف اطلاق النار فقد بدأنا نساعد اسرائيل.

[ودار نقاش طويل بين كيسنجر وبيني في ثلاث نقط].

● الاولى- ان شحنات السلاح السوفيتي لنا في تلك الفترة كانت تنفيذا لعقود سابقة عن الحرب.

● والثانية- ان هناك فارقا في الحجم بين ما قدمه الاتحاد السوفيتي لنا تنفيذا لعقود سابقة وبين ما قدمته الولايات المتحدة لاسرائيل في وقت حاسم من سير الحرب

● والثالثة- ان مصر وسوريا كانتا تحاربان لتحرير ارض لهما احتلها العدوان الاسرائيلي قسرا لاكثر من ست سنوات.

وقال هنري كيسنجر:

- هناك اعتبار آخر ارجوك ان تضعه في اعتبارك، ولست مستعدا لان اخدعك فيه ايضا!.

وهذا الاعتبار ببساطة هو:

- ان الولايات المتحدة لا تستطيع اليوم ولا غدا ان تسمح للسلاح السوفيتي بان يحقق انتصارا كبيرا- وحتى اذا لم يكن انتصارا حاسما- ضد السلاح الامريكي..

هذه مسألة لا علاقة لها بكم ... ولا علاقة لها باسرائيل هذه مسألة تتصل مباشرة بتوازن القوة بين الدولتين الاعظم».

* * *

واستطرد هنري كيسنجر:

- ان الامور تطورت في سير الحرب... ولم يكن ذلك بسبب السلاح الامريكي الذي ارسلناه لاسرائيل، كما قلت انت في مقال قرأته لك، ولكن لان القوة العسكرية الاسرائيلية كانت ما تزال بعد قادرة.

لقد كانوا في حاجة الى ما ارسلناه لهم، ولكنهم بدونه لم يكونوا في حالة عجز كما تتصورون .

اننا جميعا كنا نبالغ في تصوراتنا عن ضعف قوتكم، فلا تفعلوا انتم ذلك الان بالنسبة لقوة من تعتبرونه عدوكم. . .

ذلك خطأ. . .ثم هو خطر لقد جاء هجومهم المضاد في غرب قناة السويس وكانوا على استعداد لذلك من قبل مساعداتنا لهم.

(دار النقاش طويل آخر حول هذه النقطة وشرحت لكيسنجر شواهدي من متابعة سير المعركة).

وقال هنري كيسنجر:

ـ قد نتجادل في ذلك من الآن الى الصباح لكن علينا ان نفرق بين الجدل السياسي وبين الحقائق السياسية. .

نحن الان امام الوضع الذي نراه امامنا على الطبيعة.

ومهما كانت اسبابه فنقطة البداية لمواجهته هو ان نأخذه كما هو في اعتبارنا بصرف النظر عن اسبابه.

ومع ذلك فهو وضع لا يزال ملائما لحل سياسي.

قواتكم عبرت وهي في مواقع الى الشرق من قناة السويس.

وقواتهم عبرت وهي في مواقع الى الغرب من قناة السويس».

* * *

واستطرد هنري كيسنجر:

ـ هكذا وجدنا ان الوقت ما زال مناسبا للبحث عن حل وتعاونا مع الاتحاد السوفيتي ومعكم ومع غيرنا في مجلس الامن لكي يصدر قرارا بوقف اطلاق النار.

اريد ان اقول لك شيئا آخر:

انكم في هذه المرة تصرفتم بشكل مختلف عن تصرفكم سنة ١٩٦٧ .

سنة ١٩٦٧ اثرتم الدنيا علينا

ـ اتحدث عما وقع وقتها بصرف النظر ان كنتم او لم تكونوا على حق فيه ـ والنتيجة ان موجة عداء عارمة ضد الولايات المتحدة سادت المنطقة كلها . . . وهكذا عطلتم اي رغبة للولايات المتحدة في اداء دور لها تحس انها قادرة عليه .

سنة ١٩٧٣ تصرف الرئيس السادات بهدوء اكثر ـ وسواء كنا مخطئين او لم نكن مخطئين ـ فانكم فتحتم الباب امامنا لدور نرغب في القيام به ونحس اننا قادرون عليه .

ان الاتحاد السوفيتي يستطيع ان يعطيكم سلاحا .

ولكن الولايات المتحدة تستطيع ان تعطيكم حلا عادلا تعود به اليكم اراضيكم خصوصا وانكم استطعتم تغيير الموقف فعلا في الشرق الاوسط .

لا تتصور ان اسرائيل راضية عما نفعله .

وفي نفس الوقت فنحن لا نتصور انكم سوف ترضون بما نفعله .

ومع ذلك فان السياسة في عصرنا الآن ليست مسألة عواطف، وانما هي حقائق قوة» .

واستطرد كيسنجر :

ـ اريد ان اناقشك الآن في مقالك عن اهمية وقيمة الدور الأمريكي في الأزمة . . . انك ترى ان الرئيس الأمريكي حتى لو اراد عاجز عن ممارسة أي دور ايجابي في ازمة الشرق الأوسط بسبب الضغوط الداخلية عليه .

ربما تسمح لي ان اختلف معك

هنـاك مشـاكـل تـواجـه البيت الأبيض، ولكني لا اعتقـد ان ريتشـارد نيكسون سوف يستقيل كما انه لن يعزل.

والضغوط الداخلية عليه شديدة، ولكني ما زلت اعتقد ان مجال الحركة مفتوح امامه حتى تحت هذه الضغوط.

[دار نقاش طويل هنا حـول الأوضاع الـداخلية في الـولايات المتحـدة وكان هذا النقاش من مواضع الحديث التي قال لي فيها هنري كيسنجر: ذلك كله لعلمك الخاص بالطبع].

* * *

سألني هنري كيسنجر بعد ذلك في امور عديدة:

سألني هنري كيسنجر:

● منذ متى كانت سيناء مصرية؟

قلت له: سوف أبعث اليـك بمجموعـة خطابـات غراميـة مكتوبـة على أوراق بردى عمرها خمسة آلاف سنة وهي من قائد مصري في حامية العـريش الى زوجته وكانت اميرة فرعونية وفيها يقول بالحرف:

«انني اتذكرك من هذا المكان البعيد الذي انتظر فيه لأصـد الأعداء عن حدود الوطن المقدس».

وقلت له: انت الآن في اعرق امة في التاريخ»

●سألني هنري كيسنجر.

ـ ما هو الأساس في حركة القومية العربية. . . والوحدة العربية؟»

وأجبت باستفاضة

●سألني هنري كيسنجر

«ان جولدا مائير اطلعتني على مقال لك قلت فيه ان استراتيجيتكم فيها هي القضاء عليها. . . هل ذلك رأيك؟»

واجبت باستفاضة

● سألني هنري كيسنجر

«الى أي مدى سوف تواصلون استعمالكم لسلاح البترول. . . ان استعمالكم له ربما يوجعنا ولكنه لن يجرحنا او يقتلنا وبالعكس فانه سوف يحفزنا الى البحث عن مصادر جديدة للطاقة؟».

وأجبت باستفاضة.

● سألني هنري كيسنجر:

«هل الملك فيصل مستعد للشوط الى نهايته؟».

وقلت:

ـ انك في طريقك الى الرياض، وسوف تقابل الملك. وسوف تجده اصلب مما تصور كثيرون واعترف اني كنت بينهم.

انه مجروح من السياسة الامريكية فقد حسبناها عليه طويلا.

ثم انه غاضب لوعود تكررت منكم بغير وفاء.

ثم ان عروبة القدس موضوع لديه لا يقبل المناقشة وفي هذه النقطة فان الأمة العربية كلها معه».

وقال لي كيسنجر:

ـ انني قبل مغادرة واشنطن قرأت كل مراسلاته مع ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين: كيندي وجونسون ونيكسون واشعر ان فيصل له الحق في الاحساس بالمرارة. . .»

ثم أضاف كيسنجر:

ـ انني في الطريق غدا الى عمان والرياض... ولست اتوقع مشاكل مع حسين... ولكني انتظر المشاكل كلها مع فيصل»

* * *

وتركت هنرى كيسنجر في الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الخميس ٩ نوفمبر وخرجت الى شوارع القاهرة المعتمة في ظلام الحرب اسأل نفسي باحثا عن ضوء:

ـ ما هي الاستنتاجات التي يمكن ان اتوصل اليها بعد حوار طويل مع هنري كيسنجر؟».

وعندما وصلت الى بيتي في تلك الساعة من الصباح الباكر امسكت ورقة وقلما ورتبت الاستنتاجات التالية:

١ ـ ان هنري كيسنجر جاد في البحث عن حل، وان كنت لا اعتقد بعد ان لديه خطة كاملة يريد تطبيقها، ولقد كان ما احسست به هو انه يحاول تحريك الأمور ومن خلال الحركة فانه قد يجد منفذا.

٢ ـ ان يهودية هنري كيسنجر لن تكون قيدا عليه بل لعلها تعطيه مناعة ضد جماعات الضغط اليهودية في المجتمع الأمريكي.

٣ ـ ان هنري كيسنجر يحسن الظن ـ كما بدا لي ـ في قدرته على الحركة ازاء أوضاع السياسة الأمريكية الراهنة وأمام الضغوط الهائلة في المجتمع الامريكي ـ ومع ذلك فلقد اكون اول من يتمنى له النجاح اذا حاول وأول من يهنئه اذا وصل!

٤ ـ ان المستقبل العربي لا يستطيع ان يطمئن الى جهد رجل واحد داخل امريكا، ثم انه ليس من حق العرب ان يتركوا انفسهم للانبهار بأي

بريق يحيط بهنري كيسنجر من تأثير نجاحه في ازمات اخرى وان كان هنري كيسنجر بغير شك شخصية تدعو الى الاعجاب.

٥ ـ ان هناك مشكلة في نظرته العملية الى القضايا فهو من مدرسة تعتقد ان الحقيقة هي ما نراه هذه اللحظة وليست الحقيقة هي ما نظنه او نعتقده ـ نتيجة لما جرى قبلها ـ وذلك تقليل لاهمية التاريخ في الصراعات الكبرى.

٦ ـ إن حقائق القوة تسبق في تقديره اي عامل آخر في حسابات الأزمات وهذه نقطة تدعو الى اليقظة لأن حقائق القوة لا تتوقف عند لحظة معينة وانما هي جدل بين الحوادث مستمر. وتطبيق ذلك عمليا انه اذا استطاعت اسرائيل تغيير اوضاع القوة في الميدان فلقد نجد انفسنا مطالبين بقبول الاوضاع الجديدة كأساس جديد، وهذه بالضبط هي المشكلة التي قابلناها بعد قرار مجلس الامن بوقف اطلاق النار يوم **٢٢** اكتوبر **١٩٧٣**.

٧ ـ ان اهمية عنصر الزمن لديه تختلف عن اهمية عنصر الزمن لدينا، ذلك اننا تحت ضغوط من الاوضاع الراهنة العسكرية والسياسية والنفسية.، وهذه الضغوط بالنسبة لنا هموم نهار وارق ليل، ولكنها بالنسبة له مذكرات على ورق، وتصورات، واحتمالات على موائد بحث.

٨ ـ انني لم اقتنع بعد كل ما سمعته منه بأن الرئيس الأمريكي الحالي في وضع يسمح له بممارسة ضغط مؤثر على اسرائيل، واتصور انه اذا بدأ الرئيس الامريكي بظروفه الحالية في ممارسة ضغط على اسرائيل، ـ مع فرض انه يريد ممارسة مثل هذا الضغط ـ فان قوى الصهيونية في الولايات المتحدة لن تتأخر عن تجريحه بأكثر مما هو مجرح فعلا، ولسوف يحتاج الرئيس الامريكي الى شجاعة فائقة لكي يشرح للرأي العام الامريكي ان هناك جماعات في الولايات المتحدة لا يعنيها ان تصل الامور الى حد المواجهة النووية ولتغرق الدنيا بأسرها في طوفان من الدمار اذا كان في ذلك مصلحة لاسرائيل ـ وهذا

مع العلم بأن اعتقادي ـ تأكد بالتجربة ولم يتزعزع ـ بقـدرة الولايـات المتحدة على الضغط ـ بل والارغـام ـ ازاء اسرائيـل بما ليس متـاحا لغيـرها في العـالم شريطة ان يكون الرئيس قائدا ولا يكون الرئيس مقودا! .

٩ ـ ان موازين القوة العالمية لها دخل كبير في تقديراته وبالتالي فان علينا ان ندرك وبغير لبس اهميـة الدور السـوفيتي في الأزمة وهـذا الدور لا يجب ان يكـون عنصرا مسـاعدا او عنصـرا مؤقتـا وانمـا لا بـد لهـذا الـدور ان يتصـل ويتأكد. . . تفاهما سوفيتيا عربيا عميقا، وصداقة طويلة الامد.

١٠ ـ لست اعتقـد ان هناك اتفـاقا سـوفيتيا امـريكيـا محـددا ومفصـلا نستطيع ان نرتكن اليه، ثم انني لا اعتقـد ان هناك ضمـانا امـريكيا نستـطيع قبـوله ازاء اسـرائيل، واذا كـان هنـاك ضمـان امـريكي فلست اعـرف لهـذا الضمان ما يضمنه الا القوة العربية الشاملة [سياسيـة، اقتصاديـة عسكريـة] وربما من هنا آمال اعلقها على « مؤتمر القمة العربي» المنتظر لكي يحمل في يده مستقبل الامة العربية ويخطط له ويحميه في كل الظروف.

أحاديث السلاح

مقابلة مع أحمد إسماعيل

١٨ نوفمبر ١٩٧٣

بدأ هذا اللقاء مع الفريق اول أحمد اسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية- لقاء خاصاً ثم انتهى لقاء عاماً- أعني ان هذا اللقاء بدأ بيننا زيارة عادية له في مركز القيادة الذي أدار منه عمليات حرب أكتوبر، ثم خطر لي في نهاية لقائنا ان أسأله:

- لماذا لا يكون بعض ما دار بيننا اليوم للناس ايضاً؟»

وقال القائد العام، باستقامة جندي طالت عشرته مع السلاح:

- لست أعرف: هل من حق الجنود ان يتكلموا؟ . . لست واثقاً: هل الوقت مناسب الآن؟»

وقلت له:

- ان الحرب في العصر الحديث أصبحت جزءاً من الجهد السياسي الشامل للدولة، ولتحقيق مطالب شعبها في سلامة وفي أمنه، والدولة الحديثة لا تستطيع ان تقوم بدورها الا في دائرة الضوء امام شعبها وأمام العالم، وذلك لم يعد اختياراً في يد الدولة، وإنما أصبح ضرورة مفروضة عليها في وقت أصبح فيه عطاء الجماهير في الوطن أساساً لأي جهد، كما أن تعاطف العالم الخارجي أصبح ضمانة لأي نجاح.

وأمس فقط كنت اتحدث مع الجنرال اندريه بوفر قائد حملة السويس سنة ١٩٥٦، ومدير مركز الدراسات الاستراتيجية في فرنسا لسنوات طويلة، وكان مما قاله لي اندريه بوفر، ان الخلاف بينه وبين الادميرال بارجو القائد العام لقوات الحلفاء في حملة السويس، بدأ أساساً بسبب الصحافة.

كان الادميرال بارجو يريد الصحافة معه في القيادة العامة. . . وكان الجنرال بوفر يريد الصحافة معه في مكتب العمليات.

وقال لي بوفر ان واحداً من أهم اسباب ارتباك حملة السويس- الى جانب أسباب أخرى- يعود الى ان الصحافة كانت بعيدة عن ميدان القتال، وبالتالي فقد كان هناك تضارب بين ما ينشر من مقر القيادة العام، الذي بقي بعيداً في مالطة، وبين ما هو جار على أرض العمليات في بور سعيد وأمام شواطئها.

وقال لي بوفر: لم يعد ممكناً لأي قائد في العصر الحديث، الا ان يعتبر الصحافة سلاحاً أساسياً من أسلحته: كالطيران والمدرعات والبحرية. . . الى آخره».

واستطردت:

- ان الحرب الحديثة لم يعد ممكناً ادارتها بعيداً عن علم وفهم وتأييد الرأي العام الوطني والدولي.

هذا من ناحية حق الجنود في أن يتكلموا.

هناك سؤالك عن الوقت، وهل هو مناسب الآن:

ان الوقت مناسب باستمرار، وفيما يتعلق بنا في مصر، فإني أريد أن الخص لك رأيي فيما يلي:

١- لقد ثبت ان السلام لا يستطيع ان يعيش الا في حماية القوة.

٢ـ ان القوات المسلحة المصرية قامت في حرب أكتوبر بعمل مجيد.

٣ـ ان أحداً لم يعد من حقه ان يشك أو يشكك في أهمية دور القوات المسلحة في حماية السلام القومي والأمن القومي لهذا الوطن، ثم ان أحداً لم يعد من حقه أن يشك أو يشكك في أن القوات المسلحة المصرية اثبتت قدرتها على القيام بهذا الدور.

ولقد رأينا كيف كانت احوال هذا الوطن في فترة أحس فيها بعجزه عن ...اية سلامه وأمنه، ان أثر ذلك لم يقتصر على المجال السياسي، بل أنه امتد الى حياة كل إنسان على هذه الأرض.... كرامته نفسها أصبحت مكشوفة معرضة... أكاد أصل الى القول باننا أحسسنا بنوع من التآكل الأخلاقي؟ نتيجة إحساسنا بقصور قوتنا عن حماية سلامنا وأمننا، ان كثيرين كانوا يعايروننا بشارع الهرم، والترخص الذي تفشى فيه بعد سنة ١٩٦٧، ناسين ان ذلك كان الوجه الآخر للهزيمة... اذا لم نكن قادرين بالقوة على حماية سلامنا وأمننا ـ اذن فماذا بقي لكي نحرص عليه... كل شيء يصبح بعد ذلك قابلاً للتصدع... قابلاً للتآكل... قابلا للانهيار.

ولولا جهد خرافي في اعادة بناء القوات المسلحة، لكي يستعيد هذا الوطن قدرته على حماية سلامه وأمنه، لسارت الامة كلها على منطق ما تفشى في شارع الهرم، التصدع... التآكل... الانهيار.

٤ـ ان شباب هذا الوطن ـ وهم جنوده ـ هم أبطال العصر بغير جدال، لقد مضت أيام البطولة الأسطورية على القمة، لعليّ واحد من الذين يؤمنون بأن «الأمة التي يظهر فيها البطل الاسطوري هي أمة في مشكلة... وأما الامة التي تنتظر ظهور البطل الاسطوري فهي أمة في محنة»... العصر اذن هو عصر الرجل العادي... بطولة الانسان العادي، وذلك أثبتته لنا حرب أكتوبر، وهذه علامة تحول في حياتنا لا بد ان نتمسك بها.

٥ـ ان الآمال والأعمال والنتائج التي تحققت في حرب أكتوبر، بعد هذا كله لا بد ان تكون مفتوحة، متاحة لأوسع الجماهير، لكي تعرف الحقيقة، وليس عيباً أن يقال اننا حققنا الى هذا المدى... ولكننا حققنا. وليس عيباً أن يقال اننا أخطأنا في هذه النقطة... ولكننا فكرنا وخططنا وقاتلنا ونجحنا بأكثر مما أخطأنا.

٦ـ ثم لماذا لا ننظر الى ما يفعله قادة اسرائيل... ندرسه وليس ضرورياً أن نقلده... انهم يتكلمون ولم يكفوا حتى الآن عن الكلام، ولن يكفوا عنه، لان كلامهم جزء من حربهم بتأثيره على الناس عندهم وعندنا وفي كل مكان.

وقال لي الفريق الأول أحمد اسماعيل.

ـ انني أفهم وجهة نظرك، وربما كنت من أنصار قاعدة «أداء الواجب في صمت»...

واستطرد القائد العام.

ـ لعلك على حق، لعله من الضروري أن يعرف الناس ـ ومن هنا مباشرة ـ لمحات من صورة ما حدث... ان الوقت مبكر لرواية كل التفاصيل... لمحات مما حدث تكفي الآن... ولقد كنت أتكلم معك وفكرة النشر بعيدة عن خواطري... ومن هنا فانك تستطيع ان تختار».

وقلت:

ـ انك في كل ما تحدثت به الي كنت حريصاً، وهذه طبيعة فيك، وحتى ما رويته لي من سر، لم يعد هناك خطر من اذاعته، ولذلك فلقد تأذن لي أن أعيد ترتيب وتركيب الحوار كما دار بيننا وبأكمله تقريباً.

اريد أن أجعل منه شبه محضر دقيق ـ قدر الامكان ـ لما دار بيننا من

حديث. . . انك كنت تتكلم بدون حساب او تحسب لاحتمال النشر على الناس. . . وذلك جعل الحديث اليفا ومفتوحاً وصريحاً، وهذه قيمته التي أحرص على الاحتفاظ بها له. . . واذا وافقت فانني أحاول»

***

سيارة جيب عسكرية تصعد وتهبط على أرض وعرة، وأقول لضابط شاب صحبني فيها الى مركز قيادة العمليات.

ـ كأنني عدت الى أيام شبابي، عندما كانت ميادين القتال البعيدة في العالم عملي»

ثم وقفة أمام تل من الرمال، وفتحة في تل الرمال يظهر داخلها باب حديدي كأنه باب خزانة ضخمة، ثم ممر طويل، ثم سلالم تنزل في الأرض وتنزل، ثم باب حديدي آخر وممر طويل في نهايته باب حديدي ثالث، ثم ينفسح المكان فجأة: قاعات اجتماعات، غرف عمليات، مراكز اتصالات، صالات خرائط، مكاتب،

وأدخل الى مكتب صغير منها، عليه لافتة تقول. «وزير الحربية والقائد العام»، ويلقاني الفريق أول أحمد اسماعيل، ويقول لي ضاحكاً:

كنت تتحدث كثيراً عن التكنولوجيا والحرب. . . تعال لترى غرفة العمليات. . . وقل لي رأيك بعدها».

وذهبنا عبر ممر أمام مكتبه الى باب يفتح مباشرة على غرفة العمليات الرئيسية للقوات المسلحة المصرية.

قاعة كبيرة. . . أضواؤها باهرة. . . الوانها بالخرائط حية، والخرائط ليست ألواناً فقط، ولكنها حركة متدفقة. . . حول القاعة مجموعات تمثل قيادات افرع القوات المسلحة كلها، كل مجموعة وراءها خرائطها وأمامها أدوات اتصالها بكل الجبهات.

.. صدر للقاعة يعلو بمنصة لهيئة القيادة العامة. وزير الحربية والقائد العام، رئيس أركان الحرب، مدير العمليات.

في مواجهة المنصة مجموعة الخرائط الرئيسية التي تمثل الموقف العام، مرسومة على مسطحات من الزجاج بعرض القاعة كلها. الموقف في البر- الموقف في الجو- الموقف في البحر- الوضع على الجبهة السورية.

أجهزة الاتصال تدق، المشاورات تجري بسرعة، الأوامر تصدر مشحونة، لمسات ملونة تضاف على الخرائط المرسومة فوق مسطحات الزجاج، وفقاً لبيانات... الدقيقة... الثانية.

أشعر ان البقاء طويلاً في هذه القاعة فضول لا مبرر له، ثم هو مضيعة لوقت آخرين له نفس قيمة الدم.

وأخرج من القاعة مع وزير الحربية والقائد العام، راجعين الى مكتبه.

***

دار حديثنا في مكتبة على النحو التالي.
هيكل- كان مشهد قاعة العمليات مهيباً... الجو هناك فيه رائحة العصر، وفيه عطره وهذا مطمئن؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل- كان يجب ان ترى هذه القاعة في يوم «ي»- يوم ٦ أكتوبر- وكان يجب ان تراها في ساعة «س»- ساعة الصفر- أي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم.

وقتها كانت تشعر حقيقة ان هذه القاعة لم تكن العصر وحده، وانما كانت تاريخ مصر كله... سوف يبقى ذلك اليوم مشهوداً لمصر وجيشها مهما كان او يكن.

كنا جميعاً في مقاعدنا.

وكانت الخطط أمامنا، والعمليات تجري أمام عيوننا، تحملها الينا البلاغات من الجبهة.

المهمة «كذا» بدأ تنفيذها.

من الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، كان المشهد في هذه القاعة مثيراً الى أبعد حد.

كان العمل دقيقاً بأكثر مما يتصور أحد.

أنا نفسي كنت مأخوذاً بما يجري... اثبتت الخطة كفاءتها... كانت المهام تنفذ بجسارة واقتدار.

كانت هناك لحظات تهز المشاعر الى الأعماق، ولكننا لم نسمح لانفسنا بأي انفعال.

ضربة الطيران الرئيسية الاولى- تمهيد المدفعية ونيرانها الكثيفة- موجات العبور الاولى- عمليات الاقتحام المبكرة لخط بارليف- بداية اقامة الجسور- الجيش الثاني يفرغ من اقامة جسوره في الموعد المحدد- الجيش الثالث يتأخر بعض الشيء بسبب طبيعة الأرض في اتمام اقامة جسوره- الهجمات المضادة للعدو بالدبابات تجيء في الموعد الذي توقعناه في الخطة- جسور الجيش الثالث لا بد من تركيبها بسرعة لكي تعبر الدبابات قبل أن تبدأ الهجمات المضادة للعدو أمام الموجات الاولى التي عبرت بالاسلحة المضادة للدبابات... لا بد ان نكون دباباتها وراءها بسرعة- اعصابنا يجب ان تظل قوية، لان أي ارتباك في مركز القيادة يحدث خللاً في توازن العمليات كلها- العدو يقاوم على الجسور وفي الحصون- قواتنا تواصل تنفيذ مهامها- ابطال من رجالنا يستشهدون على الجسور وأمام الحصون، ولكنهم يعبرون ويقتحمون- خسائرنا أقل مما توقعنا- خسائر العدو أكبر مما توقع.

ليس لدي شك في اننا حققنا انتصاراً كبيراً.

قد أقول لك أنني أعتبر انتصارنا مضاعفاً، لأنني تمكنت بالخروج بقواتي سليمة بعد التدخل الامريكي السافر في المعركة.

قواتي ليست سليمة فقط وقادرة على الحرب، ولكنها ثابتة في مواقعها في الشرق.

كانت سلامة قواتي شاغلي طوال الحرب، كانت ذاكرتي ما تزال تحمل صورة الموقف الذي دخلت اليه في أول يوليو سنة ١٩٦٧، عندما عينت قائداً لقوات الجبهة.

لم تكن هناك جبهة... ولم يكن هناك جيش.

كان كل شيء محطماً ومهلهلاً.

وكان علينا ان نستعد لمرحلة الصمود كما سماها جمال عبد الناصر.

كان علينا ايضاً ان تستعد لحرب الاستنزاف كما سماها جمال عبد الناصر.

ولم يكن العدو يريد أن يعطينا الفرصة لالتقاط أنفاسنا... دخلنا معه بعد أيام قليلة، كما قد تتذكر، في معارك رأس العش.

ذلك كله كان في ذاكرتي.

ربما كان هناك من رأوا انه كان علينا ان نقبل مخاطر أكبر... كنت على استعداد لأي مخاطر، ولاية تضحيات، ولكني صممت باستمرار على هدف رايته أمام عيني وأحسسته في ضميري: المحافظة على سلامة قواتي.

لقد كنت اعرف الجهد الذي اعطته مصر لاعادة بناء الجيش، وكان عليّ ان اوفق بين معرفتي بحجم هذا الجهد- الذي لا يمكن أن يتكرر بسهولة- وبين تحقيق هدفي الحربي. كنت اعرف معنى أن نفقد جيشنا... معناه أن

تستسلم مصر واذا استسلمت مصر فقد ضاعت في هذا الجيل لأجيال لاحقة.

هيكل ـ لقد قفزنا من البداية الى النهاية بسرعة خاطفة... دعنا نعدْ الى البداية مرة أخرى... أريد أن أسمع القصة كاملة بقدر ما يمكن؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ عندما تسلمت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية في شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢، كانت حالة اللاسلم واللاحرب هي الجمود الذي تحجرت به أزمة الشرق الاوسط وعن اقتناع، فقد كنت واثقاً اننا لن نخرج من هذه الحالة الا بالقوة المسلحة... لن تقتنع اسرائيل بغير القوة المسلحة حتى تنسحب من اراضينا العربية المحتلة.

في ذلك الوقت بدأت أفكر... كان شاغلي سؤالاً واحداً:
ـ ما الذي نستطيع عمله...؟

كانت أوجه الاختيار المطروحة أمامي ـ وقد بحثتها وقلبتها على كل جانب ـ ما يلي:

هل نعود الى حرب الاستنزاف؟

كان رأيي ان حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها في الفترة التي جربناها فيها، ثم أن اسرائيل لن تقبل بالعودة اليها، وأي محاولة من جانبنا لذلك سوف تواجه من اسرائيل برد فعل أقوى.

ومعنى ذلك انني كنت أمام احتمال أن أقوم بعمليات صغيرة وأتلقى فيها من العدو رد فعل كبير... أكبر بكثير من قيمتها السياسية والعسكرية.

وهكذا استبعدت حرب الاستنزاف.

بقي أمامي أن أفكر في جهد أكبر... عمل أوسع وأشمل... يساوي

على الأقل أن نقبل ازاءه رد فعل كبير من العدو.

أي: لتكن ضربتنا ضد العدو كبيرة، ولنكن مستعدين لضربة من العدو كبيرة، وهذه الضربة من العدو سوف تكون كبيرة على أي حال مهما كانت ضربتنا له محدودة.

واذن فلتكن ضربتنا ضده أقوى ما نستطيع توجيهه.

كذلك كانت تصوراتي الاولى .

وفي وقت لاحق لتولي القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية تم الاتفاق على مستوى دولة الاتحاد، أن أتولى قيادة القوات المسلحة لدولة الاتحاد.

وأضاف ذلك الوضع الجديد الى تفكيري اعتباراً ثانياً:

كان الاعتبار الاول: أن تكون ضربتنا كبيرة.

وجاء الاعتبار الثاني وهو:

أن تكون ضربتنا مشتركة من جبهتين.

وتكونت في ذلك الوقت جماعة تخطيط، وضعت أمامها تصوراتي عن العدو وعنا.

كان تقديري بالنسبة للعدو انه يملك أربع ميزات أساسية:

- تفوقه الجوي.
- مقدرته التكنولوجية.
- تدريبه الدقيق.
- اعتماده على معاونة سريعة من الولايات المتحدة الامريكية، تكفل له امداداً مستمراً.

ولكن هذا العدو كانت له عيوبه الأساسية الى جانب ميزاته الأساسية:

● خطوط مواصلاته طويلة كما ان هذه الخطوط على الجبهات المتعددة ممتدة يصعب الدفاع عنها.
● أوضاعه البشرية لا تسمح له بتحمل خسائر كبيرة.
● ظروفه الاقتصادية تمنعه من قبول حرب طويلة.
● ثم هو عدو اصابه الغرور

كان ذلك بشكل عام تقديري للعدو، وكان علينا أن نحاول قدر ما نستطيع تلافي نقط امتيازه واستغلال نقط ضعفه.

ولست اريد أن أدخل في تفصيل كل ما فعلناه لتحقيق هذا المنطق.

سوف أركز على نقطة واحدة ولعلها تشرح هذا المنطق، ثم لعلها تدل عليه.

لقد اخترت مثلاً أن يكون هجومنا على كل المواجهة... على خط يمتد ١٨٠ كيلو متراً، هي طول القناة من بور سعيد في الشمال الى السويس في الجنوب.

وكان ذلك في اطار منطق تلافي نقط امتيازه، لأن الهجوم على طول المواجهة بهذا الشكل سوف يفرض على العدو ما يلي:

١ـ سوف يكون مرغماً على توزيع ضرباته الجوية المضادة على قواتنا.
٢ـ بسبب هذا التوزيع، فان هذه الهجمات المضادة في كل مكان، سوف تكون ضعيفة في كل مكان، لان المواجهة متسعة.
٣ـ بسبب هذا الاتساع، فان العدو لن يستطيع مبكراً اكتشاف اتجاه المجهود الرئيسي لقواتنا المهاجمة، وبالتالي فانه لن يستطيع التركيز عليه.

وعلى سبيل المثال فلقد تصورنا، وخططنا، ونفذنا بالفعل عندما بدأت

العمليات مجموعة كبيرة من الكباري ورؤوس الكباري وكان مانفذنا أكثر مما كنت احتاجه فعلاً، وكنت مستعداً لاحتمال تدمير بعضها ولكنها جميعاً نجحت وفشل العدو في تدمير أي منها.

٤ـ بسبب هذا الاتساع مرة أخرى، فان العدو سوف يتأخر في رد فعله بالهجمات المضادة على الارض، لانه سوف ينتظر لكي يكتشف اتجاه المجهود الرئيسي لقواتنا وبعده يتحرك.

هكذا بدأ تفكيرنا. . . وثبت عند بد 'عمليات انه كان سليماً

هيكل ـ سوف اعترضك هنا بسؤال: هل تعتقد ان العدو اكتشف نوايا الهجوم قبل أن يبدأ بساعات. . . انني سمعت ان ذلك حدث فعلاً. . . حدث فعلاً في الصباح الباكر من يوم ٦ أكتوبر ان المخابرات الاسرائيلية تاكدت من نية الهجوم لدينا، واتصلت الحكومة الاسرائيلية بالحكومة الامريكية تبلغها بذلك.

فهمت ان السفارة الاسرائيلية في واشنطن ايقظت الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية في الساعة السادسة صباحاً بتوقيت واشنطن، أي الواحدة بعد الظهر بتوقيت القاهرة ـ قبل ساعة الصفر بساعة كاملة ـ وأبلغته بمعلومات لدى الحكومة الاسرائيلية بهجوم سري وشيك.

في الساعة السادسة وثلاث دقائق اتصل الدكتور كيسنجر بادارة المخابرات المركزية الامريكية وسأل عن تأكيد لهذه المعلومات، ويبدو أنهم أكدوها له من مصادر أخرى نقلتها اليهم قبل دقائق.

وفي الساعة السادسة وسبع دقائق اتصل الدكتور هنري كيسنجر بالرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون. . . ايقظه من النوم وأبلغه. . . ويبدو أن التقديرات الاولى كانت تشير الى أن الحشود واحتمالات الهجوم هي من آثار التوتر السائد في المنطقة، ومن احساس كل طرف من الطرفين بأن الآخر

يستعد للتحرش به، وهكذا اتصل الدكتور هنري كيسنجر في الساعة السادسة وعشر دقائق بوزير الخارجية المصرية، وكان في نيويورك وقتها، وأبلغه على التليفون بما وصلهم من معلومات وأكد له- اذا كانت الحشود المصرية تحسباً لهجوم اسرائيلي محتمل- فأن اسرائيل لا تنوي ان تهاجم، وانه لمصلحة الجميع ان يضبطوا اعصابهم.

كل ذلك كان قبل ساعة... أو ساعة تقريباً من ساعة الصفر.

وسؤالي هو: هل احسست مما كان أمامك في ميدان القتال أن العدو احس؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل- أمامنا في ميدان القتال أحسست بأن المفاجأة بالنسبة لهم كانت كاملة.

لقد كانت لهجة التبليغات من المواقع الاسرائيلية المتقدمة الى قياداتها توحي كلها بالمفاجأة الكاملة.

كانت هذه التبليغات تحمل عصبية لا تصنعها غير المفاجأة.

وفي الحقيقة فأن المنظر الذي رأوه امامهم بعد المفاجأة الاولى كان منظرا مخيفا من وجهة نظرهم... عظيما من وجهة نظرنا.

وقد بدأوا يضربون ضربات طائشة... ثم بدأت هجماتهم المضادة مرتبكة... ثم أخذوا يتمالكون اعصابهم ويردون... لكن قواتنا كانت تتدفق من الغرب على الشرق... وفي الساعات الاولى من القتال لم تكن الدبابات قد دخلت وان كانت قد دخلت عناصر مضادة للدبابات انتظاراً لهجمات العدو المضادة على قواتنا التي لم تكن دروعها قد لحقت بها بعد...

لكن كل شيء كان يسير وفق ما قدرناه... وربماأحسن مما قدرنا.

كنا على استعداد لخسائر في العبور كبيرة لأنه كان علينا ان نقتحم

طريقنا مهما كان الثمن. . ولقد ضحينا ولكن تضحياتنا كانت أقل مما قدرنا لأن الانسان المصري كان في هذه الساعات الحاسمة على مستوى احساسه بتاريخه وعلى مستوى أمله في مستقبله.

هيكل- لقد قاطعتك بهذا السؤال عن المفاجأة. . . هل نعود الى السياق الذي كنت تتحدث به. . . لقد تكلمت عن العدو وعن تصوراتك ازاءه وهذه التصورات أخذت اعتبارها في التخطيط. . . ماذا عن ناحيتنا نحن. . عن قواتنا؟

الفريق أول أحمد اسماعيل- كانت المشكلة بالنسبة لقواتنا ان الظروف فرضت عليها ان تعيش ست أو سبع سنوات في الدفاع. . . معظمها في الدفاع الجامد. . . والقوات على هذا النحو، أي قوات في الدنيا، معرضة لما نسميه في العسكرية «بمرض الخنادق».

كان لا بد ان نتخلص من تأثير مرض الخنادق وعقده.

وركزت في تلك الفترة على مجموعة ضرورات رأيت اننا بغيرها لن نستطيع عمل شيء. . . أي شيء.

● أولى هذه الضرورات ان تقتنع القوات بأنه لا مفر من القتال. . . ولا حل بدونه.

وقمت بزيارات للقوات المسلحة في مواقعها أشرح الظروف للرجال وأقول لهم ان الوضع الذي نحن فيه لا بد من تغييره واذا لم نغيره نحن فإن العدو قد يفرض علينا التغيير، ومعنى ذلك اننا اذا لم نبدأ بالقتال فان العدو سوف يبدأ هو بالقتال لان حالة اللاسلم واللاحرب غير مقابلة للاستمرار الى ما لا نهاية.

وكانت الثانية بين الضرورات أن يأخذ الرجال ثقة في سلاحهم وكنت

اريد تغيير المفهوم القديم، بأن الرجل بالسلاح، والحقيقة ان السلاح بالرجل. . . اذا لم يكن واثقاً من نفسه فلن يحميه أي سلاح واذا كان واثقاً فان كل سلاح في يده يحميه.

ربما نستطيع ان نفهم ذلك في التطبيق العملي اذا تذكرنا ان طائرة من طراز ميج ١٧ تمكنت أثناء القتال من اسقاط طائرة فانتوم وهذا ما أقصده بأن السلاح بالرجل. . . وليس الرجل بالسلاح.

وكانت الثالثة بين الضرورات وهي تتصل بذلك مباشرة: أن يكون التدريب تدريباً كثيفاً. اذا كنت أقول ان السلاح بالرجل، فذلك يعني أول ما يعني قدرة الرجل على استيعاب سلاحه والسيطرة الكاملة عليه.

وكانت الرابعة بين الضرورات ان اجعل قوات أدركت حتمية القتال، وعرفت قيمة سلاحها، وأحسنت التدريب عليه- ترى رأي العين ما سوف تواجهه وتكسر الرهبة ما بينها وبينه.

وهكذا بدأت اختار للتدريب ميادين قريبة الشبه الى اقصى حد بظروف وطبيعة المهمة التي سوف تقوم بها القوات واولاها عبور القناة!.

اخترنا مناطق التدريب فيها مجار مائية بعمق القناة تقريبا وعليها سواتر بارتفاع سواتر القناة.

وفيها تيارات بقوة تيارات القناة.

بل اننا في بعض المرات اجرينا تدريباتنا على القناة نفسها في منطقة كانت القناة فيها تمتد في فرعين، احدهما الى ناحيتنا وكان تحت السيطرة الكاملة لقواتنا.

في ذلك الوقت كانت الخطة العامة لما سوف نقوم بها تختمر . . .

تتبلور. . تظهر ملامحها شيئا فشيئا بالدراسة المستمرة والتطوير الدؤوب».

هيكل- هناك سؤال سوف يظل مطروحا لمناقشات طويلة عندنا وعندهم. . ناحيتنا وناحية العدو، كنا نقول اننا لا نستطيع ان نكتم سرا، وكنا نتصور ان العدو من ناحيته يستطيع اختراق اي سر . . كيف فاتهم ان يروا ما كان يحدث؟».

الفريق اول احمد اسماعيل- في كل حرب هناك خطة العمليات وهناك خطة الخداع، واعتقد اننا نجحنا فلقد وضعنا خطة الخداع على المستوى الاستراتيجي والتعبوي ووضعت لها توقيتات وجداول سارت جنبا الى جنب مع خطة العمليات وتوقيتاتها وجداولها.

سوف اتحدث اليك بعد قليل عن العوامل التي دفعتنا الى اختيار يوم «ي» يوم بدء العمليات، والى اختيار ساعة «س» ساعة الصفر او ساعة بدء العمليات.

لكني الان اقول لك اننا وصلنا في الكتمان الى درجة ان يوم «ي» لم يكن معروفا بعد تحديده مبدئيا الا من اثنين: الرئيس وانا .

وحتى عندما بدأنا العد التنازلي من يوم «ي» بالناقص، وكان ذلك قبل شهر من بدء العملية، ي ناقص ٣٠، ي ناقص، ٢٩، ي ناقص ٢٨، وهكذا فان السر ظل محصورا.

وعندما بدأنا الحشد وانا اعرف ان العدو يستطلع كل يوم فلقد كنت ادفع الى الميدان بلواء مثلا. . واعود في الليل بكتيبة لكي يشعر العدو ان القوات التي ذهبت كانت في مهمة تدريب ادتها وعادت منها.

ولقد أخرت ارسال معدات العبور الى اقصى حد ممكن فقد كان مؤكداً ان خروج هذه المعدات من مخازنها كفيل بتنبيه العدو الى نوايانا، ولقد صنعنا لبعض هذه المعدات صناديق خاصة لا يشعر أحد أن اللواري الضخمة التي تحملها لواري مهندسين. ثم رتبنا لهذه المعدات حفراً على جانب القناة نزلت اليها فور وصولها في الليل.

كانت الخطة خلال هذا كله بالطبع قد اكتملت الى آخر التفاصيل. . . بل الى تفاصيل التفاصيل وكان ذلك طوال الوقت بالتنسيق مع سوريا.

وقبل أيام قليلة من يوم «ي» كانت تفاصيل الخطة تنزل من قادة الجيوش الى قادة الفرق، ثم قادة الالوية، ثم قادة الكتائب.

بعض الجنود من طلائع الهجوم عرفوا قبلها بثمان وأربعين ساعة، وبعضهم عرفوا في الصباح يومها.

ولقد تتذكر اننا تعمدنا تسريب انباء تصرف الانظار تماماً عن نوايانا.

اذعنا مثلاً ان وزير دفاع رومانيا قادم في زيارة لي يوم ٨ أكتوبر.

طلبنا منكم في «الاهرام» مثلاً نشر خبر بأنني فتحت الباب لقبول طلبات الضباط والجنود الراغبين في أداء العمرة»

هيكل ـ لقد كانت هذه مرة من مرات قليلة نادرة نشر فيها «الاهرام» خبراً غير صحيح. . . لكني رضيت بنشره عارفاً القصد منه ولقد قبلنا «للأهرام» ان يكذب لأننا تمنينا لعمليتك ان تصح».

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ لقد كنت واثقاً انك سوف تبلعها وتسكت. المهم في كل ما قلت ان التخطيط لعملية الخداع الاستراتيجي كان على مستوى رفيع وناجح.

هناك مسألة أخرى لا بد ان أشير اليها الآن قبل أن أدخل معك في تحديد يوم «ي» وفي تحديد ساعة «س».

هذه المسألة هي انني أحسست مع تقدم مراحل التخطيط بأنه يتحتم علينا أن نقوم بعمليتنا من قاعدة وطيدة، وقد احسست ان دفاعاتنا في القناة ينقصها التحصين الكافي وهكذا بدأت أبني دفاعاتنا استعداداً للهجوم.

كان علينا ان نبني ونرفع مواقع قادرة على التحكم في الشاطىء الغربي للقناة وفي الشاطىء الشرقي ايضاً.

كان خط بارليف أمامنا يكشف مواقعنا.

ورحنا كما قلت لك نبني ونرفع ونكشف الضفة الشرقية ونتحكم فيها، وكان ذلك عملاً صعباً، غالياً في تكليفه ولكنه كان ضرورياً حتى أستطيع مساعدة قواتي وهي تعبر من الغرب الى الشرق، ثم حتى استطيع حماية قواتي للحشد واخفاءها قبل التقدم لمفاجأة العبور.

كان ذلك يعطينا ثباتاً في المواقع، ثم انه كان يعطينا ميزة فيما لو احسّ العدو بنوايانا وحاول القيام بضربة احياط أو بضربة إجهاض. . . كان ذلك يمكننا من صده وتدميره».

هيكل- هل تنتقل الى عوامل تحديد يوم «ي» وتحديد ساعة «س»؟

الفريق أول أحمد اسماعيل- لقد كان تحديد يوم «ي» عملاً علمياً على مستوى رفيع وحين نطرح وثائقنا كلها للدراسة التاريخية فان هذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير وسوف يدخل التاريخ العلمي للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الامين.

كان لا بد ان يتحرك الموقف من وجهة نظر التقدير السياسي سنة ١٩٧٣ بعد وصول التأييد العربي والعالمي لنا في كل المجالات الى الذروة العالية التي لا مجال بعدها لاضافة الا اضافة نصنعها نحن بقوة السلاح.

هذا من وجهة نظر عامة:

ومن ناحية التحديد فقد كنا نريد ما يلي:

١- ليلة مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا في الساعات الحاسمة.

٢ـ ليلة يكون تيار القناة فيها مناسباً للعبور من ناحية السرعة.
٣ـ ليلة يكون عملنا فيها بعيداً عن توقعات العدو.
٤ـ ليلة لا يكون فيها العدو نفسه مستعداً للعمل.

هذه الميزات حددت لنا يوم ٦ أكتوبر من قبلها بشهور.

١ـ الحسابات الفلكية تعطينا في تلك الليلة قمراً ينمو في أول الليل ثم يغيب في آخره.

علماؤنا في القوات المسلحة درسوا تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سبقت لكي يحسبوا سرعة التيارات في كل يوم من أيام السنة وكان يوم ٦ أكتوبر أكثرها مناسبة.

٣ـ العدو لا يتوقع منا العمل في شهر رمضان.
٤ـ العدو مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التي تشد اهتمام الجميع.

لقد كان شهر رمضان هو الذي اوحى لنا باختيار الاسم الرمزي لعملية الهجوم.. كان الاسم الرمزي هو «بدر» تيمنا بغزوة بدر.

كان الرئيس من وجهة نظره السياسية يسميها عملية «الشرارة». وأما الاسم الرمزي في كل خططنا العسكرية فقد كان «بدر».

ذلك ما أستطيع قوله الآن عن تحديد يوم «ي»

وأما عن تحديد ساعة «س» ـ فقد ظل الموعد الى أيام قبل بدء القتال موضوع مناقشة بيننا وبين اخواننا في سوريا

كان السوريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس معهم وضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء في الفجر.

وكنا نحن ـ لعدة أسباب من بينها الى جانب اتجاه الشمس، وضرورات العبور ونصب الكباري وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات في ظلام الليل ـ نفضل العمل في آخر ضوء في المساء.

وكنت بوصفي قائداً عاماً للجبهتين قد بعثت الى السوريين يوم ٢٠ سبتمبر باشارة التحذير بان العملية محتملة في أي وقت ـ رهناً باشارة تقول: «بدر».

وسافرت بنفسي يوم ٢ أكتوبر الى سوريا وتناقشنا حول الساعة وبعد دراسة تفصيلية صدق عليها الرئيس حافظ الاسد تحددت الساعة الثانية بعد الظهر موعداً «لساعة س».

وعدت من سوريا فقصدت الى مركز قيادة العمليات وبقيت هناك لم أخرج لعدة أيام... كان اول يوم رأيت فيه الشارع بعدها هو اليوم الذي ذهبت فيه مع الرئيس الى مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر».

هيكل ـ لم نصل بعد الى ٦ أكتوبر هل نعود الى ٥ أكتوبر... وتأذن لي ان أسألك ماذا كان شعورك؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ كان شعوري مزيجاً من أحاسيس كثيرة ولكني استطيع ان أقول انني كنت متفائلاً... كنت قد ناقشت الخطة مع القادة... قمت بتدقيقها ـ كما يقولون في التعبير العسكري... مع الذين سوف يقومون بتنفيذ مهامها.. ذهبت بنفسي الى الجيشين الثاني والثالث المكلفين بالهجوم وأحسست ان القادة على كل المستويات مقتنعون بما كلفوا به من مهام.

كان اقتناعهم بالنسبة لي أهم من مجرد اطاعة الأوامر.

كنت ايضاً قد رأيت تجارب تثبت قدرة الانسان المصري على الابتكار وعلى مواجهة المواقف الصعبة.

كانت هناك معالجات وابتكارات جديدة في صنع كباري العبور.

كانت هناك معالجات وابتكارات جديدة في عملية فتح الساتر الترابي. . . كنا في تجاربنا لفتح هذا الساتر الترابي على القناة قد جربنا المدافع بكل العيارات فلم تحقق ما نرجوه، وجربنا المفرقعات بكل الوسائل فلم تحقق ما نرجوه ثم جربنا اندفاع الماء بقوة فتحقق لنا ما نرجوه واستقر رأينا على الماء ولم نأت بالمعدات اللازمة لذلك ـ نأخذ الماء من القناة ونوجهه بقوة قذف جبارة الى السواتر الترابية فاذا هي تنهار ـ الا في آخر لحظة حتى يظل سرنا مأمّن.

كانت هناك معالجات وابتكارات جديدة في فتح الثغرات واقتحام المواقع الحصينة.

فوق ذلك كانت هناك ثقتي بالضابط والجندي المصري. . .

لم تكن ثقتي غيبية ولكنها كانت ثقة علمية. . . كنت أعرف ان كليهما ـ الضابط والجندي ـ اذا كلف بمهمة اقتنع بها واذا حمل سلاحاً وثق فيه واذا أحس انه جزء من جهد كبير يعرف لنفسه هدفاً ـ فانه لن يتوقف قبل بلوغ هذا الهدف.

لو انك رأيت اندفاعهم.
لو انك رأيتهم بالاعلام في أيديهم يعبرون الجسور وسط النار.
لو انك رأيتهم يقتحمون المواقع الحصينة بأجسادهم قبل سلاحهم.

لو انك رأيت هذا كله لأدهشك. . . أعود معك الى يوم ٥ أكتوبر. . . كانت مشاعري كما قلت مزيجاً من أحاسيس كثيرة وأتذكر ان الرئيس جاءنا يومها في مركز القيادة وأتذكر اننا سوياً هو وأنا وجميع القادة من اعضاء المجلس الاعلى للقوات المسلحة تعاهدنا أمام الله بان كلاً منا سوف يبذل قصارى جهده.

كانت هناك عمليات تجري في ذلك اليوم ولكنها كانت تجري في صمت.

كانت هناك دوريات تسللت في هدوء لنظرة استكشاف أخيرة على النقط الحصينة وما وراءها من خط بارليف.

كانت هناك جماعات دفعت لقص الخراطيم التي كان مفروضاً طبقاً لخطة العدو ان تحمل كميات هائلة من السولار وتلقيها في القناة لكي تشتعل بالنار عند الاحساس بأول هجوم ولتكن من هذه النار اول عقبة ضد العبور خصوصا بقوارب المطاط.

لقد قصوا الخراطيم ولم يتنبه العدو الى أن ذلك جزء من مخطط أكبر.

اكتشفوا قص الخراطيم في أحد المواقع وجاءوا بمهندس لاصلاحه وكان هذا المهندس ما زال يقوم بعمله عندما وجد قواتنا فوق رأسه وكان واحداً من أول الاسرى في أيدينا.

وجاءت ساعة «س» ساعة الصفر.

وبدا كل شيء يتحرك وفقاً للخطة.

ضربة الطيران الرئيسية: مائتا طائرة تقوم بالضربة الاولى على مواقع العدو الحساسة في الجبهة المصرية، ومائة طائرة تقوم بالضربة الاولى على الجبهة السورية.

تمهيد هائل بالمدفعية: الفا مدفع تهدر في نفس الوقت على أربع قصفات متلاحقة...

موجات الهجوم الاول: فجأة وجد العدو أمامه ثمانية آلاف رجل ينزلون الى قوارب المطاط وغيرها من الوسائل ويبدأون العبور تحت النار.

العدو يقاوم من النقط الحصينة لخط بارليف على طول القناة، والدبابات الرابضة في مكامنها بجانب النقط الحصينة وأوكار المدفعية التي تعززها تشارك في صد موجات الهجوم الاولى.

جنودنا يصلون الى النقط الحصينة برغم كل مقاومة... بعض النقط الحصينة عنيدة في دفاعها ولكن جنودنا يقتحمون والمعارك بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية داخل الحصون.

كانت أصعب اللحظات بالنسبة لي هي الساعات التي سبقت دخول الدبابات خصوصاً في قطاع الجيش الثالث.

ان الجيش الثاني نصب جسوره وأخذ دباباته وراءه في الوقت المحدد.

أما في قطاع الجيش الثالث فقد اكتشفنا ان الساتر الترابي أعمق مما قدرنا...

كان في بعض المواقع بعرض مائتي متر ولم تكن الارض صالحة لنصب كباري العبور لكن المهندسين كانوا في أعظم لحظات حياتهم ولقد بعثت مدير سلاح المهندسين بنفسه الى مواقع جسور الجيش الثالث وطلبت منه اتمام المهمة بأي ثمن وأتمها وأستشهد نائب مدير سلاح المهندسين على أحد جسور العبور.

قواتنا البحرية تتحرك لضرب أهداف حيوية للعدو على شاطىء البحر الابيض وعلى شاطىء البحر الأحمر.

قواتنا الخاصة تنزل وراء خطوط العدو في عمق سيناء لتضرب خطوط امداده ولتعطل هجماته المضادة وتعرقلها.

التدفق من الغرب الى الشرق مستمر في نفس الوقت.. لا يتوقف ولا ينقطع.

في أربع وعشرين ساعة
كانت لدينا في الشرق خمس فرق كاملة.
ذلك شيء لم يحدث مثله من قبل تاريخ الحروب.

وبدأت قواتنا في توسيع وتعميق وضم رؤوس الكباري ليصبح لنا ثلاثة رؤوس اساسية فقط، وفي نفس الوقت فلقد كانت أول مهمة باشرناها - وهذه من مفارقات المعركة - أن نبدأ بعملية نسف مواقع خط بارليف وأن نزيلها من مكانها والى الأبد محتفظين بواحدة منها للعبرة والذكرى... في أول يوم دمرنا ١٤ موقعاً وفي اليوم التالي تسعة وهكذا حتى تحولت النقط الحصينة، حلم اسرائيل في الأمن المطلق، الى انقاض وركام.

هيكل- اريد أن أسألك، وقد تأذن لي أن أكون صريحاً، عن السبب الذي من أجله لم يجر تطوير هجومنا الشامل بالسرعة الواجبة في رأي بعض الخبراء... ان هذا البعض من الخبراء يرون ان النجاح الهائل لعملية العبور لم يجر استغلاله بسرعة وهناك تساؤلات كثيرة في هذا الصدد.

هل كان تخطيطنا المسبق لافتتاحية العبور العظيمة وحدها؟
هل لم نستطع ان نرى الفرصة المتاحة لنا؟
هل كنا أكثر بطئاً مما يجب... أو ماذا حدث بالضبط؟

الفريق أول أحمد اسماعيل - ان هذه الاسئلة كلها يجب ان تطرح وليس هناك ضرر في رأيي من طرحها، وان كانت الاجابة الكاملة عليها لا بد من أن تنتظر الى وقت نكون فيه أكثر احساساً بالامان حتى نفتح اوراقنا ونطرح صورة الوقائع كلها لبحث مستفيض، أثق اننا لا بد أن نأخذ منه دروساً مستفادة.

لكني أريد أن أجيب بسرعة على بعض هذه التساؤلات.
وسوف آخذ النقط التي أثرتها في سؤالك واحدة بعد واحدة:

● هل خططنا للعبور وحده؟ بالطبع لا...

لقد كانت لدينا خطة أوسع بكثير، وكان لا بد أن تكون لدينا خطة أوسع بكثير، لان الحرب حوار بين تخطيط وتخطيط... قوة نيران وقوة نيران... مقدرة حركة ومقدرة حركة.

وليس معقولاً ان تكون لدينا خطوة واحدة نتعطل بعدها فلا نعرف كيف نواصل الحوار بالتخطيط وبالنيران وبالحركة.

بالطبع فان عملية العبور أخذت جزءاً كبيراً من اهتمامنا، لانها كانت المدخل، ولانها كانت خطوة درسنا كل تفاصيلها، لاننا عرفنا اننا سنبدأ بها، وهذه ميزة الأخذ بزمام المبادأة.

ما يجيء بعد ذلك؟... احتمالات متعددة مدروسة.

وقد حسبناها الى أقصى حد، ولكن الامر في النهاية كان يتوقف على ما سوف يقوم به العدو، وبالتالي فان خطة العبور كانت خطة كاملة الى النهاية. وكان ما بعدها قد شمله التخطيط ولكن اختيار الاحتمالات كان متوقفاً على رد فعل العدو.

● هل لم نستطع رؤية الفرصة؟

ان الموضوع بالنسبة لي لم يكن مسألة فرص، وانما كان مسألة حسابات، ومهما وجدت من فرص تبدو متاحة أمامنا فقد كان عليّ ان لا أغامر...

اننا بدأنا العملية في حماية شبكة الصواريخ الشهيرة،

واذا كان عليّ أن أتقدم بعدها، فقد كان لا بد ـ سواء كانت هناك فرص يراها غيري حتى اوأراها بنفسي ـ ان أنتظر حتى أتأكد أن قواتي وراءها

الحماية الكافية... كان لا بد ان أعطي الفرصة لمدرعاتي بالدخول وكان لا بد أن أعطي الفرصة لصواريخي المتحركة المضادة للطائرات بالدخول.

ان قواتنا الجوية قامت بعمل بطولي.

ولكن لو أني دفعت بقواتي وراء الفرصة المتاحة التي يتحدثون عنها، ولم تكن دفاعاتي ضد تفوق العدو الجوي جاهزة، لكان معنى ذلك انني القي العبء كله على الطيران، وأحمله بما لا يطيق، في وقت أعرف فيه ان الساعات الصعبة ما زالت أمامنا.

● هل كنا ابطأ مما يجب؟ لا أعرف... ما أعرفه هو أنني التزمت بالتخطيط... كان التخطيط... الخطة الاصلية اقصد، يقتضي وقفة تعبوية بعد اتمام اللعبور، وبعد تأمين رؤوس الجسور... وقفة أعيد فيها تقدير الموقف على ضوء رد فعل العدو، وأتأهب للخطوة التالية، واتخذ لها احتياطاتها الكافية وأتقدم.

ان الوقفة التعبوية لم تكن فترة سكون، ولكنها فترة تقبل لهجمات مضادة من العدو وتدميرها، وربما لا ننسى أننا في فترة تقبل الهجمات المضادة للعدو وصدها دمرنا له خمسمائة دبابة، وليس ذلك بالشيء القليل.

ومع ذلك، ولست أظنني بذلك أذيع سراً لا يعرفه العدو، فاننا اضطررنا الى القيام بهجوم واسع بأسرع من الوقت المناسب وكان هدفنا من ذلك تخفيف الضغط على سوريا، ولقد حدثت معارك ضخمة بالمدرعات وكانت هذه المعارك خارج نطاق الصواريخ، وحينها أحسست اننا اضطررنا العدو الى سحب جانب من قواته العاملة على الجبهة السورية الى جانب تحويله لمجهود طيرانه من هناك الى جانب اسراعه بالاحتياطي الى ناحيتنا ـ فانني فضلت العودة الى رؤوس الجسور، نواصل تدعيمها، ونجعل منها صخرة تتحطم عليها الهجمات المضادة للعدو».

هيكل- سوف أسأل مرة أخرى، ولعلك تقبل مني الحاحي... هل كنا تقليديين أكثر مما يجب؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل- أريد أن أسألك هل كان تخطيط وتنفيذ عملية العبور التي رأيت وسمعت بنفسك تقدير خبراء العالم لها... هل كان ذلك عملاً تقليدياً... ان الذين سمعوني أتحدث الى القوات عرفوا ان أكثر ما كنت أحذر منه هو أن نكون تقليديين.

لم أكن أريد أن نكون تقليديين... وفي نفس الوقت فلم أكن اريد أن نكون مغامرين.

الحرب قضية أكبر بكثير من المغامرة...

هيكل - سوف أسألك اذن عن الثغرة... كيف حدثت؟... لماذا سمحنا بحدوثها؟... لماذا تضاربت البيانات الرسمية حولها؟.. لماذا هونا من أمرها على النحو الذي هونا به، فقلنا في البداية انها سبع دبابات تسللت بالليل، ثم قلنا اننا حرقنا معظمها، ثم قلنا اننا انذرنا الباقي بالاستسلام أو بالدمار... ثم فجأة بدأت بياناتنا تتحدث عن القتال على ضفتي قناة السويس؟

هنا مسألة عسكرية

هنا أيضاً مسألة نفسية... واعلامية.

ان العملية من الناحية العسكرية بدت صدمة لانتصارنا.

ثم أنها من الناحية النفسية بدت صدمة لثقتنا فيما يقال لنا؟

الفريق اول أحمد اسماعيل - سوف أبدأ بالنقطة الثانية، وأسلم معك على طول الخط بان علاجنا لهذه الثغرة من ناحية البيانات لم يكن على النحو الذي تمنيته والتزمت به من أول لحظة في الحرب، وهو ان لا نقول غير الحقيقة.

وأريدك أن تعرف على الفور انني لم أقصد في أي لحظة ان أقول فيما يتعلق بهذه الثغرة ـ أو أسمح لغيري أن يقول ـ شيئاً غير الحقيقة.

ومعنى ذلك ان ما قلناه عكس في معظم الاحيان صورة ما كنا نراه. . .

وأعترف أن رؤيتنا للصورة كانت مهتزة لاسباب عديدة، ولكننا حاولنا أن نعبر عما نراه.

لقد كنت أعرف من البداية ان جزءاً كبيراً من نجاح الحرب يرتهن بثقة الناس في صدق ما نقوله عن حقيقة ما نفعله، ولهذا فانني طلبت التزاماً دقيقاً في صياغة البيانات.

وكانت هناك شكاوى عديدة تصل الي من قلة البيانات الرسمية، ومن قلة المعلومات التي تذاع عن المعارك، ولكني وضعت قاعدتين:

● **الاولى**: ان نقول ما نستطيع قوله مما لا يكشف خططنا وأوضاعنا للعدو ـ وربما كنا متزمتين في ذلك بعض الشيء، ولكن التزمت كان في رأيي أفضل من التسيب، خصوصاً اذا كان الامر متعلقاً بالحرب.

● **والثانية**: هي ان ما نقوله يجب أن يكون صادقاً. . . ولكي أكون صريحاً معك، يجب أن يكون قريباً من الصدق.

هذا عن الناحية النفسية في علاج الثغرة.

أعود الى الناحية العسكرية، وأقول بصراحة أيضاً ان صورة ما جرى فعلاً كانت مهتزة أمامنا لعدة اعتبارات.

كانت المعلومات الاولى التي تلقيتها عن العملية، وقد وجدتها في انتظاري بعد ان عدت من جلسة مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر، تشير الى اعداد صغيرة متسللة من الدبابات البرمائية، وكان تقدير قيادتنا المحلية في

موقع التسلل ان القضاء عليها بسرعة أمر ممكن، وبالفعل فان القائد المحلي حرك كتيبة صاعقة لمواجهتها.

كان هذا سبباً.

سبب آخر هو أن المعلومات تقطعت نتيجة اعتبار يتصل بتبادل في المسئوليات أجريناه لظروف طارئة في بعض القيادات

سبب ثالث ان العدو استطاع ان يخفي دباباته المتسللة في منطقة الثغرة، وهي منطقة حدائق فاكهة، ساعدت على التخفي في المراحل الحرجة من بداية عمليته.

سبب رابع هو ان العدو استمات في فتح هذه الثغرة، ذلك انه ألقى بثقله كله فيها، وكان على استعداد لتحمل أية خسائر لتحقيق هدفه، وربما كان يريد ارغامنا على أن نسحب من قواتنا في الشرق ما نواجه به عمليته في الغرب، وذلك ما لم اكن اريده، وربما قلت ان لدي من الشواهد ما يؤكد لي ان العدو فشل في محاولة اولى لفتح الثغرة وكاد يعدل عنها، وكان ذلك عندما اذعنا اننا دمرنا قواته المتسللة ولكنه عاد بعد ذلك في مجهود اخير ادرك انه لو نجح فيه فانه سوف يحدث بنجاحه اثرا نفسيا عليه وعلينا وعلى العالم يفوق القيمة العسكرية لهذا العمل.

هناك سبب خامس، قد أكدته ملابسات الوقائع فيما بعد وهو أن العدو كان يعرف أن قرار وقف اطلاق النار سوف يصدر، وبالتالي فان هذا القرار وسريانه سوف يكون عنصر تأمين له في مغامرة محفوفة بالمخاطر قام بها ولم يكن في استطاعته بسبب انتشار قواته في الغرب وبسبب تبعثرها المقصود لاثره النفسي كحرب عصابات بالدبابات ان يحتفظ بها لوقت طويل.

ويتصل بهذا السبب الخامس ان العدو لم يأخذ قرار وقف اطلاق النار المنتظر كعنصر تأمين لعمليته فقط، ولكنه كما رأينا استغله بعد حدوثه لكي

يجعل موقفه في الثغرة قابلاً للاستمرار ولم يكن هذا الموقف قابلاً للاستمرار الا بتضحيات رهيبة يدفعها لو ان القتال استمر.

ولقد كان قبولنا لقرار وقف اطلاق النار عملية تتصل بأسباب اوسع وموازين أكبر من عملية الثغرة.

ولقد استغل العدو قرار وقف اطلاق النار، ولم نكن نحن غافلين، ولقد تذكر انني حذرت من غدر العدو على أساس تجارب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ـ لكن علينا لكي نكون بشراً ـ أن نعرف ان كلمة وقف اطلاق النار لها تأثير على القوات المتحاربة.

ومع ذلك فان القوات تنبهت واستطعنا حصر منطقة الثغرة، وحاولنا ضغطها بكل الوسائل.

دعني أقول باختصار في موضوع الثغرة، وبالصدق كله، ما يلي،

● لم أقصد، ولم أحاول أن أضع أمام الناس صورة تختلف عن صورة الحقيقة كما كنا نراها.

● انني أسلم بأن هذه الثغرة كانت فترة غير طبيعية بالنسبة للقوات المحلية لاسباب متعددة سوف نتقصاها جميعاً لكي نتعرف على أسبابها.

ومع ذلك هل يمكن لهذه الثغرة ان تؤثر في قيمة ما حققناه

هيكل ـ كيف نقدر خسائر العدو؟

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ التقديرات الامريكية تكفيني. . . هذه التقديرات تعد خسائر اسرائيل بما يلي:

٣٠٠٠ قتيل ورأيي ـ بما شاهدته بعيني ـ ان هذا الرقم يقل عن نصف الرقم الحقيقي.

٢٠٠٠٠ جريح ـ وهذا رقم قريب من الحقيقة.

٩٧٠ دبابة ـ وهذه أكثر من نصف القوة المدرعة التي بدأت اسرائيل بها الحرب.

١٥٠ طائرة ـ وشواهدنا ووثائقنا تقول ان خسائر العدو في الطائرات أكبر من هذا بكثير، وربما كانت المصادر الامريكية تحسب الخسارة في الطائرات الامريكية وحدها».

هيكل ـ ما هو تقديرك لخسائرنا:

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ خسائرنا أعرفها يقيناً وليس تقديراً ولا اريد أن أتحدث فيها الآن.

أكتفي بالقول بان خسائرنا لا تتناسب مع حجم ما حققناه.

كانت التقديرات العالمية كلها لخسائرنا المحتملة في عملية العبور وحدها تتراوح ما بين ٢٥ الفاً الى ٣٠ الف شهيد.

ذلك لم يحدث والحمد الله.

أستطيع ان أقول بصفة أجمالية ان خسائرنا كلها مع كل ما حققناه بالحرب كانت أقل من خسائرنا في سنة ١٩٦٧، ولم نحقق بها شيئاً مع الأسف.

لعلي أضيف هنا شيئاً عن الاسرى. . . لقد كان أسرانا لدى العدو الى يوم ١٦ أكتوبر وبكل ما حققناه في حربنا ضده لا يزيدون عن ستين الى سبعين اسيرا وكان معظمهم من قوات الصاعقة التي اسقطت وراء خطوط العدو، وكان هؤلاء من أشرس المقاتلين، وقد ظلوا يطلقون النار حتى نفدت ذخيرتهم وقاوموا حتى أحيط بهم أحاطة كاملة. من أين اذن جاء باقي العدد

الكبير من أسرانا لدى العدو طبقاً لارقامه؟ لقد جاء هذا العدد ببساطة بعد الثغرة ومن الاحاطة ببعض مناطق الشئون الادارية ومن مطاردة جموع من سكان المنطقة من الفلاحين والقبض عليهم رهائن وليس أسرى!

هيكل ـ أريد أن أسألك عن نتائج حرب ٦ أكتوبر، النتائج الايجابية التي تراها أمامك وقد تحققت. . . من وجهة نظرك؟

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ هناك نتائج محققة، وهذه النتائج يمكن تقسيمها الى مجموعات مختلفة.

● هناك مجموعة من النتائج العسكرية أعدها كما يلي:

١ـ لقد زالت خرافة الجندي الاسرائيلي بعد ان كادت تثبت في بعض الأذهان بطريقة خطيرة.

لقد وجدناه جندياً عادياً. . . درب تدريباً حسناً عزز من قدرته القتالية، وهذا هو كل شيء. . . أي انه في مقدور جندي آخر غيره درب تدريباً حسناً يعزز قدرته القتالية ان يتصدى له وان يهزمه.

٢ـ لقد ثبت أمامي ان الجندي المصري من أشجع الجنود واصلبهم في العالم، يكفيه صبره وجسارته. . . ولقد مرت علينا أيام كان لنا فيها جنود يعيشون على نصف التعيين المقرر لغذائهم، ولكن استعدادهم للقتال لم يتأثر.

هناك ضمانات يجب أن نعطيها للجندي المصري لكي نأخذ منه أحسن ما عنده تدريب جيد، سلاح يثق فيه، ضابط يشعر به.

هذا هو كل شيء.

٣ـ ان أي عمل يحسن التخطيط له علمياً، ويحسن التدريب عليه عملياً قابل للنجاح بنسبة مائة في المائة.

٤ـ هناك دروس اخرى مستفادة، في نواح فنية، ولا أظنها مما يهمُّ الناس بصفة عامة، وانما هي تهم القوات المسلحة بصفة خاصة.

● انتقل بعد ذلك الى مجموعة اخرى من النتائج... مجموعة من النتائج الاستراتيجية وأعدها كما يلي:

١ـ لقد كسرنا الجمود الذي كان يحيط بأزمة الشرق الاوسط.

٢ـ لقد غيرنا صورتنا أمام العالم كله، وبعد أن كان يظننا جثة هامدة، فلقد رآنا قادرين على الحركة... قادرين على القتال... قادرين على الانتصار، ولم تتغير صورة مصر وحدها أمام العالم، ولكن تغيرت صورة الامة العربية كلها.

٣ـ لقد اثبتنا لاسرائيل ان منطقها في الحدود الآمنة منطق مضروب.

لم تكن قناة السويس مانعاً كافياً أمام ارادة مصممة.
ولم يكن خط بارليف عائقاً كافياً أمام استعداد للتضحية.

واذن فان على اسرائيل ان تبحث عن منطق آخر في الأمن.

وفوق ذلك، فان اسرائيل في أي منطق للأمن تحاول العثور عليه، لا بد لها ان تعرف ان أمامها في مصر عدواً يتحتم عليها ان تحسب حسابه، بل أقول وعليها ان ترهبه.

٤ـ ان الحرب اثبتت بطريقة قاطعة ان شرم الشيخ ليست لها الاهمية الكبرى التي كانت اسرائيل تظنها وتبني عليها مطامعها في سيناء.

ان شرم الشيخ لم تعد مفتاح ايلات، وانما نزل المفتاح الى أقصى الجنوب عندما اكتشفنا استراتيجية عربية للبحر الاحمر قررنا بمقتضاها قفل باب المندب».

هيكل ـ ماذا تتوقع من اسرائيل. . . هل تتوقع ان تفهم ذلك كله،

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ سوف تعاند في الفهم، ولهذا فاني لا اتجاوز اذا قلت لك ان استئناف القتال يبدو بالنسبة لي أمراً محتملاً جداً، وفي أي وقت.

انها خرجت من الحرب مجروحة. . .

ولم يكن جرحها عسكرياً فقط، وانما كان جرحها في غرورها، وهذا شيء لا تستطيع تقبله بسهولة».

هيكل- كيف تتصور جيش المستقبل في مصر؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ جيش المستقبل في مصر لا بد ان يكون هدفاً من أهم أهداف مصر الوطنية.

لا بد لمصر باستمرار من جيش قوي».

هيكل- اليس غريباً ان اسرائيل بتعداد يقل عن ٣ ملايين نسمة تحتفظ بجيش تصل قوته الى خمسين لواء؟. . .»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ ذلك صحيح، ولا بد لمصر من جيش يتناسب مع تعداد سكانها من ناحية، ويتناسب مع مسئولياتها في المنطقة.

ولكن علينا لكي لا نجعل من هذا الجيش عبئاً ثقيلاً على اقتصادنا الوطني، أن نواصل تطوير نظام التعبئة العامة عندنا.

كذلك لا بد لنا ان نستوعب تجارب حربنا في أكتوبر، وأظنها سوف تغير كثيراً من العقائد العالمية في الحرب.

أكاد أقول ان الدبابة فقدت سيادتها. . لم تفقد قيمتها ولكن فقدت

سيادتها كما قلت بتطور الصواريخ المضادة للدبابات.

أكاد أقول ان الطائرة فقدت سيادتها. . . لم تفقد قيمتها ولكن فقدت سيادتها كما قلت بتطور الصواريخ المضادة للطائرات.

سوف تلعب الصواريخ دوراً رئيسياً في حروب المستقبل».

هيكل ـ ما هي نظرية الأمن المصرية. . . أو دعني أطور سؤالي بطريقة أخرى.

هل تعتقد ان هناك نظرية أمن مصرية تختلف عن نظرية أمن عربية؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ نظرية الأمن المصرية لا بد ان تكون نظرية أمن عربية. . . الا ترى ذلك؟»

هيكل ـ انني واحد من الذين اعتقدوا دائماً ويعتقدون انه لا حياة ولا مستقبل لمصر بدون انتمائها العربي، ومن هنا فانني اعتقد بوجود نظرية أمن عربية، وبوجود نظرية رخاء عربية. . .

نظرية أمن عربية على خط ـ بالطول ـ من حلب الى عدن.

ونظرية رخاء عربية على خط ـ بالعرض ـ من البصرة الى الدار البيضاء».

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ هناك أمن عربي واحد. . . ونظرية واحدة لهذا الأمن».

هيكل ـ كيف تعرف نظرية الأمن العربية؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ ان تكون الامة العربية باستمرار في وضع من القوة يسمح لها بان تقرر لنفسها في الحاضر وفي المستقبل وفق ارادتها وبغير

خشية من أي تهديد يزحف عليها من الخارج او يزرع في قلبها من الداخل.

لكن علينا للوصول الى ذلك أن نضمن وجود استراتيجية واحدة تحدد لنا تماماً من هو العدو الحالي، ومن هم الاعداء المحتملون في المستقبل الذي يقع في نطاق ما نخطط له.

هذا هو ما يمكننا من بناء القوة العسكرية الموحدة التي نحتاجها. ولست أقصد بالقوة العسكرية الموحدة ان يكون لنا جيش واحد، فذلك يتعلق بأوضاع سياسية ليست داخلة في اختصاصي.

ما يهمني بالدرجة الاولى استراتيجية تحدد عدونا.

واستراتيجية نستطيع على أساسها بناء قوتنا، ثم نوزع الأدوار في بناء قوتنا على أنفسنا...

تكون هناك قيادة موحدة تكلف هذه الدولة بكذا، والدولة الاخرى بكذا، والدولة الثالثة بكذا، الى آخره.

ويكون هذا كله قوة متحالفة مشتركة توفر لها جميع الامكانيات.

وتكون لهذا كله خطة عمل جاهزة تحدد بمقتضاها المهام.

ان الحرب لا يمكن ان تكون لقاء مصادفات، وانما لا بد ان تعرف القوات مهامها، وتعرف بعضها من خلال التدريب المشترك.

بعض الناس يقولون ان الحرب تجربة لا انسانية، ورأيي ان الحرب هي أكثر التجارب في انسانيتها، ذلك لان كل محارب يعرف أن حياته وانتصاره يتوقفان على رفيق سلاح بجانبه في المعركة.

هيكل - دعني أسألك: هل الحرب ممكنة في ظل الوفاق بين القوتين الأعظم؟»

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ ممكنة اذا كانت حرباً محدودة في هدفها وفي مدتها.

ان الحرب الحديثة أصبحت حرباً هائلة في تكاليفها بسبب قوة فتك هذه الأسلحة، وبسبب سرعة هذه الأسلحة، وبسبب دقة هذه الأسلحة، نتيجة للثورة الاليكترونية.

اذا استبعدنا الحرب بين الكبار، وسوف تكون نووية، ولهذا فهي مستحيلة ـ اذن فإن الحرب على هذا النحو سوف تكون بين الدول المتوسطة والصغيرة.

وسوف تكون حروباً لا تستطيع دولة متوسطة أو صغيرة ان تواصلها بغير حد تتوقف بعده.

ثم أن القوى العظمى لن تترك مثل هذه الحروب تجري، خصوصاً اذا كانت هي مصدر السلاح للمتحاربين... لأن ترك مثل هذه الحروب على هواها قد يجرها هي نفسها الى ما لا تهواه.

خذ ما حدث مثلاً في حرب أكتوبر.

في أقل من عشرين يوماً من القتال جرى تدمير ٢٥٠٠ دبابة لكل الأطراف.

وتستطيع أن تعرف خطورة هذا الرقم اذا تذكرت إن إنتاج فرنسا من الدبابات كله لا يزيد عن ثلاثمائة دبابة في السنة.

كانت معارك الدبابات في حرب أكتوبر أكبر من كل ما جرى في الحرب العالمية الثانية.

كانت الخسائر فيها أعلى بسبب الصواريخ.

النتيجة ان إسرائيل طلبت مدداً من أمريكا.

نحن ايضاً طلبنا من الاتحاد السوفيتي.

وهكذا حدثت الحركتان في نفس الوقت.

- الدول المتوسطة والصغيرة لا تستطيع مواصلة الحرب بغير حد
- والقوى الأعظم لن تظل في عزلة عما يجري بعد حد معين.

والمهم في إدارة الحرب المحدودة أن يستطيع أي جيش محارب بلوغ الهدف السياسي المقدر له، ثم أن يصل الى ذلك الهدف محتفظاً بأكبر قدر من قوته.

أعود مرة أخرى الى ما بدأت به معك...!

أعود فأقول: أنني حاولت طوال ما تحملت به قواتنا من مخاطر، أن حتفظ بها سليمة... وحين أتطلع الى أوضاع قواتنا الآن، فإني أشعر بأننا حققنا جزءاً كبيراً من الهدف السياسي للحرب، ثم أننا استطعنا الاحتفاظ بقواتنا سليمة.

وهذا يريحني كقائد... كمواطن... كإنسان... بل يريحني كضمير».

سألني الفريق أول أحمد اسماعيل:

- ما هو رأيك أنت في الموقف كله؟»

وقلت:

- رأيي باختصار كما يلي:

- لقد قام الانسان العربي في هذه الحرب بعمل مجيد إكتشف

من خلال القيام به نفسه واكتشف قدراته واكتشف وحدته.

● لقد ثبت أن هذا الانسان كما قلت أنت قبل قليل قادر على الحركة قادر على القتال قادر على النصر.

● لقد كنت أتمنى أن لا تحدث هذه الثغرة التي حدثت في الغرب.

● برغم من هذه الثغرة، فإنني لو خيرت بين أوضاعنا يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣، وبين أوضاعنا يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ - لأخترت بغير تردد أوضاعنا في يوم ٢٢ أكتوبر، واعتبرتها قفزة هائلة... هائلة الى الأمام، برغم ما أراه فيها من احتمالات الخطر.

يوم ٥ أكتوبر كنا في وضع اليم.

ويوم ٢٢ أكتوبر أصبحنا في وضع خطر.

لعليّ من الذين يفضلون الحياة مع الخطر على الحياة مع الألم.

لعلّي واحد من الذين يعتقدون ان الألم مهين... وأن الخطر مقدس.

وهذا هو رأيي...

«القنبلة»

٢٣ نوفمبر ١٩٧٣

لقد راودتني افكار وتزاحمت عليّ خواطر تدعوني كل منها الى ناحية واتجاه اركز عليه حديثي هذا الاسبوع.

وفي بداية هذا الاسبوع رجحت ان يكون موضوعي اليوم متصلا ببعض القضايا الهامة في العمل العربي المشترك، وفي ضمانات يجب ان نقدمها له حتى تبقى لهذه الامة، وفي هذه المرحلة الخطرة من حياتها، والى الابد وهذا قدرها: روح اكتوبر التي تطهرت بالنار وتوضأت بالدم وأعطت هذه الامة ما سماه احد المراقبين العالميين، وبحق: ميلادا جديدا!

وفي منتصف هذا الاسبوع شدني موضوع آخر يتصل ببعض ما يجري في اسرائيل اليوم، آثاره المحتملة، وأخطاره الكامنة، وقبل أن تجيء ساعات لا بد ان نتنبه لها لاننا قد نكون فيها معرضين «لعمل اسرائيلي ما» يستهدف أول ما يستهدف روح اكتوبر بما صنعته على مستوى الانسان العربي العادي- البطل الحقيقي لهذه الحرب- او على مستوى الامة العربية التي أثبتت وأكدت وحدتها في هذه الحرب وأعطت للقوة العربية الشاملة بعدا استراتيجيا لم يكن متاحا حتى لاحلام النهار أو أحلام اليل!

وقرب نهاية هذا الاسبوع وجدتني في حالة انجذاب شبه صوفي نحو تجربة عشتها بنفسي على ارض ميدان القتال في سيناء، ذلك ان الظروف

اتاحت لي ان ازور الجبهة في صحبة الفريق سعد الشاذلي رئيس هيئة اركان حرب القوات المسلحة المصرية وكان معنا واحد من أبرز أساتذة علوم الحرب والاستراتيجية المعاصرين وهو الجنرال اندريه بوفر الذي وجهت له باسم «الاهرام» دعوة لزيارة مصر قبلها ولباها في فترة اكتسب فيها كل حديث عن الحرب والاستراتيجية عمقا هائلا.

وكنت أريد أن أصف بعض ما رأيت وسمعت، وفعلت، على الارض المقدسة:

● رأيت ساحات المعارك التي خاضتها الفرقة الثانية المشاة، وتشرفت حقيقة بلقاء أبطالها، وأثر في قائد هذه الفرقة المحاربة كنموذج للانسان المصري المقاتل، وأحسست بالدموع في عيني وهو يهديني امام جمع من ضباطه علم فرقته ودرعها كرما منه وحسن ظن في قيمة ما اكتب وكانت هذه اللحظة تعويضا وزيادة عن سنوات طويلة طويلة من المشاكل سببها لي ما كتبت.

● وسمعت من الفريق سعد الشاذلي القصة الكاملة للقلب والعقل المصري، واقفاـ وجها لوجه أمام مشكلة العبور من الدقيقة الاولى في المسئولية الى الساعات التي أصبح فيها العبور ملحمة بطولية من أمجد ما شهد تاريخ مصر وتاريخ العرب.

وسمعت أيضا قائد سلاح المهندسين، وكان هذا الجندي الممتاز وكان رجاله جميعا نجوما ساطعة في تلك الملحمة التي عاشتها مصر بالدم والنار ساعات حرجة ضمت تاريخها كله ومستقبلها كله في مهمة واحدة.

● وحين وصلت بنا سيارة الجيب التي كانت تقلنا جميعاـ الفريق سعد الشاذلي والجنرال اندريه بوفر وقائد سلاح المهندسين واناـ عبر الخطوط المصرية على الغرب حتى رأينا قناة السويس امامنا واحد جسور العبور منصوبا عليها في مواجهتناـ فانني نزلت من السيارة ومشيت على الجسر وحدي.

. . . مشيت على الجسر من الغرب الى الشرق فوق القناة . .

ورحت أنقل البصر من الجسر الى مياه القناة تتدفق في هدوء ما بعد العاصفة، الى الساتر الترابي الضخم الذي حوله العدو الى سد دفاعي، الى المواقع الحصينة الرابضة عليه من بقايا خط بارليف، الى الثغرات في هذا السد فتحتها قواتنا المسلحة مدخلا الى الارض المقدسة.

وأحسست ان مشيتي على الجسر في هذا الجو خشوع للحب والبطولة. . . صلاة للحب والبطولة!

***

في نهاية الاسبوع، وحين جلست لاكتب حديث اليوم، وجدتني اتجه الى موضوع آخر، فكرت طويلا من قبل في تناوله، ثم أجلته وأجلته لاعتبارات متعددة حتى احسست - وأرجو أن لا أكون مخطئا - ان المناسبة قد حانت له مع انعقاد مؤتمر عربي على مستوى القمة بالجزائر، أراه فيما اقدر اهم مؤتمر عربي على مستوى القمة اطلاقا في كل تاريخنا. . . لانه لاول مرة مؤتمر عمل: في جو عمل: أمام ضرورة عمل.

وربما كان ما حفزني الى التصميم على تناول هذا الموضوع هو تأكيدات جديدة وصلت اليّ، لمعلومات سابقة كانت عندي عن القوة الذرية لاسرائيل!

وقد وصلتني هذه التأكيدات خلال مناقشة مع زائر امريكي واسع الاطلاع ومتين الصلة بمصادر صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة.

كان حديثنا في مكتبي عن سيل الامداد العسكري المتدفق على اسرائيل جوا وبحرا. وكان زائري يحاول أن يشرح لي الاسباب التي دعتهم هناك الى فتح الترسانة الامريكية لاسرائيل بغير حساب.

ولم تكن الاسباب جديدة في معظم ما قال: الالتزام السياسي

الامـريكي تجاه اسـرائيل- الخشيـة من آثـار واسعـة يمكن ان يحـدثهـا انتصـار السلاح السوفيتي في يد العرب على السلاح الامريكي في يد اسرائيل- الادعاء بتوازن القوى في المنطقة. . . الى آخره.

ثم استطرد زائري، وكانت هذه اهم نقطة في حديثه:

- كان هناك شيء آخر. . في اليوم السادس أو السابع للحرب، كـانت خسائرهم في الطائرات والدبابات مخيفة: ثلث سـلاح الطيـران- ١٥٠ طائـرة تقريبا- اسقـطت في الجو بـالذات أمـام حائط الصـواريخ المصـري الجبار- ثم نصف دباباتهم- ٩٠٠ دبابة تقريبا- دمـرتها الصـواريخ المضـادة للدبابـات على الجبهة المصرية وعلى الجبهة السورية.

كـانوا يـطلبون بعصبيـة. . . كانـوا يطلبـون بـاسـرع مـا يمكن أجهـزة اليكتـرونية للتشـويش في الجو؛ ومـدفعيـة صـاروخيـة مضـادة للدبـابـات في الارض.

وكانوا يطلبون تعويضا من الـطائرات والـدبابـات يعيد لهم قـوتهم التي صدمتها المفاجأة وحطمت ضراوتها.

كـانت عصبيتهم تـزداد مـع كـل يـوم، وفي وقت من الاوقـات كـانت عصبيتهم جنون وحش جريح».

واستطرد زائري يقول:

- في ذلك الوقت كنت بالصدفة اتناول الغذاء في مطعم مجلس الشيـوخ الامريكي، وكنا ثلاثة على مائدة الغذاء.

احد الوزراء الكبار في حكومة نيكسون. . . واحـد الاعضاء البـارزين من لجنة التسليح في مجلس الشيوخ. . . وانا.

وقال العضو البارز في لجنة التسليح بمجلس الشيوخ للوزير الامريكي:

ـ ان اخشى ما اخشاه ان يفقد هؤلاء الناس في تل ابيب اعصابهم ثم يلجأون الى استخدام واحدة من قنابلهم الذرية الثلاث لردع الهجوم العربي، وليس يهمني ما يحدث للعرب ولكني أخشى أن أي انفجار ذري في هذا الوقت سوف يضع العالم على شفا كارثة دولية رهيبة!!».

وتركت زائري يستطرد في حديثه... وظللت استمع اليه طويلا... لكن ما قاله ظل يدور في رأسي ويدعوني الى كثير من التأمل والتفكير.

* * *

وجاءني الجنرال «بوفر» ضيفا على فنجان شاي في بيتي، مودعا قبل أن يغادر القاهرة، وجلسنا نستعرض المسائل التي دارت من حولها مناقشاتنا وقلت له بغير مقدمات:

ـ هناك سؤال لم اطرحه عليك، ولكني الان ونحن وحدنا، اريد ان اوجهه اليك.

لقد كانت هناك باستمرار في السنوات الاخيرة تقارير متعددة المصادر عما يمكن ان يكون لدى اسرائيل من القنابل الذرية: كانت هناك تقارير السنوات الاخيرة لمعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن، وكانت هناك تقارير معهد التسليح في استكهلم، وكانت هذه التقارير تشير باستمرار الى وجود قوة ذرية لدى اسرائيل.

وأريد أن أسألك سؤالا من شقين:

هل تعتقد ان اسرائيل لديها قنابل ذرية؟

هذا شق من السؤال... والشق الثاني منه:

هل تعتقد ان هذه القنابـل قابلة لـلاستعمال مـع ملاحـظة شيئين: ان اسرائيل لم تجر أي تجارب تختبر بها فاعلية ما لديها من قنابـل ذرية. . . ثم ان اسرائيل تعرف كما يعرف أي طرف مسئول في هذا العـالم ان القنابـل الذريـة ليست لعبة قابلة للاستعمال ببساطة».

وقال لي الجنرال «بوفر»، وهو يضع فنجان شاي كان في يده على مائـدة امامه، ليعطي نفسه كعادته، وكالعادة في كل شعوب البحـر الابيض، فرصـة اشتراك يديه بالاشارة، في الحديث مع لسانه بالكلمة:

ـ لقـد كنت انتظر هـذا السؤال، وقد دهشت من انـه لم يطرح في كـل جلسات الحوار التي اشتركت فيها، وسوف اجيبك عليه بقدر علمي. . . ».

واستطرد الجنرال بوفر:

ـ سوف أرد باسلوب العدد الذي أراك تستخدمه باستمرار فيما تكتب.

١ـ انني قرأت بالطبع كل التقاريـر المنشورة في العـالم عن قوة اسـرائيل الذرية.

٢ ـ انني بالطبع لم أر بعيني قنابـل اسرائيـل الذريـة ولم اتأكـد من انها ثلاث أو اقل او اكثر.

٣ـ انني اعتقد ان اسرائيل لديها امكانية صنع قنابل ذرية، واذا اتخذت حكومتها قرارا سياسيا بصنع مثل هذه القنابل فان هذه القنابل يمكن ان تكون جاهزة في مدى ستة شهور.

٤ـ انني لا استبعـد اطلاقـا ان يكون هنـاك في قبو مـا في مكان مـا من اسرائيل عدد من القنابل الذريـة وان كنت اتصور ان هـذه القنابـل اذا كانت موجودة فانها سوف تكون انواعا بدائية عندمـا كانت «القنبلة» في طفـولتها. . أي قنابل «سمينة» في حجمها محدودة في قوتها.

٥ـ ان اسرائيل فيما اظن لا يمكن ان تستخدم مثل هذه القنابل، في هذا العصر الذي نحن فيه وبكل الموانع العالمية التي تقف دون ذلك، سواء من موازين القوى او من تأثير الرأي العام العالمي، الا في حالة واحدة وهي حالة توغل عربي لا تستطيع وقفه في داخل اسرائيل كما كانت قبل يونيه سنة ١٩٦٧.

أي انها لا تستطيع ـ عقلا ـ أن تستخدمها في الدفاع عن التوسع.
ولكنها قد تستطيع ـ احتمالا ـ ان تستخدمها في الدفاع عن النفس».

ولم أشأ أن أدخل بالحديث مع الجنرال بوفر في هذا الموضوع الى أبعد مما قاله في النقط الخمس التي شرحها ـ واضحا ـ بكلمات اللسان واشارات اليد!

* * *

كان ما قاله لي تأكيدا في الواقع لما كنت اعرفه من متابعة ملحة وراء محاولات اسرائيل لامتلاك قنبلة ذرية.

لقد بدأت هذه المحاولات سنة ١٩٥٧، وفي أعقات حرب السويس العظيمة، وحين اضطرت اسرائيل امام المد العربي الثوري الزاحف، وامام الانذار الروسي الشهير سنة ١٩٥٦، وأمام الضغط الامريكي الناشيء من ذلك كله ـ الى التراجع عن سيناء بعد فشل الحملة البريطانية الفرنسية على بور سعيد.

في تلك الفترة كانت اسرائيل في حالة غيظ.

وكانت فرنسا مجروحة بسبب فشل الحملة.

وفي حين ان بريطانيا ـ الشريك الثالث ـ في الحملة تراجعت... وراجعت نفسها في تواطؤ السويس، فان بقية أطراف التواطؤ: اسرائيل

وفرنسا واصلتا السير سنوات على الطريق الوعر والخطر.

في ذلك الوقت أصبحت اسرائيل في احضان فرنسا. . . أو لعلها فرنسا التي اصبحت في احضان اسرائيل وكانت النتيجة ان فرنسا قدمت لاسرائيل مفاعلا ذريا قادرا على استخراج كمية كافية من «البلوتونيوم»- المادة الضرورة للتفجير الذري وبني المفاعل وراء جدار مطلق من السرية في د «ديمونة» قرب «بئر السبع».

وبعد خمس سنوات، حوالي سنة ١٩٦٢، كان هذا المفاعل ونشاطه قد بدأ يلفت انظارا كثيرة حتى في الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي أواخر الستينات كانت التساؤلات من حول مفاعل ديمونة مسألة مثيرة على نطاق عالمي، وفي بعض الأحيان فان اسرائيل نفسها وبذكاء شديد كانت تشترك بطرف خفي، في اذكاء الشكوك من حول ما يجري في ديمونة!

وربما كان ممكنا تلخيص الاستراتيجية الاسرائيلية في هذا الصدد على النحو التالي:

١- ان اسرائيل كانت بالقطع تحاول امتلاك قنبلة ذرية.
٢- ان احدا لم يكن يساوره شك في قدرة اسرائيل على صنع قنبلة ذرية، ولكن المسألة التي كانت التساؤلات تدور من حولها فعلا هي:

- هل صدر القرار السياسي بصنع قنبلة ذرية أو أن هذا القرار مؤجل؟».

٣- ان اسرائيل كانت راغبة في ان يفهم العرب بالظن ان لديها قنبلة ذرية، ولكنها لم تكن راغبة في أن يعرف العرب- باليقين- أن لديها هذه القنبلة الذرية.

فهمهم بالظن في رأيها قد يصبح رادعا.

وأما معرفتهم باليقين في رأيها فقد كان يمكن ان تكون حافزا.

٤ـ ان اسرائيل لم تجرب قنبلتها الذرية ـ على فرض انها صنعتها ـ لأن حساب الصلاحية يمكن تقديره ولو نسبيا بعمليات عقل اليكتروني. ثم على فرض ان نسبة الصلاحية هي خمسون في المائة فان الخمسين في المائة ذرية تبقى رادعا لا بأس به.

٥ـ ان اسرائيل من أجل ذلك تهربت من توقيع اتفاقية حظر اجراء التجارب الذرية التي وقعتها معظم دول العالم وكان هدفها ان تظل علامة الاستفهام معلقة: تنفي أو تؤكد بالمرونة التي تفرضها الظروف!

* * *

ولم يكن ذلك كله غائبا عن المراكز المؤثرة في السياسة العربية، وربما استطعت ان اتذكر ثلاث محاولات عربية اساسية جرت للحاق باسرائيل في هذا المضمار الذري:

أولا: محاولة مصرية اهتم بها جمال عبد الناصر لسنوات طويلة لتطوير البرنامج الذري المصري، ولكن هذه المحاولة لم تصل الى نتيجة مؤكدة بسبب ضخامة الموارد التي يتطلبها انشاء امكانية ذرية من ناحية، ومن ناحية اخرى لأن الذين تولوا الاشراف على البرنامج الذري المصري لم تكن لديهم ـ في كثير من الاحيان ـ مقدرة ادارة مثل هذا الجهد.

ثانيا: محاولة مصرية بعد سنة ١٩٦٧ للاتصال بالصين التي كانت قد فجرت قنبلتها الذرية الاولى بنجاح عظيم وكانت هناك نصيحة من الصين بالتدرج مع الاعتماد على النفس.

ثالثا: محاولة ليبيه تحمس لها العقيد معمر القذافي سنة ١٩٧٠ وعرض من خلالها استعداده لشراء قنبلة ذرية تكون تحت تصرف العرب كرادع امام

الاحتمالات الذرية الاسرائيلية ولكن الحقيقة التي عرفها معمر القذافي من هذه المحاولة هي:

«ان القنابل الذرية- ببساطة- ليست للبيع»

* * *

ثم جاءت حرب اكتوبر وصدماتها بالنسبه لاسرائيل- وهذه مسألة لا بد أن نتوسع في دراستها بالتفصيل فيما بعد- ولكننا نستطيع ان نركز بسرعة على العوامل التالية:

١- لقد ثبت لاسرائيل ان الفجوة الحضارية بينها وبين العرب أضيق مما كانت تتصور فلقد ظهر ان العرب استوعبوا حرب الاليكترونيات باسرع مما كانت تتوقع.

٢- لقد ثبت ان العرب لديهم بسلاح البترول وسيلة للضغط على الولايات المتحدة الأمريكية وعلى غيرها من الدول المتقدمة التي تستطيع نجدة اسرائيل بالسلاح. واذا كان استعمال سلاح البترول هذه المرة قد لحق بالقرار الامريكي بمساعدة اسرائيل وتعويضها عن خسائرها فانه في مرة قادمة قد يسبق مثل هذا القرار ويحول دونه او على الاقل يحد من اندفاعه!

٣- لقد ثبت ان خسائر الحرب الحديثة بأسلحة الحرب الحديثة مخيفة... ذلك انه في اسبوعين من الحرب كانت خسائر كل الاطراف في المعدات كما يلي:

٢٥٠٠ دبابة

٦٠٠ طائرة

كان السبب هو تطور الصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات.

ومعنى ذلك وهذه حقيقة لا بد أن نستوعبها:
ان العدد يستعيد قيمته

معنى ذلك ان الطرف الذي يملك دبابات اكبر وطائرات اكبر يستطيع مواصلة الحرب اطول وبالتالي فهو اقرب من الطرف الآخر على توجيه مسار الحرب والتحكم في نتائجها.

والعدد ليس المعدات فقط.. أي انه ليس الدبابة والطائرة فقط وانما العدد- الى جانب المعدات- هو اطقم الدبابات وأطقم الطائرات سواء في الجو او على الارض.

مؤدى ذلك: ان كثافة العامل البشري العربي- مع استعداد الانسان العربي لاستيعاب تكنولوجيا العصر- سوف يكون عنصرا في السباق لا تستطيع اسرائيل ان تجاريه.

واذن ماذا؟

وإذن، الا يحتمل أن تجيء مرحلة في الصراع تعتمد فيها اسرائيل بارادتها- أو بمخاوفها- على رادع ذري؟

قفزة الى التكنولوجيا تظن ان العرب غير قادرين على مجاراتها؟

قفزة لا تضطرها الى التسول من غيرها تحت ضغط سلاح البترول؟

قفزة لا تحتاج الى كثافة بشرية؟

* * *

لكي يكون ما أقوله واضحا ومحددا، فلعلي أبادر الى القول بان وجود قنابل ذرية لدى اسرائيل ليس رعبا نتركه ليخلع قلوبنا، ولكنه- فيما أرى- احتمال يجب ان نستعد له. وان نستعد له بمقابلة الخطر وليس بالهرب منه.

ولعلي اقول ان هناك حدودا عالمية ومحلية تقف ضد استعمال اسرائيل لسلاحها الذري- على فرض انه موجود- واقتناعي شخصيا انه موجود أو أنه قابل للوجود بقرار سياسي يتخذ في أي لحظة.

والحدود العالمية والمحلية التي تقف ضد استعمال اسرائيل لسلاحها الذري الموجود أو المحتمل كما يلي:

١- ان استعمال قنبلة ذرية في هذا العصر وموازينه واخلاقياته، قرار لا يمكن ان يصدر عن عقل، وانما هو قرار يصدر عن جنون مطبق.

٢- ان استعمال قنبلة ذرية في ميدان قتال ليس فعالا الى الدرجة المتصورة ازاء قوات حفرت مواقعها بعناية الا ان يكون ذلك في نقطة الصفر اي مركز الانفجار ذاته وأما الدائرة المحيطة به فان الخطر عليها قليل.

وفي هذه الحالة فان تكاليف القنبلة الذرية تصبح اغلى بكثير من قوة دمارها الفعلي. والحرب في كل الظروف عملية اقتصادية.

٣- ان استعمال قنبلة ذرية ضد مدينة عربية لن يكون نهاية للصراع العربي الاسرائيلي وانما سوف يكون بداية لمرحلة جديدة منه لا يمكن ان تكون لها نهاية الا بنهاية اسرائيل ذاتها.

ولقد تكون اسرائيل مدينة واحدة او مدينتين. . . ولقد تكون مركزا صناعيا واحدا او مركزين، ولكن العالم العربي متعدد المدائن والمراكز.

٤- ان العالم العربي لديه الامكانيات والموارد ولديه الاتساع والعمق الذي يمكنه- ولو بعد سنوات- من رد الضربة ومع ضيق اسرائيل وانحصارها فان ضربة واحدة يمكن ان تكون قاضية.

٥- ان حصول العرب على قنبلة ذرية لو انهم تعرضوا لخطر ذري لن ينتظر تطور قدراتهم التكنولوجية لصنعها، وانما يستطيع العرب امام خطر

ذري واقع من اسرائيل ان يحصلوا على ما يريـدون من الاتحاد السـوفيتي. . . واذا رفض الاتحاد السوفيتي فقد تقبل الصين، واذا رفضت الصين فان القنبلة الذرية ليست بعد ذلك كله في حرز مصون بعيد عن الايدي والعيون.

* * *

اخلص من ذلك الى نتيجتين:

١ـ ان القنبلة الذرية الاسرائيلية مرهونة في استعمالها بظرف مجنـون او ربما بشخص مجنون:

ظرف تشعر فيه اسرائيـل انها مهددة وانها عـلى استعداد حتى لـلانتحار قبل ان تموت.

او شخص مجنـون يقفـز الى مـركـز القـرار في اسـرائيـل. . . رجـل لا يستـطيع الا رؤيـة لحظة بعينهـا تملأ انفعـالاته كلهـا بـاللون الاحمـر. . . وفي اسرائيل من هذا النوع كثير وبينهم على سبيل المثال الجنرال اريل شارون!

وليس في استطاعة الامة العربيـة ان تعيش في قلق من ظرف مجنـون او من شخص مجنون.

٢ـ ان القنبلة الـذرية الاسـرائيلية بكـل ما استعـرضناه من ظـروف قد تصبـح سلاحـا اساسيـا في عملية تشهـير. . . او عملية ابتـزاز تحت التهديـد للحصول على تنازلات عربية لا تؤخذ بدونه.

وليس في استـطاعة الأمـة العربيـة التي كسرت حـاجز الـوهم وحاجـز الخوف بملحمة العبور ان تسمح لنفسها أن تكون عـرضة للتشهـير او الابتزاز ولو حتى امام الخطر الذري.

* * *

واصل الى قربِ الختام في هذا الحديث لأقول وبمنتهى الهدوء والتعقل ما يلي:

اذا كان لدى اسرائيل قنبلة ذرية، او كانت لديها امكانية لقنبلة ذرية. . .

اذن فان من الضروري ان يكون لدى العرب قنبلة ذرية، او أمكانية لقنبلة ذرية والمنطق في ذلك ان الردع هو استراتيجية العصر الوحيدة والمؤثرة.

بمعنى ان وجود هذا النوع من السلاح لدى طرفين في صراع، هو الضمان الوحيد لعدم استعمال هذا السلاح في هذا الصراع!

ولقد سارعت بهذا الموضوع في هذا الحديث لكي يلحق بمؤتمر القمة العربي المنتظر في الجزائر.

وفعلت ذلك لعدة اعتبارات:

١ـ ان العرب لديهم هذه اللحظة دواع للتفكير الجدي في رادع عربي فعال ولن يلومهم احد الآن، وبعد تجربة حرب اكتوبر، اذا شعروا ان خطوة اسرائيل المقبلة في التصاعد بالصراع هي التشهير والابتزاز الذري.

٢ـ ان القرار في ذلك اكبر من مسئولية دولة عربية واحدة، ثم ان متطلبات تحقيقه تتطلب ما هو اوسع من امكانية دولة عربية واحدة.

٣ـ ان الأمة العربية بما لديها من العمق الاستراتيجي تستطيع ان تبني امكانيتها الرادعة بعيدة عن اي تهديد يحطم محاولاتها على الارض وقبل أن تجيء مرحلة التحليق والارتفاع.

٤ـ ان جهدا عربيا موحدا ومكثفا هو وحده الكفيل باختصار فترة الوقت اللازمة لتحقيق اداة الردع العربية، وذلك لا يجعل الامة العربية في

مركز قوى تجاه تشهير وابتزاز اسرائيل وحدها وانما يجعلها في مركز قوى تجاه أي تشهير واي ابتزاز مهما كان مصدره... ذلك يعطي الامة العربية واحدة من سمات القوى العظمى في هذا العصر.

٥ـ انه ليس هناك خوف كما انه ليس هناك خطر في ان تعرف اسرائيل ويعرف العالم اننا مستعدون لسلم التصاعد حتى نهايته، بل لعل الخوف والخطر يكونان اذا تصورت اسرائيل او تصور العالم اننا لسنا متنبهين الى الخطوة القادمة على سلم التصاعد وانها اذا واجهتنا يوما فلن يكون سبيلنا الوحيد هو قبول التشهير والابتزاز لاننا فوجئنا بما لا قبل لنا به!

□

ثم لعلنا نتذكر ان القاعدة الذهبية في ادارة صراعات التاريخ كلها في هذا العصر وقبل هذا العصر وبعد هذا العصر كانت وما زالت وسوف تبقى قاعدة واحدة:

ـ ان تسقط كلمة: «المفاجأة» من كل قواميسنا... ان نكون متأهبين لما هو قادم على تعدد الاحتمالات فيه.

... أن نكون مستعدين للجواب... اذا طرح التحدي علينا سؤاله».

□

ثم أشعر اني مدين بايضاح يتعين على ان اقدمه:

ـ هذه دعوة للسلام وليست دعوة ضد السلام، فالسلام لا يعيش حتى الآن الا في ظلال القوة وان كان في استطاعتنا ان نحلم ونناضل من أجل يوم يمكن ان يعيش فيه السلام في حماية الضمير...

وحتى يجيء هذا اليوم باحلامنا واعمالنا فان الدعوة الى نزع السلاح امام عدو مدجج بالسلاح لا تصبح دعوة سلام.

ولقد نقول في بعض الاوقات بما نكره ان نقول به ولكننا لا نستطيع في كل الاوقات ان نغمض عيوننا عما نرى!!

. . . .

. . . .

رأى مرفوع وبكل احترام الى مؤتمر القمة العربي المنعقد بعد أيام في الجزائر. . . مع العلم بان العدو لن يسكت، ومع العلم بان الصراع طويل طويل، ومع العلم بان السلام بعيد بعيد، ويخطيء من يظن ان الحل قريب، وتكفينا نظرة واحدة على ما تقوم به القوات الاسرائيلية الان على جبهات القتال وكله يشير الى تربص اسرائيل وتحفزها لضربة جديدة بالاسلحة التقليدية تعيد عقارب الساعة الى الوراء، فاذا نجحت مثل هذه الضربة كان بها، واذا لم تنجح اذن فخطوة اخرى مفاجئة على سلم التصاعد نحو التخويف الذري او الابتزاز والتشهير الذري.

ثم قد اقول غير مبالغ: ان صنع قنبلة ذرية ليس طلسما، كل ما يحتاجه الان: هيئة عربية واحدة تحت اشراف عربي عال. ومائة من علمائنا الموجودين على ارضنا او الذين تركناهم يهاجرون الى اراض بعيدة وما بين مائتين الى ثلاثمائة مليون جنيه لا اكثر، الى جانب الحق في استخدام تسهيلات موجودة فعلا على ارض الامة العربية. وفسحة معقولة من الزمان، ثم يصبح لهذه الامة ان تأمن من المفاجآت وان تشارك في صنع موازين العصر ولا تكون محكومة بها فقط!

□

واعرف مقدما ان اصواتا كثيرة سوف تثور في بقاع عديدة من العالم تصرخ في وجوهنا:

ـ العالم كله يبتعد عن دائرة الاسلحة الذرية وانتم الآن تشاورون عقلكم في الاقتراب».

ويكون ردنا، ولا بد ان يكون:

ـ اذا كانت لديكم وسيلة للتأكد، أمام انفسكم، وللتأكيد بالنسبة لنا، بأن اسرائيل لا تملك اسلحة ذرية فافعلوا ذلك، واطلبوا ـ حقا ـ التفتيش على مفاعل ديمونة... واذا لم تكن لديكم مثل هذه الوسائل اذن فدعونا نضع مظلة على رؤوسنا تحميها.

.. فرنسا فعلت ذلك وكان الحق معها... وفعلته الصين وكان الحق معها.

ولم تكن فرنسا ولا كانت الصين في اي فترة من الفترات امام خطر لحظة مجنونة... أو رجل مجنون!

٣ رسائل

٣٠ نوفمبر ١٩٧٣

أكتب هذا الحديث من القاهرة بينما المؤتمر العربي على مستوى القمة ما زال يواصل جلساته في الجزائر.

لم تختتم اعماله بعد، ولم تظهر نتائجه..

وحتى اذا استكمل المؤتمر جلساته قبل ظهور هذا الحديث واختتم اعماله، فاغلب الظن ان ما سوف نقرأه بسرعة هو البيان الرسمي النهائي الصادر عنه، والبيانات الرسمية النهائية لمؤتمرات القمة -او اية مؤتمرات غيرها- ليست دائما صورة كاملة للنتائج الحقيقية لمثل هذه المؤتمرات.

ان البيان الرسمي النهائي لأي مؤتمرات هو -اذا جاز التشبيه- مجرد «كيس» يوضع فيه ما امكن التوصل اليه من أشياء. وقد يدل شكل الكيس الخارجي على كثير من محتوياته، وقد لا يدل الاعلى القليل. لكن الكيس لا يظل مقفلا على ما فيه من أشياء الى الأبد، فما هي الا ايام -في العادة- حتى تكون المحافل السياسية والصحفية قد مدت اصابع البحث والتنقيب -وربما الفضول- وتحسست ما فيه، وقاست حجمه ونوعه وقيمته، واستخلصت من ذلك آراءها فيه واحكامها عليه وتقديراتها بعده!

□

واذا جاز لي ان اتسرع، ولو حتى بالتمني قبل ان تظهر النتائج الكاملة لمؤتمر الجزائر فلربما اقول:

- الى جانب مهام بدهية لا بد ان هذا المؤتمر تحمل امانتها: مثل رسم استراتيجية شاملة للمواجهة مع العدو الاسرائيلي، ومثل وضع حدود لما يمكن التقدم اليه او ما يجب التوقف دونه -فلعل هذا المؤتمر العربي الكبير قد تذكر، في زحمة ما كان امامه من مهام، ان يوجه ثلاث رسائل اجدها ضرورية وحيوية نحو ثلاثة اتجاهات:

رسالة في اتجاه الاتحاد السوفيتي.
ورسالة في اتجاه اوروبا الغربية.
ورسالة في اتجاه دول وشعوب افريقيا.

ولست اقصد هنا المعنى الحرفي للرسائل -خطاب داخل ظرف وعليه عنوان وفوقه طابع بريد- وانما ما أقصده بالرسائل ان تكون سياسات معلنة، مطروحة للممارسة الفعلية، بحيث تكون قادرة عمليا على ان تقول -وبالافعال- ما تريد ان تقوله.

واشرح وجهة نظري في هذه الرسائل الثلاث واحدة بعد واحدة.

* * *

■ ■ ■ اولا: رسالة الى الاتحاد السوفيتي:

وقد أقول -وبأمانة- انني اشعر ان الاتحاد السوفيتي لم يحصل على ما يستحقه من قيمة الرصيد الهائل الذي حققناه يوم ٦ اكتوبر، وقد اقول ايضا ان لديّ ما يدعوني الى الظن بأن الاتحاد السوفيتي نفسه يشعر بنفس هذا الشعور!

لقد حققنا ما حققناه في ٦ اكتوبر معتمدين على عناصر متعددة بينها

على وجه اليقين تأييد الاتحاد السوفيتي لنا: بالدعم العسكري وبالمساندة السياسية.

وفي الواقع فان ازمة الشرق الاوسط كلها، تحركت مما كانت فيه، الى ما اصبحت عليه بفعل عنصرين اثنين فتحا الطريق بعد ذلك لغيرهما من العناصر:

الانسان العربي العادي الذي كان معجزة حرب اكتوبر وآيتها الكبرى.

ثم السلاح الذي امسك به هذا الانسان العربي وقاتل به وحقق به ما حقق.

ان هذين العنصرين فتحا الباب لبقية العناصر التي لم يكن ممكنا لها دخول ساحة التأثير على الأزمة الا بعد فتح الباب .

أي ان «الانسان» و «السلاح» فتحا الباب لما جاء بعدهما. البترول ـالثقة المتجددة بالنفس ـ التعاطف العالمي الطبيعي مع الذين يقبلون تحدي الموت لصالح الحياة. . . الى آخره.

□

واذا وضعنا السلاح على هذه الدرجة من الاهمية، وهو فعلا على هذه الدرجة من الاهمية ـاذن فنحن نتحدث عن الاتحاد السوفيتي، ذلك لأن اكثر من خمسة وتسعين في المائة مما حاربنا به في اكتوبر كان سلاحا سوفيتياً.

واذا تذكرنا ان المعارك قد تعود الى الاندلاع في أي لحظة. . .

واذا تذكرنا ان لا وقت لدينا لاعادة التدريب على اسلحة ومدارس في التسليح غير الاسلحة والمدارس السوفيتية. .

واذا تذكرنا انه ليست هناك مصادر متاحة بالحجم الكافي للحرب

الحديثة ـخلاف المصادر السوفيتية . . .

اذا تذكرنا ذلك كله ـفاننا نعرف ان السلاح الذي حاربنا به في اكتوبر هو السلاح الذي سوف نحارب به في ديسمبر او يناير او فبراير او في أي شهر من الشهور القادمة حين تواجهنا العقبات في مؤتمر السلام المقترح، وسوف تواجهنا مئات بل آلاف العقبات فيه. وترتيبا على ذلك فاننا نعرف ان علاقتنا مع الاتحاد السوفيتي ـالى جانب نواح اخرى مهمة فيهاـ علاقة حيوية للسلام العربي لا بديل لها ولا تعويض عنها.

□

ولقد بدا ـفوق السطح على الأقلـ خلال الاسابيع الاخيرة اننا فرغنا من القتال بالسلاح السوفيتي، ثم وجهنا اهتمامنا كله الى الحوار مع الولايات المتحدة الامريكية.

وبدا ـللنظرة الاولى على الأقلـ ان هناك في العالم العربي رأيين في التفكير ازاء الاتحاد السوفيتي :

رأي يعبر عن حساسية لا مبرر لها ازاء الاتحاد السوفيتي وذلك من تأثير خلافات عقائدية او سياسية، حقيقية او مدعاة . . .

ثم رأي يعتبر ان العلاقة مع الاتحاد السوفيتي قضية مفروغ منها، مع انه في العلاقات الدولية لا توجد هناك قضية مفروغ منها، بل انه حتى في العلاقات الانسانية الفردية ـوحتى الصداقة والحبـ لا يوجد ما يجب ان يؤخذ كقضية مفروغ منها!

□

ولعلي أقول انه ربما كانت لي ـاو لغيريـ ملاحظات حول العلاقات العربية السوفيتية ولكن هذه الملاحظات لا تتصل باستراتيجية العلاقات مع الاتحاد السوفيتي في حد ذاتها، ولكنها تتصل بممارسة هذه الاستراتيجية من ناحيتنا في بعض الاحيان.

ولقد ألخص بعض هذه الملاحظات فيما يلي:

١ ـ ان الاتحاد السوفيتي هو احدى القوتين الأعظم في زماننا وكل واحدة من القوى الأعظم لها مطالبها وموازينها ـوليس هذا عيبا بل هو طبيعة الاشياء.

٢ ـ ان الاتحاد السوفيتي له مصالح في المنطقة العربية يريد حمايتها وقد تتفق او لا تتفق هذه المصالح مع رؤية المنطقة ذاتها لمصالحها الذاتية.

٣ ـ ان الاتحاد السوفيتي كان في مقدوره ـكما نتصورـ ان يعطي اكثر مما أعطى خصوصا في مجال السلاح، لكنه من وجهة نظره لم يكن يريد ان يغامر امام القوة الأعظم الثانية ـوان كان على أي حال قد اعطانا ما استطعنا به تحقيق معجزة الانسان العربي في اكتوبر.

٤ ـ انه مهما كانت اهمية علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي فليس هناك ما يدعونا الى قصر علاقاتنا الدولية عليه وحده، ثم انه ليس هناك ما يدعونا الى جعل أرضنا منطقة استقطاب بينه وبين القوة الأعظم الثانية، خصوصا وان الاستقطاب يتراجع من العالم كله مع تراجع عصر الحرب الباردة وبداية عصر الوفاق بين القوتين الأعظم.

□

وبرغم هذه الملاحظات فلقد يصح لنا ان نتذكر ان الامنية الاستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة في الشرق الاوسط ـوحتى بعد انتهاء عصر الحرب الباردة وبداية عصر الوفاقـ ما زالت: اخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة العربية.

ولقد عبر الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية عن هذه الامنية الكبرى اكثر من مرة، ولم يستعمل كلمة «اخراج» وانما تجاوز ذلك الى استعمال كلمة «طرد» الاتحاد السوفيتي من الشرق الاوسط.

وربما كان التغيير الذي احدثه الوفاق في الاستراتيجية الامريكية هو ما يلي:

في مرحلة سبقت كانت استراتيجية الولايات المتحدة هي: ابعاد الاتحاد السوفيتي عن المنطقة.

وفي هذه المرحلة فان استراتيجية الولايات المتحدة هي: ابعاد المنطقة عن الاتحاد السوفيتي!

ولنا هنا ان نتساءل:

- هل كان العمل على ابعاد الاتحاد السوفيتي عن المنطقة فيما مضى او هل ان الاغراء بابعاد المنطقة عن الاتحاد السوفيتي مما هو موضوع للتجربة الآن، في صالح نضالنا او انه ضد كل صالح لهذا النضال؟

ثم نتذكر ما يلي:

١ - ان التأييد السياسي والعسكري السوفيتي للنضال العربي هو، وحتى الآن وكما قلنا ليس له بديل، وليس له تعويض.

٢ - ان الاتحاد السوفيتي كاحدى القوتين الاعظم -عقيدة اجتماعية وقدرة اقتصادية وعسكرية فادحة- لم يعد ممكنا اخراجه من المنطقة مهما فعلت الولايات المتحدة او حتى مهما فعلنا نحن -فيما لو قبلنا بالانسياق مع المنطق الامريكي -والنتيجة الوحيدة التي يمكن ان تسفر عنها محاولة اخراجه لن تكون غير مزيد من القلاقل في الشرق الاوسط لانها سوف تكون عودة به الى الحرب الباردة والحرب الساخنة ايضا!

٣ - اذا فرض وتحقق للولايات المتحدة ما تريده، بنفسها او بنا وخرج الاتحاد السوفيتي من المنطقة . . . فما هو معنى ذلك؟

معناه ان المنطقة سوف تفقد التوازن الذي يصون استقلالها وسوف تقع -راضية او كارهة- تحت النفوذ الامريكي.

٤ ـ واذا حدث ذلك ـ مع انه من الصعب لاسباب كثيرة ان يحدث ـ فان معنى سيادة النفوذ الامريكي في المنطقة هو: اسرائيل سيدة في المنطقة!

.....

.....

من ذلك كله، فلعل هناك في الكيس الذي يضم نتائج مؤتمر القمة في الجزائر ـ رسالة الى الاتحاد السوفيتي:

رسالة تؤكد له تمسكنا بصداقته، واهتمامنا بدوره، وتقديرنا لتأييده السياسي والعسكري، كل ذلك لاسباب عقلانية، لا هي انشائية ولا هي شعرية، ولا هي خطابية، صداقة عقل لعقل وهو النوع الوحيد من الصداقات الذي تعرفه العلاقات الدولية!

***

■ ■ ■ **ثانيا:** رسالة الى اوربا الغربية:

ان اوربا الغربية قضية بالغة الأهمية بالنسبة لنا لمجموعة اسباب حضارية، ومجموعة اسباب تتصل بأمن البحر الابيض المتوسط، ومجموعة اسباب تتصل بمستقبل رخائنا المشترك من حول هذا البحر الابيض.

وليس هناك في اوروبا الغربية من عاد ينكر هذه الروابط الوثيقة بين الشرط الاوسط واوربا الغربية وان ظلت هناك بعض عقد من الماضي بينها:

١ ـ ان اوربا الغربية ـ او المجتمعات الغربية بصفة عامة ـ قبلت منطق المساواة مع المعسكر الاشتراكي في الشرق بعد عناء طويل، وربما لم يقبل الغرب منطق المساواة مع المعسكر الشرقي الا بعد ان كان الشرق قد كسب في سباق الذرة وفي سباق الفضاء.

ولكن العالم الغربي لم يقبل بعد منطق المساواة مع العالم الثالث الذي ننتمي اليه.

٢ ـ ان اوربا الغربية من هذا المنطق كانت، في احسن الاحوال، على استعداد لأن تبيع للعالم الثالث والشرق الاوسط في قلبه ـكلاما كلاما كلاما في مقابل ان تأخذ منه ميزات استراتيجية واقتصادية اهمها الآن وبغير منازع: موارد البترول!

□

لكن الشرق الاوسط تنبه. وحين جاء يوم ٦ اكتوبر واثبت الانسان العربي نفسه وكرم سلاحه وفتح الباب امام عناصر جديدة تدخل ساحة التأثير على ازمة الشرق الاوسط ـومنها سلاح البترولـ فان اوربا الغربية استفاقت من نوم عميق او وهم عريض وراحت تهرول الى وسيلة تخفف عنها ضغط سلاح البترول العربي.

ولم تكن اوربا الغربية تتصور ان هذا السيف سوف يخرج من جرابه ابدا، وحين خرج فانها بدت مأخوذة بالمفاجأة معنويا وبآثار المفاجأة عمليا.

وأتذكر مناقشات طويلة اجريتها في عدد من عواصم اوربا الغربية: مناقشات مع ادوارد هيث رئيس الوزراء واليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية في لندن ـومع ويلي برانت المستشار ووالتر شيل وزير الخارجية في بونـ ومع جيسكار ديستان وزير الاقتصاد وميشيل جوبير وزير الخارجية في باريس. . . .

كانوا جميعا وبغير استثناء لا يتصورون ان البترول سيؤدي دوره في أي مواجهة عربيةـ اسرائيلية قادمة، وأكاد اقول انهم ـوبغير استثناءـ لم يكونوا يتصورون ان هذه المواجهة سوف تحدث بالسلاح وقريبا.

وحين كنت ألح عليهم في ان يأخذوا الاحتمال كفرضية للمناقشة فقد كان قولهم جميعا وبلا استثناء، وبالحرف الواحد تقريبا:

ـ ومادا تريدون منا في هذه الحالة؟

تريدون ان تضغطوا علينا. . . لكي نضغط نحن على الولايات

المتحدة... لكي تضغط الولايات المتحدة على اسرائيل... لكي تنسحب اسرائيل من اراضيكم المحتلة؟!

ثم كانوا يضيفون:

- نحن- ابتداء -لا نملك وسيلة للضغط على الولايات المتحدة... كل ما نستطيعه هو ان نقول لها رأينا وقد قلناه وليس في طاقتنا ما هو اكثر.

□

وفي يوم ٦ اكتوبر -وقيمة الانسان وقوة السلاح فيه- استيقظت اوربا الغربية واذا سيف البترول خارج من جرابه فعلا.

وكانت هذه من ساعات الحقيقة في اوربا الغربية.

وكانت العلاقات بين اوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية متوترة فعلا لأسباب لا علاقة لها بأزمة الشرق الاوسط.

من هذه الاسباب مثلا سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتي وكان الرأي الغالب في اوربا الغربية -باريس بالذات- ان الوفاق على النحو الذي تم به سوف يترك اوربا الغربية مكشوفة امام قوة سوفيتية هائلة.

من هذه الاسباب مثلا خلل في النظام النقدي العالمي سببته السياسة الامريكية وعانى منه الاقتصاد الاوربي.

من هذه الاسباب مثلا مقترحات لأمن اوربا تصورها الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الذي اعلن ان عام ١٩٧٣ سوف يكون عام اوربا ونسي قبل ذلك ان يستشير اوربا في عامها الذي اعلنه!

اضيفت بعد حرب الشرق الاوسط الى هذه الاسباب القديمة...
اسباب اخرى جديدة:

من هذه الاسباب الجديدة ان اوربا الغربية وجدت سيف البترول

الذي خرج من جرابه مشهراً فوق رأسها لما لا ذنب لها فيه حسب تصورها.

ومن هذه الاسباب الجديدة ان الولايات المتحدة اعلنت حالة التأهب النووي في قواعدها في اوربا دون ان تستشير دولا تقع هذه القواعد على ارضها وتحت سيادتها الوطنية.

ومن هذه الاسباب الجديدة ان الولايات المتحدة راحت تشحن السلاح لاسرائيل من قواعدها في اوربا دون ان تعرف هذه الدول ان السلاح يشحن منها لاسرائيل.

وحين ابدت اوربا ضيقها مما حدث لها ـفان رد الولايات المتحدة بلسان وزير خارجيتها الدكتور هنري كيسنجر جاء اتهاما لاوربا بالانتهازية وبأنها حين تشعر بالخوف ترتمي في احضان امريكا فاذا احست بالأمان تنكرت لهذه الأحضان.

□

كانت اوربا الغربية حتى يوم ٦ اكتوبر مجرد تعبير سياسي ولكنها لم تكن بعد قد اصبحت قوة سياسية... اي ارادة سياسية واحدة.

وربما كان هذا هو الذي دعا الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو الى اقتراحه بعقد مؤتمر قمة اوربي تحضره دول السوق الاوربية المشتركة التسع وهو اجتماع تقرر فعلا وتحدد له يوم ١٤ ديسمبر القادم في كوبنهاجن عاصمة الدانمرك.

ويقول الواقع ان حرب ٦ اكتوبر اكدت وحدة الأمة العربية وربما يقول التاريخ ان حرب ٦ اكتوبر اكدت وحدة اوربا الغربية وربما تصنع منها حقيقة سياسية بعد ان كانت تعبيرا جغرافيا... وربما تصنع منها ارادة سياسية واحدة بعد ان كانت مصطلحا سياسيا عاما.

وهذه فرصة ملائمة لنا كي نستطيع احداث تأثير نطلبه على سياسة

اوربا الغربية تجاه ازمتنا الراهنة وتجاه مستقبلنا بعد هذه الأزمة.

وهناك ـفيما بدا امامنـا ـ حقائق لا بـد ان نحسن تقديـرها قبـل اجتماع مؤتمر القمة الاوربي المقبل:

١ ـ ان اوربا لا تملك وسائل للضغط كبيرة على الولايات المتحدة.

٢ ـ ان اوربا الغربية ـدول السوقـ سوف تظل ملتزمة بـالتضامن بينهـا والا تحطمت فكرة السوق من اساسها، ومعنى ذلك ان الحـظر الذي فـرضناه على هولندا وحدها لن يؤثر عـلى هولنـدا وحدهـا كما نتصـور لان دول السوق سوف تتضامن معها فيما لديها جميعا من موارد الطاقة ـوهذا يحدث فعلا.

٣ ـ ان اوربا الغربية اعطتنا بيانا بتأييدها لقـرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ واننا قبلنا هذا البيان واوقفنـا نسبة خفض صـادرات البترول اليهـا كما كـانت مقررة في شهر ديسمبر.

٤ ـ هناك دلائل تشير الى اننا سوف نفعل ذلك ايضا مـع نسبة الخفض المقررة بعد ذلك في شهر يناير ومعنى ذلك اننا قبلنا كلامـا كلامـا، كلامـا وفي مقابله فاننا رفعنا سلاحنا.

□

محصلة ذلك ليست مرضية لنا تماما فيما اظن وعلينا ان نفكر من جديد.

ان كـل خطة تمـر في مرحلتـين: مـرحلة وضـع هـذه الخـطة وطـرحهـا للتنفيذ.

مـرحلة الحركـة التي تنشأ من الفعـل ورد الفعل عنـد طرح ايـة خـطة للتنفيذ.

ولقد احدثت مرحلة وضع الخطة وطرحها للتنفيذ آثارها فعلا على اوربا الغربية فقد ثبت لها ان سلاح البترول في يدنا واننا قادرون على استعماله وان

استعماله كفيل بوضع ارادتنا حيث نريد لها ان تكون.

ثم ان مرحلة الحركة التي نشأت من الفعل ورد الفعل اثبتت حقائق لا يمكن تجاهلها وهي سلسلة مترابطة الحلقات:

اوربا لا تستطيع ان تضغط على الولايات المتحدة -اوربا مضطرة للتضامن مع بعضها والا ضاعت منها وحدتها- اوربا سوف تعطينا كلاما وهذا هو كل ما تملكه في ازمة الشرق الاوسط ازاء امريكا -لا نستطيع ان نطلب من آخرين ان يفعلوا ما هو خارج قدرتهم والا فاننا سوف نفرض عليهم عقابا لا يستحقونه.

الحل اذن ان نعاند ضد الواقع، او نرفع سلاح البترول عن اوربا وهو لم يحقق شيئا مذكورا الا انه اثبت فاعليته كسلاح...

واذن ... ماذا؟

□

اذن قد يكون لنا ان نتحرك الى وضع جديد.

لماذا نحبس انفسنا في تصور ان اوربا تستطيع ان تضغط على امريكا؟

اذا كانت لا تستطيع واذا اقتنعنا بانها لا تستطيع -وهذه مسألة تستحق ان ندرسها اكثر- فاننا قد نطور موقفنا لنطلب من اوربا ان تعطينا وسائل نضغط نحن بها على امريكا.

وفي هذا الصدد فهناك تصورات متعددة نستطيع ان نفكر في بعضها او فيها كلها:

١ - لماذا لا نقول لأوربا -وقد طرحت هذه الفكرة هنا قبل عدة اسابيع:

البترول سلعة استراتيجية... سوف نعطيها لكم ونشتري منكم سلعا استراتيجية اخرى... نريد سلاحا نضيفه الى ما عندنا لنضغط بذلك على

اسرائيل. . . ثم لنضغط بذلك على امريكا سلعة استراتيجية بسلعة استراتيجية. . . هذه شروطنا؟

٢ ـ لماذا لا نقول لاوربا:

ـ نحن نريد ان نبني صناعة اسلحة عربية حديثة، وسلاح الحرب الحديثة الاخطر كما اثبتت معارك اكتوبر هو الاليكترونيات وانتم فيها متقدمون حتى على الولايات المتحدة. . . تعالوا وتعاونوا معنا في بناء صناعة اسلحة عربية اليكترونية بالدرجة الاولى.

[لعلنا نفعل ذلك ـ اذا فعلناه ـ بدون وساطة سماسرة، وتجار سوق سوداء].

٣ ـ لماذا لا نقول لاوربا:

ـ ان الارباح الهائلة من البترول لا تجيء من مجرد استخراجه ولكنها تجيء من تكريره ومن الصناعات البتروكيماوية التي تتصل بصناعات التكرير ونحن نريد البترول لنا. . . نريد حقوله في اراضينا وصناعته عليها. . . ولديكم في ذلك خبرة وهناك مجال لتعاون وثيق بيننا خصوصا وانتم اكثر من يحتاجون اليه، فالاتحاد السوفيتي لديه ما يكفيه ولو مؤقتا، والولايات المتحدة تستطيع بجهد اكبر وتكاليف اكثر ان تستغني عنه كطاقة وان كانت تريد مواصلة استغلاله كمصدر ربح تجاري.

٤ ـ لماذا لا نقول لاوربا:

ـ اذا اصبحتمَ ارادة سياسية واحدة، واذا اصبحت لكم نظرية امن مستقل عن الولايات المتحدة فاننا لا نرى تعارضا بين امنكم وأمننا لان البحر الابيض صلة بيننا ولا يمكن دعم أمن اوربي بدون دعم امن عربي.

تعالوا نبحث كيف يمكن للأمن الاوربي ان يخدم الأمن العربي وكيف

يمكن للأمن العربي ان يخدم الأمن الاوربي؟

. . . . . .

. . . . . .

من ذلك كله، فلعل هناك في الكيس الذي يضم نتائج مؤتمر القمة في الجزائر، رسالة الى اوربا الغربية .

رسالة تقترح اساسا جديدا لتعاون حر متكافىء يقوم على مصالح رخاء متبادلة ومصالح امن متصلة.

رسالة تقول: لنترك رواسب الماضي وعقده. . . ولنبدأ من جديد تجربة جديدة وعلى قدم المساواة.

***

■ ■ ■ **ثالثا**: رسالة الى افريقيا:

ان افريقيا تضامنت معنا وربطت مصيرها بمصيرنا ويجب الا نترك هذا العامل المضاف الى القوة العربية يتفكك او يدركه الوهن.

وافريقيا في مرحلة نمو وهي تقول الى جانب كل ما تقول به ان ارتفاع اسعار البترول سوف يؤثر في نموها.

واسعار البترول لن تعود الى الوراء وهناك اسباب عديدة اقتصادية وسياسية تحول دون ذلك.

ومن الظواهر المشجعة ان الدول العربية التي خفضت انتاجها من البترول لم يتأثر دخلها وانما زاد دخلها بسبب زيادة الاسعار الهائلة.

وعلى سبيل المثال ما يلي:

● السعودية:

كان انتاج السعودية من البترول خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ -اي قبل التخفيض هو: ٨,٥٤٩,٠٠٠برميل يوميا.

وكان العائد منه هو ١٥,٣٠٠,٠٠٠ دولار يوميا.

وانخفض انتاج البترول في شهر نوفمبر ١٩٧٣.

اصبح الانتاج ٦,٤١٢,٠٠٠ برميل يوميا. ولكن الدخل ارتفع فاصبح ١٩,٢٤٠,٠٠٠ دولار يوميا.

● كان انتاج الكويت من البترول خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ -أي قبل التخفيض هو:

٣,٥٠٦,٠٠٠ برميل يوميا. وكان العائد منه هو ٦,١٤٠,٠٠٠ دولار يوميا.

وانخفض انتاج البترول في شهر نوفمبر ١٩٧٣، اصبح الانتاج ٢,٦٢٨٦٠٠٠ برميل يوميا. ولكن الدخل ارتفع فاصبح ٧,٧٣٠,٠٠٠ دولار يوميا.

وهكذا بقية الدول العربية التي خفضت انتاجها من البترول ومع ذلك زاد دخلها منه.

أي انها استطاعت بنفس الضربة التي اتاحتها لها ظروف أزمة الشرق الاوسط ان تحقق اربعة اهداف.

● ادخرت ثروتها الطبيعية وصانتها من الاستنزاف.

● زادت دخلها برغم تخفيض انتاجها.

● اكتسبت لنفسها قوة تأثير عالمي غلاب.

● أدت لأمتها العربية خدمة عظيمة وشاركت في نضالها مشاركة ايجابية قوت وعززت.

□

ولم يعد ممكنا ان تعود اسعار البترول الى الوراء.

وليس منطقيا ان تقول لنا الدول الصناعية المتقدمة: خفضوا اسعار بترولكم لكي نستطيع نحن مساعدة الدول النامية وافريقيا في مقدمتها».

لماذا لا نقوم نحن كأمة عربية بهذا الدور؟

لماذا لا تخصص بعض الزيادات في دخل البترول ـ برغم خفض نسبة انتاجه ـ في صندوق للمعونة نرصده للدول الافريقية. نقدم لها بغير استعلاء. . . وبغير سيادة من الرجل الابيض الذي عانت من سيطرته عليها طويلا.

ثم نجعلها على صلة بنضالنا خصوصا وانه ليس هناك تناقض بين اهدافهم واهدافنا. . . وانما نحن كأمة عربية، وهم هناك كشعوب افريقية ـ جزء من حركة واحدة هي حركة التحرر الوطني.

. . . . . .

. . . . . .

من ذلك كله، فلعل هناك في الكيس الذي يضم نتائج مؤتمر القمة في الجزائر رسالة الى افريقيا.

رسالة تصنع تاريخا جديدا للعالم النامي كله. . . تفتح امامه طريقا آمنا للتقدم مع الحرية. . . والحرية مع التقدم.

***

ثلاث رسائل. .

لعلنا نجدها اذا ما بحثنا ونقبنا داخل البيان الرسمي الثاني لمؤتمر الجزائر الذي يمكن له وبغير تجاوز ان يصبح نقطة التحول الكبرى في العمل العربي المشترك. . .

(١)
إسرائيل .. ما يجري وما جرى؟!

٧ ديسمبر ١٩٧٣

سوف يتأثر شكل الحوادث القادمة في الشرق الاوسط، الى حد كبير، بما يجري في اسرائيل خلال هذا الشهر: ديسمبر ١٩٧٣.

ومن الآن، وحتى آخر يوم في هذا الشهر: ٣١ ديسمبر، سوف تصل المعركة الانتخابية الى ذروتها وسوف تنتهي على نحو او آخر الى نتيجتها . . .

والانتخابات العامة -في بعض المجتمعات- هي فترة حوار حاد بين الافكار والشخصيات والسياسات والخطط ومستويات الاداء. وعندما يشتد الحوار فان التعبير عادة يكون بغير حساب كما ان النوايا يمكن ان تظهر بغير براقع، وفضلا عن ذلك فان نتيجة الانتخابات العامة -في هذه المجتمعات- تحسم ولعدد محدد من السنين: اي نوع من الافكار والشخصيات والسياسات والخطط ومستويات الاداء -سوف تكون له السلطة وسوف يملك في يده القرار . . .

وعندما تجري الانتخابات العامة في ظروف غير عادية فان الامر يصبح اكثر مدعاة للاهتمام، ذلك لان ضغط الظروف لا يكشف الصورة فحسب، وانما يصل الى حد تعريتها تماما . . .

واذا جرت الانتخابات العامة، وجرت في ظروف غير عادية، وجرت

في بلد غير عادي، وكان هذا البلد هو اسرائيل بالذات ـاذن فنحن امام تجربة فريدة تستحق متابعة دقيقة، تحت نظر عدسات تكبر، وتحت سمع ميكروفونات تضخم، حتى لا تفوتنا خلجة او همسة..

... حتى لا تفوتنا خلجة او همسة لأن الصراع هناك معقد الى درجة غريبة: أجيال قديمة واجيال جديدة، قيم من الاساطير وقيم من العلم، فلسفات محاصرة وفلسفات تحاول ان تشق لنفسها منفذا للخلاص، شتات من الغرب وشتات من الشرق، حقائق واقعة وسراب يصنعه الوهم، حزازات قديمة وعداوات طارئة، خصومات اصدقاء وصداقات خصوم، شيوخ وشباب، ساسة وساسة، جنرالات وساسة، جنرالات وجنرالات... الى آخره..

وفوق ان الصراع معقد الى درجة غريبة، فان نتيجته يمكن ان تكون خطيرة، لانها قد تؤثر مباشرة على قضية الحرب والسلام في الشرق الاوسط، وان كنت اقول مقدما ان تأثيرها على قضية الحرب سوف يكون اكثر لأن اسرائيل ليست بتكوينها ولا هي باهدافها، ولا هي بمزاجها العام مجتمع سلام!

ولأسباب عديدة، بعضها ظاهر على السطح، وبعضها غائر في اعماق النفس الاسرائيلية فان قضية الحرب في اسرائيل هي المصدر الاساسي لقانون وجودها ذاته:

- هناك مشكلة الامن ونظرية الأمن.
- هناك البقعة الاسرائيلية وسط الحصار العربي الكبير.
- هناك رواسب التاريخ اليهودي وتعقيداته.
- وهناك نظرة اسرائيل الى العرب واعتقاد من فيها ان الطلقة اكثر نفاذا الى القلب العربي من الكلمة.

وهنـاك اسبـاب اخـرى كثيـرة. ولكننـا في النهـايـة امـام مجتمـع يؤمن بالعنف، ويتبنى سياسة القوة، ويتخـذ من الحرب عقيـدة يؤسس عليها ـحتى الآن ـ حياته مستقبله ، وهو ينظر الى الحـرب نظرة تختلف عن نـظرة غيره من المجتمعات لها:

● كان العالم المتمدن كله قد قبل بتعريف «كلاوزفيتز» او الاستراتيجية الحديثة: بان «الحرب هي استمرار للسياسة بوسيلة اخرى» [تغير دلك بالنسبة للحرب النووية].

ولكن اسرائيل عمليا عكست تعبير كلاوزفيتز الشهير فأقنعت نفسها بان «السياسة هي استمرار للحرب بوسيلة اخرى».

● وكان العالم المتمدن كله قد استقر على ان الحرب «دقة عالية بالطبـل في سيمفونية العمل السياسي» وهي تـدوي في لحظة حـاسمة وعنـدما يقتضي الامر ضغطا على الايقاع يفرضه التأثير الدرامي.

لكن اسرائيل استعملت اوركسترا ليس فيه غير الطبول!

● وكان العالم المتمدن قد استقر ـخلافا للانطباع السـطحي السريـع ـ على ان اخطاء الساسة هي التي تصنـع الحرب وكفـاءة الجنود هي التي تصنـع السلام.

فالحرب تجيء حـين يعجز السـاسة، كـما ان السلام يجيء حـين ينجح الجنود.

لكن اسرائيل وحدها مختلفة: جنرالاتها وساستها معا شركاء في خـطيئة واحدة: خطيئة حرب بغير سلام!

* * *

من ذلك كله فان «الحرب» ـ الحرب التي وقعت يوم ٦ اكتوبـر والحرب

التي قد تقع في اي لحظة ـهي محور المعركة الانتخابية الدائرة الآن في اسرائيل.

والحرب التي وقعت يوم ٦ اكتوبر تجربة كاملة تمت فعلا امام عيوننا، ومن هنا فان دراستها خصوصا فيما يتصل بالتأثير على الانتخابات العامة الدائرة الآن في اسرائيل تصبح شيئا ضروريا اذا كان علينا ان نتابع هذه الانتخابات ونتائجها القريبة والبعيدة شاعرين انها موضوع وثيق الصلة بنا لأننا الطرف الآخر في هذه الحرب التي وقعت، كما اننا الطرف الآخر في تلك الحرب التي يمكن ان تقع.

□

ولو ان احدا سألني:

ـ ما هو تقييمي لحرب اكتوبر ونتائجها؟»

لقلت بما يلي:

ـ لا استطيع، وربما لا يستطيع احد ان يعطي الآن تقييما نهائيا لحرب اكتوبر، فهذه الحرب ما زالت دائرة برغم قرار وقف اطلاق النار.

لقد جرى اعتراض سير المعارك بفعل عوامل محلية ودولية، ثم امسكت مجموعة موازين على الأرض وفي العالم بعمليات القتال... لكن الستار لم ينزل بعد على مشهد نهائي من مسرح المعقول او اللامعقول! والأوضاع الراهنة بالنسبة للطرفين دقيقة... اكاد اقول انها حرجة... لكن الميزان ما زال معلقا لم ترجح بعد كفة على كفة».

ثم كنت أضيف:

ـ بصرف النظر عن العوامل التي اعترضت سير المعارك، وعن الموازين

التي امسكت بعمليات القتال، وعن الستار المرفوع، وعن الميزان المعلق- بصرف النظر عن ذلك كله، فان هناك حقيقة كبرى لا يمكن انكارها وهي:

«انه مهما كان المشهد والنتيجة والوضع الاخير الذي تنتهي اليه الحرب الدائرة الآن -فان نظرية الأمن الاسرائيلي قد اصيبت بضربة قاسية وشديدة بالذات في الاسبوع الأول من الحرب... ان هذه الضربة القاسية والشديدة احدثت بنظرية الأمن الاسرائيلي ما يمكن ان نسميه عاهة مستديمة سوف تبقى معها باستمرار، حتى اذا تحولت النتيجة النهائية لهذه الحرب -لا سمح الله- الى صالحها تماما.

كانت نظرية الأمن الاسرائيلي تقوم على الفرض بالقوة وكانت ترتكز على ثلاث دعائم واضحة بالنسبة لاسرائيل:

١ - المبادأة في يدها دائما.
٢ - المفاجأة ليست عندها ابدا.
٣ - كفاءة القتال [التخطيط والسلاح وشجاعة الرجال] حكر لها لا ينازعها فيه غيرها في المنطقة.

وهذه الدعائم كلها اهتزت يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣، واهتزت بالتالي نظرية الأمن القائمة فوقها».

ولو اردت ان الخص بسرعة لقلت:

- اننا نستطيع على الأقل اعتبار الاسبوع الاول من حرب اكتوبر بمثابة «رسالة الى الحرب القادمة».

ولو اردت ان استشهد لنقلت عن شخصية دولية لقيتها اخيرا نص حوار دار بينها وبين السيدة جولدامائير رئيسة وزراء اسرائيل كان لقاؤهما اخيرا في عاصمة اوربية، وقالت جولدا مائير لمحدثها -وقد سمعت القصة منه

بنفسي وان كان قد طلب مني عدم نسبتها اليه- ما يلي:

- انني اعتبر اننا انتصرنا في حرب اكتوبر: لقد دفعنا السوريين وراء الخط الذي بدأوا القتال منه عشرة كيلومترات الى الوراء. . . ثم اننا نجحنا في اختراق الخطوط المصرية شرق قناة السويس ووصلنا الى مناطق في الغرب من قناة السويس».

وقال لها هو:

- بالمقاييس التاكتيكية فربما يكون ما تقولينه صحيحا. . . واقول ربما لأن المعركة ما زالت مفتوحة لكل الاحتمالات. . . لكننا اذا اعتمدنا المقاييس الاستراتيجية فسوف نقول انكم خسرتم مهما كانت الاحتمالات. . . لا اقول انكم هزمتم. . . ولكن اقول انكم خسرتم. . . ربحتم تاكتيكيا. . . ربما كان ذلك صحيحا. . . وخسرتم استراتيجيا. . . وهذا امامنا مؤكد.

لماذا؟

لقد كنتم تعتمدون منطقا معينا اصبحت له في تقديراتكم قوة القانون -اقصد نظرية الأمن الاسرائيلي- ولكن ما كنتم تعتبرونه قانونا لم يعد كذلك في الواقع. . . الموازين بدأت تتغير. . . لا اقول انها انقلبت رأسا على عقب ولكن اقول ببساطة ان ما كنتم تعتمدون عليه في السابق استراتيجيا اصبح معرضا للتحدي.

ان العرب اخذوا المبادأة في يدهم، ثم ان المفاجأة كانت عليكم ثم انهم قاتلوا بكفاءة وهذه كلها عوامل لم تكن في حساب نظرية الامن الاسرائيلي

لقد كنتم مطمئنين دائما الى فجوة واسعة بين الانسان الاسرائيلي وبين الانسان العربي ولقد اثبت الانسان العربي ان الفجوةليستواسعة الى الدرجة

التي كنتم مطمئنين اليها وهذه الرسالة تحذير خطيرة اليكم مؤداها ما يلي:

«هذه المرة كانت الامور سيئة... في المرة القادمة فان الامور يمكن ان تكون اسوأ».

هكذا اقول -يا سيدتي- انكم ربما تربحون هذه المرة تكتيكيا، ولكنكم خسرتم استراتيجيا، وهذا ما ينبغي ان تأخذوه في حسابكم.

هذا ما اقوله... ولا اقول اكثر منه، ولا اقول غيره».

* * *

وربما كان مفيدا- ولعله مهم -ان نراجع ما حدث في اسرائيل يوم ٦ اكتوبر **١٩٧٣** وما حوله.

واتذكر انني كتبت في اعقابه مباشرة اقول:

«ان جنرالات اسرائيل ضبطوا وبنطلوناتهم مدلاة في الحمام على حد ما يقول التعبير الانجليزي».

ثم انني كتبت اقول:

«ان رؤوسا كثيرة سوف تتدحرج في اسرائيل نتيجة لما حدث في الأيام الاولى للحرب وفي مقدمتها رأس الجنرال موشي ديان

لكني عندما كتبت ذلك في وقته لم تكن امامي صورة مفصلة لما حدث في اسرائيل في تلك الفترة.

والان فلعلي استطعت تجميع كثير من التفاصيل أثق في مصادرها -وهي عديدة وعلى درجات تسمح لها بأن تعرف حقيقة ما حدث...

□

كانت القيادة العسكرية الاسرائيلية، والجنرال موشي ديان وزير الدفاع على رأسها، متأكدة تماما من تقديراتها للموقف:

١ ـ انور السادات لن يجسر على اتخاذ قرار الحرب.
٢ ـ خط بارليف على حافة القناة عائق منيع كفيل بوقف أي مغامرة.
٣ ـ قوة اسرائيل العسكرية قادرة على تدمير اي هجوم يتخطى ـعلى فرض وقوع المعجزةـ حدود خط بارليف.

٤ ـ القوة العربية العامة ممزقة ولن يكون هناك تنسيق عربي من أي نوع.

وكانت القيادة السياسية في اسرائيل والسيدة جولدا مائير على رأسها ـشريكا مقتنعا بتقديرات القيادة العسكرية.

وكانت الانتخابات على الابواب والهالة التي تحيط بالجنرالات المنتصرين تعطيهم نفوذا سياسيا واسعا الى درجة ان الجنرال ديان لم يفرض البرنامج الانتخابي لحزب العمل فحسب، بل انه فرض مرشحيه ايضا وكان قوله المشهور:

ـ ليس المهم ان يوضع برنامج يرضيني، ولكن المهم ان اكون راضيا عن هؤلاء الذين سوف يكون هذا البرنامج في ايديهم».

وكانت النقطة الحيوية في برنامج حزب العمل هي خطط التوسع في الأرض المحتلة وكان هناك من يقاومون الجنرال ديان ولكن احدهم لم يكن يجرؤ على المعارضة العلنية لآرائه.

ووصل الحال الى حد ان ضيفا اجنبيا كبيرا كان يزور اسرائيل وتقابل في حفل عشاء في بيت الجنرال حاييم هرتزوج مع عدد من قادة اسرائيل وبينهم الجنرال موشي ديان ووزير الخارجية ابا ايبان.

وتضايق الضيف الاجنبي من الطريقة التي كان ديان يتكلم بها وقال له صراحة:

ـ انك مملوء بالخيلاء يا سيدي الجنرال وانا لا احب الممتلئين بالخيلاء!»

وكان ديان يبتسم واثقا من نفسه.

ثم خرج هذا الضيف بعد العشاء مع ابا ايبان وفي طريقهما خارج بيت الجنرال هرتزوج لركوب سيارتيهما قال الضيف الاجنبي مشيرا الى حديثه مع ديان:

ـ ان غروره لا يطاق... ولا اظن انني أرغب في مقابلته مرة اخرى.

وقال ايبان:

ـ هذه هي طبيعته... ولكننا نحاول ترويضه.

وقال الضيف الاجنبي:

ـ عندما اتصور ان هذا الرجل يمكن ان يصبح رئيسا لوزراء اسرائيل فان فرائصي ترتعش.

وكان رد ابا ايبان:

ـ لن يكون رئيسا للوزراء في يوم من الأيام...

ثم اضاف ايبان هامسا:

ـ لن يحدث ذلك الا فوق جثتي!

□

ان لجنة التحقيق الخاصة التي تتقصى الآن ما حدث في اسرائيل يوم ٦ اكتوبر وما حوله والتي يرأسها قاضي المحكمة العليا شيمون اجرانات والتي تضم في عضويتها اربعة غير رئيسها هم: المستشار موشي لاندو والجنرالات

بيجال يادين وحاييم لاسكوف، وكلاهما كان رئيسا من قبل لهيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي، ثم الدكتور ايزاك نيبنزهل، مراقب اعمال الدولة في اسرائيل ـسوف تكتشف ظاهرة غريبة تلك هي ان اسرائيل فوجئت بحرب اكتوبر ولم تفاجأ بها في الوقت نفسه!!

واذا بدا هذا القول متناقضا فلعلي اضيف:

ـ ان اسرائيل فوجئت استراتيجيا، ولم تفاجأ تاكتيكيا فوجئت استراتيجيا: لأنها لم تعلم مسبقا بنية الهجوم العربي وبحجمه، ومداه، واهدافه ـفي وقت يسمح لها بملاقاته.

ولم تفاجأ تاكتيكيا: لأنها رأت امامها من الشواهد ما يدل على احتمال نشوب قتال على الجبهة المصرية والسورية ثم انها قدرت احتمال نشوب عمليات عسكرية وكان ذلك مساء يوم الخميس ٤ اكتوبر طبقا لروايات اثق في مصادرها وبالتالي في صحتها.

□

كانت هناك حشود على الجبهة المصرية وحشود على الجبهة السورية ورصدت المخابرات الاسرائيلية العسكرية هذه الحشود قبلها بأربعة او خمسة أيام، ثم جرى نقاش طويل من حول طبيعة هذه الحشود شاركت فيه ادارة المخابرات العسكرية الاسرائيلية وهيئة المخابرات العامة في اسرائيل، ثم انتقل النقاش من حول طبيعة هذه الحشود الى هيئة العمليات في الجيش الاسرائيلي ثم هيئة اركان الحرب.

وكان هناك فيما يبدو رأيان برزا خلال النقاش:

رأي يتزعمه الجنرال الياهو زائيرا رئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية، وهو يقول بما يلي:

● ان الحشود على الجبهة السورية جزء من التوتر العام الذي اعقب اشتباك الطيران السوري والاسرائيلي يوم ١٣ سبتمبر.

● ان الحشود على الجبهة المصرية قد تكون نوعا من التضامن مع سوريا لطمأنتها، او ربما كانت بسبب مناورات الخريف التي تجريها مصر عادة في مثل هذا الوقت من كل سنة.

رأي آخر كان ينادي به بعض الضباط الشبان في المخابرات، وهو يقول بما يلي:

● ان الحشود على الجبهتين -كما يبدو من عمليات الاستطلاع- اكبر من حالة التوتر العادي بعد اشتباك الطيران يوم ١٣ سبتمبر.

● ان اوضاع القوات المحتشدة على الجبهتين اوضاع هجومية وليست اوضاعا دفاعية تتأهب لحالة توتر يخشى معها من هجوم اسرائيلي.

وكان الرأي الذي ساد في النهاية هو رأي الجنرالات، واستمر ذلك حتى يوم الخميس ٤ اكتوبر.

□

بشكل ما، وبطريقة ما- تلقت اسرائيل مساء يوم الخميس معلومات عن احتمال وجود نية هجوم وشيك تقوم به مصر وسوريا، وكانت هذه المعلومات تشير الى ان موعدالهجوم هو آخر ضوء -غروب- يوم ٦ اكتوبر.

[ومما يدعونا الى الاهتمام هنا بهذه النقطة، ان ذلك الموعد كان هو ساعة الصفر في الخطة الاصلية، وقد تغيرت هذه الساعة يوم ٣ اكتوبر فتقدمت عن موعدها في التخطيط العربي النهائي للعمليات واصبحت الساعة الثانية بعد الظهر].

وفي ليلة الجمعة وصباح يوم الجمعة ٥ اكتوبر، كانت اجهزة الاستطلاع

والرصد الاسرائيلية قد كلفت بتأكيد او نفي هذه المعلومات. وفي عصر يوم الجمعة ٥ اكتوبر كانت هذه المعلومات شبه مؤكدة بوساطة عمليات استطلاع اليكتروني واستطلاع جوي.

ويروي الجنرال «ارييل شارون» ـالذي قاد فيها بعد هجوم اسرائيل على الضفة الغربية من السويس ـ انه ذهب يوم الجمعة الى مقر القيادة الجنوبية الاسرائيلية في سيناء والتقى هناك مع «الجنرال جونين» القائد العام لهذه الجبهة ثم دخل معه الى غرفة الخرائط والمعلومات في قيادته ثم دقق في احدى الصور الفوتوغرافية للاستطلاع الجوي وأذهله ما رآه والتفت الى «الجنرال جونين» وقال له:

ـ اليست هذه جسورعبور . . . ان المصريين ينوون عبور قناة السويس. . . ان الامر لم يعد يحتمل اي شك الآن!»

□

كان مساء يوم الجمعة مشحونا في بيت السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل فقد ذهب اليها الجنرال موشي ديان وزير الدفاع والجنرال دافيد اليعازر رئيس هيئة اركان الحرب يحملان اليها نتائج الاستطلاع وكلها تشير الى نية هجوم مصري سوري وشيك.

واستدعت رئيسة وزراء اسرائيل بعضا من وزرائها المقربين ودارت مناقشة طويلة وكانت التساؤلات تدور حول نقطتين:

- ان المعلومات والصور تقول بنية هجوم وشيك. . .
- ولكن هل يمكن تصديق ذلك سياسيا. . . ؟

كانت المعلومات الجديدة في صراع مع القناعات التي سبقتها. واستقر الرأي على التركيز في اتجاهين:

اتصال سياسي مع الولايات المتحدة، وعن طريقها مع الاتحاد السوفيتي ومصر وسوريا للتنبيه والتحذير.

دراسة احتمالات توجيه ضربة مضادة، ضربة اجهاض -كما يقولون- قبل ان تتحرك الجيوش المصرية والسورية على الجبهتين.

وتولت السيدة جولدا مائير بنفسها مسئولية الاتجاه الاول [الاتصال السياسي مع الولايات المتحدة وعن طريقها بغيرها. .]

وتولى الجنرال موشي ديان بنفسه مسئولية الاتجاه الثاني [دراسة احتمالات ضربة اجهاض].

□

واتصلت جولدا مائير بالتليفون السري المباشر مع سفيرها في واشنطن «سيمحا دينتز» -وكان مدير مكتبها من قبل- وطلبت ان تتحدث مع وزير خارجيتها ابا ايبان الذي كان موجودا في نيويورك تلك الليلة وابلغته بان يتصل بالرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون وان ينقل اليه ما لدى اسرائيل من معلومات وان يطلب تدخله.

واتصل ابا ايبان بالدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية ونقل اليه ما تلقاه.

كان الوقت يجري بسرعة. .

كان الفجر لم يطلع بعد في واشنطن وكان «كيسنجر» نائما، ولكنه -بعد انتهاء مكالمة ابا إيبان معه- طلب توصيله على التليفون بوكالة المخابرات المركزية الامريكية ليسألها تأكيدا للمعلومات الاسرائيلية قبل ان يتصل هو بالرئيس الامريكي «ريتشارد نيكسون» ويوقظه من النوم.

وتلقى «الدكتور كيسنجر» ردا بأن هناك -كما قالت تقارير سابقة- حشودا على الجبهتين المصرية والسورية، ثم ان هناك في الساعات الاخيرة

اشـارات الى احتمالات نشـوب قتال، ولكن الامـر لا يبـدو مؤكـدا بـطريقـة حاسمة.

واتصل كيسنجر بالرئيس الامريكي فأيقظه من النوم وأبلغـه بما حـدث واتفق معه على ما يمكن عمله وبعدهـا اجرى كيسنجـر اتصالـين احدهمـا مع الاتحاد السوفيتي والثاني مع مصر:

واتصل الدكتور هنري كيسنجـر بالسفـير السوفيتي في واشنـطن اناتـولي دوبرينين ليتصل بسرعة بالكرملين، ثم امر كيسنجـر بفتح الخط السـاخن بين البيت الابيض والكرملين مباشـرة لنقل رسـالة من بنـدين باسم نيكسـون الى بريجنيف:

● اذا كان في نية مصر وسوريا القيام بهجوم على اسرائيل فان الولايات المتحدة ترجو ان يتدخل الاتحاد السوفيتي للحيلولة دون وقوع مأساة اخرى في الشرق الاوسط.

● اذا كانت حشود مصر وسوريا تخوفا من هجوم اسرائيلي محتمـل بعد التوتر الناشىء من اشتباك الطائرات يوم ١٣ سبتمبر - فـان الولايـات المتحدة تستطيع ان تؤكد بالنيابة عن اسرائيل ان اسرائيل ليست لديها نية هجوم.

ثم اتصل الدكتور هنري كيسنجر بوزير الخارجية المصري وقتها، وكان هو الآخر في نيويورك، يرجوه ان يتصل بالقاهرة فورا لابلاغ الرئيس السادات برسالة من الرئيس نيكسون [وكانت في مضمونها لا تخرج عن رسالة نيكسون الى بريجنيف].

وفي حين كان دوبرينين يتصل من واشنطن بالكرملين في مـوسكو - فـان وزير الخارجية المصري كان يتصل برئاسة الجمهورية في القاهرة.

كـانت الساعـة في نيويـورك وقتها السـادسة وعشـر دقائق من الصبـاح

بالضبط وكانت الساعة في القاهرة وقتها الواحدة وعشر دقائق بعد الظهر بالضبط.

وصلت الرسالة الى الرئيس السادات وكان قد انتقل الى مقر قيادة العمليات فعلا وامامه خرائط الخطة والدقائق والثواني تزحف في بطء ورهبة نحو ساعة الصفر وكان باقيا عليها بالضبط عشرون دقيقة لان موجة الهجوم الجوي الاولى بقرابة مائتي طائرة كان محددا لها الثانية الا عشر دقائق.

وفي ذلك الوقت تقريبا كان السفير السوفيتي في القاهرة فلاديمير فينوجرادوف يتصل برئاسة الجمهورية تليفونيا بناء على تعليمات تلقاها من موسكو: يسأل عما بلغهم عن طريق الرئيس نيكسون».

وقيل للسفير السوفيتي:

«ان القوات المصرية تقوم الآن برد هجوم قامت به القوات الاسرائيلية على بعض المواقع في خليج السويس، وان العملية قد تتطور».

□

في ساعات الفجر كان الجنرال موشي ديان يدخل ومعه الجنرال دافيد اليعازر وبعض الضباط من هيئة اركان الحرب الاسرائيلية ـ الى مكتب رئيسة وزراء اسرائيل السيدة جولدا مائير وكان يحمل معه تقديراته وتقديرات القيادة العسكرية الاسرائيلية لاحتمالات الضربة المضادة.

وليست عندي تفاصيل كاملة عن وقائع ما دار في هذا الاجتماع ولكن نتائجه قد تشير الى وقائع ما دار فيه.

لقد انتهى الاجتماع الى النتائج التالية:

١ ـ لقد فات الوقت لتوجيه ضربة اجهاض مؤثرة بالذات ضد الجيش المصري لان الامر يقتضي حشد قوات ليست جاهزة لهذه المهمة.

٢ ـ ان التدخل بنصف ضربة لن يأتي بأي نتيجة خصوصا وان مصر بنت في الشهور الاخيرة مواقع دفاعية ضخمة تستطيع ابطال اثر ضربة الاجهاض.

٣ ـ ان الاعتماد على الطيران وحده في ضربة الاجهاض المقترحة سوف يعرض الطيران الاسرائيلي لشبكة الصواريخ المصرية بطريقة مباشرة ومعنى ذلك ان اسرائيل يمكن ان تخسر في هذه المحاولة من طائراتها ما يعطى لمصر ميزة بدلا من ان يحرمها من ميزة.

٤ ـ ان البدء بضربة اجهاض غير مؤثرة، او غالية في تكاليفها من الطائرات، لن يكون له من نتيجة الا اظهار اسرائيل مرة اخرى بمظهر المعتدي وهو وضع لا تستطيع مواجهته عالميا مرة اخرى. وربما كان في استطاعتها مواجهته وليكن ما يكون اذا جاءت ضربة الاجهاض رادعة، اما وهي لن تكون رادعة فان البدء بها سوف يكون حماية سياسية بغير فاعلية عسكرية.

والغريب انه ظل حتى هذا الوقت المتأخر اتجاه يقول بان المصريين سوف يغيرون رأيهم في آخر لحظة... ثم انهم لن يعرفوا كيف يبدأون... ثم انهم اذا بدأوا فسوف تضيع المبادأة من أيديهم فور ان يبدأ التصدي الاسرائيلي لهم!

□

ودعت السيدة جولدا مائير بعد ذلك الى اجتماع لمجلس الوزراء بكامل هيئته وكانت الساعة التاسعة صباحا من يوم ٦ اكتوبر واتصلت المناقشات وكانت هناك آراء تحبذ الضربة المضادة مهما كان حجمها او بلغت تكاليفها ثم انتهى هذا الاجتماع بدوره الى القرارات التالية:

١ ـ تكثيف الاتصالات بالولايات المتحدة للسؤال عن نتيجة مساعيها.

٢ ـ دعوة الاحتياطي العام.

٣ ـ صدور امر انذاري بالتأهب الى قوات الجبهة.

٤ ـ على وزير الدفاع ورئيس اركان الحرب ان يعيدا النظر في امكانية توجيه ضربة اجهاض اذا لاحت لهما فرصة، حتى ولو كانت هذه الضربة بالطيران وحده.

وانتهى اجتماع مجلس الوزراء في الساعة الثانية عشرة ودقائق قليلة، ونظر احد الوزراء في ساعته وقال للجنرال ديان:

ـ ما زالت امامك اكثر من خمس ساعات ثمينة... ان المعلومات تقول بان الهجوم سوف يأتي مع آخر ضوء ونحن الآن في منتصف النهار... ومن الآن الى لحظتها فقد تتاح لك فرصة!»

وقال ديان وهو يجري مسرعا الى سيارته قاصدا وزارة الدفاع:

ـ سوف نرى ما يمكن عمله.

وأرسلت اشارة انذار الى كل القيادات من «تساهال» قيادة الجيش الاسرائيلي... وصدر القرار بالتعبئة العامة... وراحت اذاعة اسرائيل تردد اشارات استدعاء الاحتياطي المتفق عليها... وراحت سيارات الجيش تجمع الجنود من احتفالات يوم الغفران... ثم ان قيادات الجبهة التي تلقت الانذار راحت تحاول تبليغه الى وحدات الخط الامامي.

وكان مركز قيادة الاتصالات في «ام خشيب» ـفي سيناـ مشغولا بارسال اشارات الانذار الى وحدات الخط الامامي حينما انقضت عليه الصواريخ.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، فات الوقت، وانقضت المفاجأة.

* * *

وهم الآن في اسرائيل، ومع حمى المعركة الانتخابية يناقشون ويناقشون ويناقشون.

وسوف يبدو امامهم مهما كان او يكن تصدع في نظرية الأمن الاسرائيلي تحقق بالضبط في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من اكتوبر:

المبادأة ليست في يدهم هذه المرة.

ـ المفاجأة عندهم هذه المرة، ومثل هذه الصدع في مثـل ذلك المجتمـع ليس مجرد امر عسكري وانما هو صدع في البنيان الاجتماعي من اساسة لانـه يمس الفلسفة التي يقوم عليها هذا البنيان.

. . . . . .

. . . . . .

وبدأت وقائع الحرب وحـديثها يـطول لكنه يمكن تلخيص محصلتهـا في عبارة واحدة اقولها بمنتهى التحفظ:

ـ ليس هنـاك ما هـو اقرب للهـزيمة اكـثر من جيش انتشى بالنصـر لأن النصر ينسيه امكانية تغيير الموازين، كما انه ليس هناك ما هو اكثر قربا للنصـر من جيش قاسى الهزيمة لأن الهزيمة تعلمه ضرورة تغيير الموازين».

(٢)

إسرائيل: مايجري وماجرى

المراحل الثلاث لصراع الحرب

١٤ ديسمبر ١٩٧٣

منذ بدء الحضارة، وكل عمل انساني يمر في ثلاث مراحل متعاقبة، واحيانا تكون متداخلة، وهي:

- نقطة البداية [اي القرار]
- خط الممارسة [اي الحركة]
- ثم: المحصلة [اي النتائج]

ولو اعتبرنا ان الزراعة كانت مدخل الانسان الى الحضارة ـوهذا صحيح ـ لوجدنا ان المراحل الثلاث تتمثل فيما يلي:

- الغرس [وهو نقطة البداية، او القرار].
- الفلاحة [وهي حركة الرعاية المستمرة للغرس ومتابعة مراحل النمو والتنبه للعلاقة بالفعل ورد الفعل بين الانسان والارض، بما في ذلك حساب متغيرات الجو والاستعداد للعوارض الطارئة].
- الحصاد [وهو جمع النتائج التي يحققها الغرس والفلاحة، وحماية هذه النتائج، والاستفادة منها الى الحدود القصوى].

والسياسة، قديما وحديثا، لا تختلف عن ذلك كثيرا ـباعتبارها عملا انسانياـ وربما كان الفارق بين السياسة القديمة والسياسة الحديثة، هو زيادة

معدلات سرعة الحركة، وتغير الوسائل والادوات، واتساع رقعة العمل، وتنوع المؤثرات والاحتمالات ـلكن المعالم الرئيسية تبقى كما هي بدون اختلاف كبير:

● صنع القرار السياسي واتخاذه لتحقيق هدف من الاهداف المطلوبة.
● ادارة الصراع السياسي الشامل للوصول الى هذا الهدف المطلوب.
● استغلال العناصر التي تظهر من خلال ادارة الصراع وتوجيه النتائج التي تتحقق به للوصول الى حل يتلاءم ـاو هو قريبـ من الهدف المطلوب.

ولقد قلت في السطر الاول من هذا الحديث ان المراحل الثلاث في أي عمل: متعاقبة، واحيانا تكون متداخلة، والحقيقة ان الصلة بين المراحل الثلاث وثيقة الى درجة عضوية، اي انه:
● لا بد ان تكون نقطة البداية سليمة، لتكون هناك فرصة لممارسة سليمة، ثم لمحصلة نهائية سليمة.

● وقد يحدث احيانا ان يكون الغرس طيبا، ولكن الفلاحة تقصر في دورها، فلا يكون هناك حصاد، او ان يكون الغرس طيبا، وتكون الفلاحة واعية، ولكن اسلوب الحصاد يفسد المحصول، او يكون القصور في حماية المحصول بعد الحصاد فاذا اللصوص يسرقونه من «الجرن»!

● وقد يكون القرار السياسي صائبا في صنعه واتخاذه، ثم يحدث الخلل في مرحلة ادارة الصراع، او يحدث الخلل في مرحلة استغلال العناصر التي تظهر من خلال ارادته والخطأ في توجيهها بما يحقق الوصول الى حل يتلاءم ـاو يقتربـ من الهدف المطلوب.

وربما لاحظنا ـولا بد ان نلاحظـ ان المراحل الثلاث لأي عمل تعكس نفسها عند التطبيق العملي في ثلاث قسمات شبه مستقلة، برغم التداخل بين المراحل.

عند التطبيق العملي تبدو القسمات الثلاث المستقلة، ظاهرة واضحة على النحو التالي:

● في المرحلة الاولى [البداية -الغرس- القرار]، فان التصرف يكون في الواقع اشبه بحديث من جانب واحد [ما يسمونه مونولوج]، اي طرف قرر بنفسه ولنفسه، واخذ في يده المبادأة، وربما المفاجأة واقدم على عمل ما لتحقيق هدف ما.

● وفي المرحلة الثانية [الممارسة -الفلاحة- ادارة الصراع]، فان التصرف يكون في الواقع اشبه بحوار بين طرفين [ما يسمونه ديالوج]، ذلك لأن الطرف الآخر لا يستسلم للمبادأة -او للمفاجأة- الى الابد وبغير رد فعل من جانبه. ولعل هذه المرحلة الثانية في اي صراع، ان تكون اخطر المراحل فيه، لأنها المرحلة التي تستطيع ان تصون ما سبقها وتؤثر فيما بعدها، ذلك لانها مرحلة الاختبار الفعلي للقوى، فهي المرحلة التي تبدو وتتجلى فيها «ديناميكا» الصراع.

ذلك انه حينما يبدأ احد بحديث من طرف واحد، فان الحديث قد يكون بليغا، وقد يكون مؤثرا، ولكن الصورة الكاملة لا تظهر الا عندما يبدأ الحوار بين اثنين، ويحتدم الصراع بين القوى المتعارضة.

● وفي المرحلة الثالثة [المحصلة -الحصاد- استغلال العناصر وتوجيه النتائج لتحقيق الهدف]، فان التصرف في الواقع يصبح -في ظل اوضاع متغيرة- مناقشة عامة بين اطراف متعددة، لأن اي صراع في هذا العالم، وفي هذا العصر، لا يمكن حصره بين طرفين، وانما يدخل آخرون فيه بعد وقت معين، وهم في تدخلهم يتأثرون بما حدث في المرحلتين السابقتين، وتدخلهم بدوره يؤثر في المرحلة الثالثة على نحو او آخر: ولكنه يبقى طول الوقت تحت تأثير ما سبق.

***

واذا تركنا التعميم الى التخصيص فيما هو متصل بموقفنا اليوم من حرب ٦ اكتوبر وما يجري وجرى في اسرائيل بسببها، فاننا نستطيع ان نضع الملامح التالية على اساس المراحل الثلاث في كل عمل انساني:

١ ـ مرحلة القرار [كان قرار الحرب عربيا، وقد تحملت مصر بالذات مسئوليته الاولى، وكانت المبادأة فيه ـ والمفاجأة ـ في يد الطرف العربي].

ويمكن ان نقول ان هذه المرحلة بدأت من تاريخ سابق بكثير على السادس من اكتوبر، ثم بلغت قمتها في ذلك اليوم.

٢ ـ مرحلة ادارة الصراع ـ بالقوة الشاملة ـ بعد القرار، وحين بدأ رد الفعل الاسرائيلي والموالي لاسرائيل [من الولايات المتحدة الامريكية] ولم يعد الصدام بذلك مجرد حديث من جانب واحد [مونولوج] وانما اصبح الصدام حديثا بالنار بين طرفين [ديالوج].

ونستطيع ان نقول ان هذه المرحلة ما زالت مستمرة الى الآن.

٣ ـ مرحلة تحقيق الهدف، ونستطيع ان نقول ان هذه المرحلة تكاد تبدأ مقدماتها، وكلها معلقة بالتطورات القادمة وشكلها ونوعها وقيمتها.

ولسنا في هذه المرحلة نجري حديثا من جانب واحد، كما اننا لا نجري فيها حوارا بالنار مع العدو فقط، ولكن الامر تحول ـ في ظل اوضاع متغيرة ـ الى مناقشة عالمية، فيها امتنا العربية كلها، وفيها القوتان الاعظم [الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي]، وفيها اوربا الغربية، وفيها افريقيا، وفيها الدول غير المنحازة، وفيها الأمم المتحدة بأسرها، كما ان اساليب الفرض أو الاقناع في هذه المناقشة لا تقتصر على قوة النار، ولكن هناك ايضا قوة النفط، وقوة الرأي العام العالمي وتوازن القوى الدولية. . . الى آخره.

وبالتالي فلعلي اقول ان ما اتحدث عنه هنا، في هذه السلسلة من

المقالات عن «اسرائيل: ما يجري وما جرى» محدد كله، ومحصور كله، في نطاق المرحلة الاولى وهي «مرحلة القرار»، ذلك لأن هذه المرحلة امامنا كاملة او شبه كاملة، وذلك مع تسليمي بانها متداخلة مع مراحل تليها فيما يتعلق بأي حكم نهائي.

أردت ان احدد ذلك لكي اكون دقيقا فيما اقول، ثم لكي اكون منصفا.

* * *

كان يوم السادس من اكتوبر سنة ١٩٧٣ ـ وسوف يبقى كذلك مهما حدث او يحدث ـ اكثر الايام سوادا في تاريخ اسرائيل حتى الآن.

في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم، كانت المبادأة العسكرية ـ لأول مرة ـ في يد مصر، وكانت المفاجأة ـ لأول مرة ـ ضد اسرائيل.

وصحيح ان اسرائيل عرفت قبلها بساعات بنية هجوم وشيك عليها من الجبهة المصرية والجبهة السورية، الا ان الوقت كان متأخرا «لعمل شيء مؤثر» كما ثبت من نتائج اجتماع مجلس الوزراء الاسرائيلي صباح يوم السادس من اكتوبر:

● كان الوقت قد فات لضربة اجهاض مؤثرة، لأن القوات اللازمة لمثل هذه الضربة لم تكن متوافرة لدى اسرائيل.

● كان التدخل بنصف ضربة قاصرا عن تحقيق اي هدف.

● كان الاعتماد على الطيران وحده لضربة الاجهاض المقترحة كفيلا بتعريض الطيران الاسرائيلي لشبكة الصواريخ المصرية، وبتكاليف فادحة بالنسبة له.

● كان التقدير الاسرائيلي ان البدء بنصف ضربة او بضربة طيران

فادحة التكاليف، سوف يظهر اسرائيل مرة اخرى بمظهر المعتدي، وهو وضع لا تستطيع مواجهته عالميا، خصوصا مع احتمال الفشل، وهو ما بدا محققا.

وللأمانة التأريخية، فان هذا الوضع الذي وجدت اسرائيل نفسها فيه، لم يكن مجرد مصادفة قابلتها مصر، او حظا حالفها فجأة، وانما كان حسابا دقيقا في خطورته وفي مسئوليته.

واتذكر مقابلة مع الرئيس انور السادات في بيته في الجيزة يوم الاربعاء الثالث من اكتوبر، واتصل الحديث من الساعة الثانية بعد الظهر الى ما قبل مدفع الافطار بقليل، وكان الحديث بالطبع عما هو قادم وعن احتمالاته.

كنا نجلس في شرفة امام غرفة نومه مطلة على النيل وفي الهواء الطلق الذي لا يطيق انور السادات ان يعيش بعيدا عنه.

واثناء مناقشة كل الاحتمالات نظر الرئيس الى ساعته وقال وما زلت اتذكر عبارته بالحرف.

- اليوم هو الثالث من اكتوبر والساعة الآن الرابعة بعد الظهر، واظن انهم سوف يعرفون بنوايانا في أي لحظة ابتداء من الآن، ذلك لأن تحركاتنا في الساعات القادمة لن تترك لهم مجالا للخطأ فيها تنويه . . . لكنهم مهما فعلوا لن يلحقوا بنا . . .

حتى لو عرفوا هذه الليلة، وحتى لو اتخذوا القرار باستدعاء كل الاحتياطي العام لديهم، وحتى لو فكروا في توجيه ضربة وقائية كما يقولون، فقد فاتتهم الفرصة للحاق بنا».

كان تقديره -كما اثبتت الحوادث واكدت- صحيحا الى ابعد حد.

لقد رأت اسرائيل امامها على الجبهة ما لم يترك لها مجالا للخطأ في نوايا مصر . . . ولكن الوقت كان متأخرا وانقضت المفاجأة.

لم تكن المفاجأة هي نية الهجوم المصري فقط، وانما كانت المفاجأة اوسع مدى من ذلك وأعمق بكثير.

١ ـ فوجئت اسرائيل بجسارة الهجوم المصري على طول خط المواجهة، اي على امتداد ما بين ١٥٠ و١٧٠ كيلومترا، وكانت تصوراتها من قبل تتمثل في انـدفاعـه على جبهـة محددة وفي اتجاه محور واحـد رئيسي تستطيع تـركيـز جهودها بالطائرات والمدرعات عليه... ولم يحـدث ذلك، وانمـا جاء الهجـوم على طول خط المواجهة واحتارت اسرائيل في أي ومتى وكيف توجـه هجومهـا المضاد الاول.

٢ ـ فوجئت اسرائيـل بدقـة التخطيط العلمي لعمليـة العبور، وكـانت هـذه العملية في تقـديرات كـل الخبـراء في اسـرائيـل وفي العـالم هي مـرحلة التعرض المخيف للخطر.

وقد قال الجنرال ناركيس ـوهو احد القادة البارزين في اسرائيل ـ خلال مناقشة له مع احـد الملحقين العسكـريين الغـربيين في تـل ابيب، وهو يصف عملية العبور:

ـ لا بد ان نشهد لهم [للمصريين يقصد]... لقد كانت خطتهم دقيقة وكان تنفيذها اكثر دقة...

اننا حاولنا بكل جهدنا عرقلة عملية العبور وصدهـا بالقـوة وردها عـلى اعقابها... لكننا ما كدنا نتمثل ما حدث الا وقد تحققت لهم نتائجه.

كأننا اغمضنا عيوننا وفتحناها فاذا هم قـد انتقلوا تحت النار من غـرب القناة الى شرقها وفاجأونا صبـاح يوم السـابع من اكتـوبر بخمس فـرق كاملة امامنا على الشرق من القناة!»

٣ ـ فوجئت اسرائيـل بنوعيـة الانسان المصـري الذي استعـد للقتال، واتيحت له فرصته.

وكان وصف الجنرال جونين القائد العام الاسرائيلي لجبهة سيناء لافتا للنظر، فقد قال الجنرال جونين:

«لقد كانوا يتقدمون موجات بعد موجات... كنا نطلق النار عليهم ويتقدمون... كنا نحيل ما حولهم جحيما ويتقدمون... كان لون القناة قانيا بلون الدم وهم يتقدمون».

٤ ـ فوجئت اسرائيل بعد ذلك بجهد سلاحين، كان تقديرها لهما اقل من الواقع، وكانت التجربة بالنسبة لها مزعجة:

الطيران المصري وضربته الاولى بقرابة مائتي طائرة، وكان ابرز ما حققه الطيران المصري في هذه الضربة الاولى هو تدمير مركز القيادة الاسرائيلي الرئيسي في «ام خشيب»، وبعده اصبحت جبهة سيناء لعدة ساعات، على حد تعبير احد جنرالات اسرائيل «جسما بغير جهاز عصبي يحكم تصرفاته ويسيطر عليها» ـ وكانت احدى قنابل هذه الضربة الاولى هي التي اصابت الجنرال ابراهام مندلر قائد المدرعات الاسرائيلي في سيناء.

٥ ـ جهاز الدفاع الجوي المصري خصوصا عند حائط الصواريخ الشهير الذي بني سنة ١٩٧٠. وكانت اسرائيل تحسب حساب هذا الحائط تماما، ولكن التجربة اثبتت لها ايضا ان تقديرها لهذا الحائط كان بأقل من حقيقته.

ويصف احد المراقبين الدوليين عمل هذا الحائط قائلا:

ـ بين كل اربع طائرات اسرائيلية، اقتربت من هذا الحائط ودخلت في مجال تأثيره، فان ثلاثا منها تهاوت كالفراش المحترق».

وقد ركزت اسرائيل ضد هذا الحائط صفوة ما لديها من الطيارين، وخلال ثمان واربعين ساعة ـكما تقول التقارير الاسرائيلية نفسهاـ فقدت

اسـرائيل من هؤلاء اربعـين قتيلا، معـظمهم لا يقل سجله في الـطيـران عن ثلاثة آلاف ساعة!

ولكي يكون هذا الرقم في اطاره الصحيح فلعلنا نتذكر ان اعـداد طيار من هـذا المستوى في اي سـلاح جوي يتكلف، وفق أدق التقـديرات، ثـلاثة ملايين جنيه استرليني من المعدات واستهلاك الطائرات والوقود الى آخـره. . . وهذا بالـطبع غـير ثمن الطائـرة التي يكون عـلى قيادتهـا حين يلحقـه صاروخ الموت!

* * *

لم تكن مفاجآت الحرب في مرحلتها الاولى لاسرائيل فقط:

كانت وزارات الحرب والدفاع في العالم كله تقريبا تتوقع هزيمـة مصريـة سـاحقة، وربمـا كان الخـلاف بينها هـو تبـاين فتـرة الـوقت الـلازمـة للجيش الاسرائيلي حتى «يتصرف كما اعتاد ان يتصرف دائما».

كان البنتاجـون [قيادة الجيش الامـريكي] يتوقـع الهزيمـة في اثنتي عشرة ساعة لا اكثر، وكانت التقديرات في اوربا الغربية تتوقعهـا في فترة تتـراوح ما بين اربع وعشرين الى ثمان واربعين ساعة.

ولم تكن هـذه تقديـراتهم وحدهم وانمـا كـانت ملخص مـا أبلغتـه لهم اسرائيل من معلومات في الليلة الاولى من الهجوم العربي.

وحين جاء مساء اليوم الثاني فقد بدأ العالم الغـربي يتساءل عن اسبـاب تـأخير النتيجـة المنتظرة. . . لم يكن هنـاك من يسـاوره شـك فيهـا. . . ولكن السؤال كان: لماذا تأخرت؟!

وفي اليوم الثالث كانت هناك شكوك، وكانت هناك تساؤلات وروى لي احد اعضاء مجلس النواب الامريكي ان كل عضو في الكـونجرس الامـريكي راح يتصل بالبنتاجون، والسؤال الدائر على كل لسان هو:

ـ بحق السماء. . . ماذا يحدث في ميدان الحرب بين مصر واسرائيل؟

وكان الرد من البنتاجون معبأ بالحيرة يقول:

ـ هناك شيء غريب يحدث ونحن بصدد متابعته وتقييمه، وسوف نوافيكم بما يستجد لدينا.

وكانت كل صحف العالم الكبرى تتوقع تكرارا سريعا لكارثة سنة ١٩٦٧.

وروى دنيس هاملتون رئيس التحرير العام لمجموعة صحف التيمس في لندن ـوكان يزور «الاهرام» في الاسبوع الماضي ـروى امامي للرئيس انور السادات، وكان قد ذهب معي للقائه: ان صحافة العالم توقعت اقصر حرب في التاريخ. . . ربما حرب الساعات الست بدلا من حرب الايام الستة. وقال دنيس هاملتون:

«لكننا جميعا بدأنا نراجع توقعاتنا على ضوء ما كان يجيئنا من اخبار جبهات القتال، وكانت كلها عكس ما انتظرناه».

وروى لي صحفي امريكي كبير تجربته في متابعة اخبار القتال من نيويورك قائلا:

ـ في اليوم الاول كنت اعتمد على المصادر الاسرائيلية وحدها وكنت مقتنعا بان ما فيها هو الحقيقة، لان اسرائيل بقوتها لا يهمها ان تغطي على شيء، ولكنني في اليوم التالي اكتشفت ان ما اتلقاه من اسرائيل لا يمثل الحقيقة، ومن ثم فاني تحولت الى مصادر اخرى. . .»

وربما كانت الجاليات العربية في الولايات المتحدة وفي اوربا بين اكثر من فوجئوا بما حدث.

وروى لي استاذ فلسطيني يعمل في احدى الجامعات الامريكية تجربته قائلا:

ـ عندما بدأت الحرب. . . كان همي وهم غيري، ان نرتب انفسنا على ما سوف نقوله بعد ان تحل بنا الهزيمة. . . كنا في تكويننا العقلي قد استوعبنا الهزيمة ، ولم نكن قد تحسبنا لاحتمال النصر».

واستطرد يقول:

ـ بعد ايام اختلفت الصورة. . . ادركنا انه لا حاجة بنا لاستعادة ما استوعبناه من تجربة الهزيمة. . . ادركنا اننا استأنفنا التاريخ!.

* * *

كان سير المعارك على الجبهة المصرية ـ واقصر حديثي عليها لا تقليلا من اهمية الجبهة الاخرى وهي الجبهة السورية، ولكن لانها الجبهة التي تابعت سير الحرب عليها ثانية بثانية ـ يمشي في طريق يختلف تماما عن اي تجربة سابقة.

وربما نقلت بعض الملامح الرئيسية لصورة ما حدث، معتمدا في هذا على مصادر دولية متعددة أثق تماما في دقة اطلاعها.

■■■ قيل لي مثلا:

ـ ان الجنرال جونين قائد جبهة سيناء فقد اعصابه واصيب بانهيار كامل بعد سقوط خط بارليف.

وهذا الذي حدث للجنرال جونين يستحق وقفة عنده. . . ان جونين واحد من جيل القادة العسكريين الاسرائيليين الذين اعدتهم الدولة مبكرا للقيادة واعطتهم كل الفرص حتى يكونوا على المستوى المطلوب حينما يصلون الى قمة الهرم العسكري في اسرائيل.

ان انهيار الجنرال جونين لم يكن مأساة جنرال غلبته الحوادث ولكنها كانت مأساة جيل بأسره من القادة الجدد في اسرائيل.

ربما كانت مشكلة افراد هذا الجيل الذي وصل الى القمة العسكرية في اسرائيل انهم عاشوا اطفالا في تجربة سنة ١٩٤٨، ثم عاشوا رجالا تجربة سنة ١٩٦٧ ثم خلطوا بين قدراتهم الذاتية، وبين ضعف غيرهم، فاعطوا لانفسهم اكثر مما يستحقون وسلبوا غيرهم حقه في تلافي ضعفه!»

■■■ قيل لي مثلا:

ـ ان وضع القيادة الاسرائيلية امام الجبهة المصرية اصبح وضعا غريبا، فقد سارعت القيادة السياسية والعسكرية العليا الى تعزيز جبهة سيناء بعدد من جنرالات اسرائيل القدامى المجربين.

كان هناك رأي بعزل جونين بعد انهياره، ولكن ديان عارض ذلك، لأنه يسيء الى سمعة العسكرية الاسرائيلية، ويعتبر اعترافا بالفشل امام الجيش المصري.

والنتيجة ان جونين وجد نفسه باقيا في قيادته، ولكن حوله ثلاثة من الجنرالات يتنازعون الاوامر وهم:

● الجنرال كالمان، الذي حل في قيادة المدرعات امام الجبهة المصرية محل الجنرال مندلر الذي قتل في الضربة الجوية المصرية الاولى.

● الجنرال ادان، الذي ارسل على عجل ليقوم بأية مهام يكلف بها بجوار الجنرال جونين.

● الجنرال شارون، وهو قائد جبهة سيناء السابق، وقد كلف بتحين الفرصة للقيام بهجوم اسرائيلي مضاد، وكان هو فعلا قائد قوات الثغرة في الدفرسوار والمشكلة ان كل هؤلاء الجنرالات الثلاثة كانوا اسبق في الاقدمية من الجنرال جونين الذي كان ما زال على الورق قائدا عاما للجبهة!

كانوا تحت قيادته . . . وكانوا اعلى رتبة منه.

والنتيجة فوضى شاملة في قيادة الجبهة.

وتقـرر ارسال الجنـرال حاييم بـارليف ليتـولى التنسيق بـين الجنـرالات الاربعـة الذين شـاعت الفوضى في عـلاقاتهم وتوجياتهم ولكن بـارليـف وصل لكي يصبح طرفا في الفوضى الضاربة، وليس حكما فوق اطرافها.

■■■ قيل لي مثلا: والقائل في وضع يسمح له بمعرفة الحقائق كاملة.

ـ ان الجنرال دافيد اليعازر رئيس هيئة اركـان حرب الجيش الاسـرائيلي دخل الى اجتماع لمجلس الوزراء الاسرائيلي يحمل تقـريرا يـدعو الى التشـاؤم حول سير الحرب على الجبهة المصرية.

كـان ذلك في مسـاء يوم ٨ اكتـوبر، وكـان مؤدى تقريـر «دادو» ـ اسم التدليل الذي اشتهر به دافيد اليعازر ـ ان قوة المدرعات الاسرائيلية في سينـاء قد تلقت ضربة مخيفة.

كانت هناك حين بدأت العمليات ثلاثمائة وخمسون دبابة.

وقال «دادو» في تقريره:

ـ لم تبق الآن في سيناء وعلى طول المسافـة من خط الجبهة الى العـريش غير تسعين دبابة».

واستطرد دادو:

ـ ان هناك ألوية مدرعة من الاحتياطي الاستراتيجي تأخذ طريقها الآن الى خط الاشتباك مع مصر. . . ولكن الموقف في هذه اللحظات عصيب.

وسكت «دادو»، وران الصمت على مجلس الوزراء الاسرائيلي.

■■■ وقيـل لي مثلا ان دافيـد اليعازر جلس الى اجتمـاع مـع الملحق

العسكري الامريكي في اسرائيل يعطي قوائم بالسلاح المطلوب ارساله على عجل، وكان اول طلباته اسلحة صاروخية مضادة للدبابات.

وطلب اليعازر ان تجيء هذه الاسلحة الصاروخية المضادة للدبابات على عجل، وان تنقل بالطائرات، لأن كل دقيقة لها قيمتها.

وسمع بعض الملحقين العسكريين الاجانب في اسرائيل بطلبات الجنرال اليعازر.

وجلس معهم في اليوم التالي يعطيهم صورة لما يجري في ميدان القتال، وسأله احد الملحقين العسكريين الغربيين:

ـ لماذا لم تكن لديكم من قبل هذه الاسلحة الصاروخية المضادة للدبابات... اننا نعرف ان معظم اصابات دباباتكم جاءت من الصاروخ الذي تستعمله مصر وهو من طراز «مولوتكا» السوفيتي... ومعنى ذلك ان مصر تنبهت من قبل لاهمية الصواريخ المضادة للدبابات، في حين انكم هنا لم تتنبهوا لذلك..

كانت ترسانات الاسلحة الامريكية مفتوحة لكم... تختارون كما تشاؤون ولكنكم لم تأخذوا ما كانت بكم حاجة اليه والآن تجدون انفسكم في موقف صعب.».

ورد الجنرال اليعازر ردا فيه من العصبية اكثر مما فيه من المنطق قائلا ببساطة، واكاد اقول ببلاهة:

ـ ايها السادة... انتم تنسون اننا اعددنا جيشنا ليكون جيشا هجوميا... كنا نريد الدبابات ولم تكن تعنينا الاسلحة المضادة للدبابات... نحن جيش هجومي... هل ترون؟!

■■■ قيل لي مثلا:

ـ من الغريب انه كانت لدى اسرائيل كل الفرصة لمعرفة قدرة وفاعلية الصواريخ المضادة للدبابات. . كان هناك باستمرار مراقبون اسرائيليون في كل معارك فيتنام وقد شهدوا استعمالات الاسلحة الامريكية الحديثة على الطبيعة.

كانوا هناك حيث استطاع الفيتناميون الجنوبيون ان يصدوا آخر هجوم بالدبابات قامت به قوات الجنرال جياب الفيتنامي الشمالي الاسطوري.

وقد تمكن جيش فيتنام الجنوبية من تدمير دبابات كثيرة للجنرال جياب وكانت هناك جلسة لتقييم نتائج هذه المعركة حضرها جنرال اسرائيلي لكنه قال:

ـ ان خسائر جياب لم تكن بسبب الصواريخ المضادة للدبابات ولكن لأن قواته التي تعودت اساليب حرب العصابات ونجحت فيها نجاحا باهرا كانت امام تجربة لم تستوعبها لان حرب الدبابات كانت جديدة عليها!

* * *

ومضت ايام قبل ان تتمكن القيادة الاسرائيلية من استعادة توازنها لكنها عندما فعلت ذلك كانت خسائرها فادحة:

كانت قد فقدت ثلث سلاح الطيران وضاعت منها صفوة الطيارين.

كانت قد فقدت نصف سلاح المدرعات بما فيها خيرة الاطقم المدربة.

كانت قد فقدت ما بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف قتيل من الضباط والجنود.

ولقد زادت كل هذه الخسائر فيما بعد لكن تلك كانت الفترة التي وقفت فيها اسرائيل على حافة الجنون.

● كانت هذه هي الفترة التي سارعت فيها الولايات المتحدة الامريكية

الى اقامة جسر جوي وبحري ينقل المدد العسكري السريع الى اسرائيل.

● وكانت هذه الفترة التي راودت فيها اسرائيل فكرة التخويف بالمعلوم ـاو بالمجهول ـ عن قنابلها الذرية.

ولعلي ارجو ملحا ان يؤخذ هذا الموضوع جدا، وان نستعد له عارفين مقدما ان استعمال الاسلحة الذرية دونه محاذير هائلة، ولكن علينا ان ندرك ان صراعنا مع اسرائيل برغم كل ما يقال عن مؤتمر السلام القادم صراع طويل قد يشهد لحظات جنون يجب الا تأخذنا فيها اية مفاجأة ثم ان هذه الأمة العربية اذا كانت بالفعل تتطلع الى دور عالمي مؤثر فانها لا تستطيع بلوغه بغير مظلة ذرية مستقلة وهو ما فهمته جيدا كل من الصين وفرنسا واكاد اقول: والهند واليابان ايضا من ناحية استعدادهما لصنع القنبلة في شهور اذا ما صدر بذلك قرار سياسي].

● وكانت هذه هي الفترة التي صدرت فيها الاوامر الى الجنرال شارون بان يقوم ـومهما كانت المخاطر ـ باختراق الجبهة المصرية لكي يصل بقواته الى الغرب من قناة السويس.

● ثم كانت هذه اخيرا هي الفترة التي اطلت فيها ازمة الثقة لاول مرة في اسرائيل بين الجيش والحكومة وبين الجيش والشعب، وبين الحكومة والشعب.

احس الرجل العادي في اسرائيل ان الامور على الجبهة تسير خلافا لما كان مهيأ له واحس الرجل العادي في اسرائيل ان ما يقال له ابعد ما يكون عن الحقيقة.

واهتزت اشياء كثيرة في اسرائيل...
افكار... وقيم ومعتقدات سابقة.
وتهاوت مثل... وتماثيل... وصروح شامخة او بدت شامخة!
......
......

كل هذا والانتخابات الاسرائيلية العامة على الابواب.

وهي انتخابات سوف تحكم نتائجها سياسة ومزاج اسرائيل لعدة سنوات قادمة على الاقل.

ولو تصورنا ان كل صراع هو في حقيقته امتحان لاستطعنا ان نقول بما يلي:

● ان مصر حصلت على الدرجات النهائية الاولى من حرب اكتوبر وهي مرحلة القرار والمبادأة ـ والمفاجأة ـ به.

● ان مرحلة ادارة صراع الحرب ـ ضمن ممارسة القوة السياسية الشاملة ما زالت تجري.

● ان مرحلة تحقيق الهدف ـ او محاولة ذلك ـ على وشك ان تبدأ.

وليس هناك شك في ان اسرائيل سوف تستميت للحصول على اقصى ما تستطيع الحصول عليه من درجات الامتحان في المرحلتين الاخيرتين. . . مرحلة ما زالت تجري، ومرحلة على وشك ان تبدأ.

وليس هناك شك في اننا نحن الاخرين سوف نحاول تعزيز نجاح المرحلة الاولى بنجاح مماثل في المرحلتين التاليتين.

ومن هنا تأتي اهمية متابعة ما جرى ويجري الآن في اسرائيل وبالذات في فترة انتخابات عامة في بلد غير عادي، في ظروف غير عادية.



(٣)

اسرائيل: ما يجري فيها وما جرى

مغامرة «الجنرال شارون» وحكاياتها ونتائجها

٢١ ديسمبر ١٩٧٣

لا اظن ان المؤتمر الدولي الذي يبدأ اليوم في جنيف، سوف يعبر بأزمة الشرق الاوسط ذلك الجسر الدقيق والحرج بين الحرب والسلام. ولعلي من هنا فضلت تسميته بـ «مؤتمر جنيف» وليس «مؤتمر السلام في جنيف» ـ ذلك أن هذا المؤتمر تحيط به، وتضغط عليه مجموعة عوامل وظروف موضوعية، تجعل دوره في تحقيق سلام الشرق الاوسط مهمة صعبة، واكاد اقول مستحيلة، ما لم تتبدل هذه العوامل ولم تتغير هذه الظروف.

وربما قلت انني لا ارى ضررا من حضور هذا المؤتمر اذا كان من وراء ذلك «اختبار للنوايا» ـ ولكني اقول على الفور انني لا ارى نفعا من حضوره اذا كنا نتصوره طريقا الى نتائج سريعة ومحققة.

والاسباب التي تدعوني الى ذلك القول، وهي تعبير بشكل او بآخر عن مجموعة العوامل والظروف الموضوعية التي تحيط بهذا المؤتمر وتضغط عليه، كما يلي وفيما اتصور:

١ ـ ان الدور الامريكي ـ حتى هذه اللحظة ـ مثير للشك وليس داعيا للطمأنينة. . . وحتى الان فأن هذا الدور يضغط على العرب ولا يضغط على اسرائيل، بصرف النظر عن بعض الايحاءات السطحية التي تريد ان تقنع بعكس هذا.

وليست تهمني كثيرا مظاهرة من عشرين او ثلاثين شخصا ذهبوا لاستقبال الدكتور هنري كيسنجر عند وصوله الى مطار اللد رافعين «الشماسي» تذكيرا لكيسنجر بدور «تشمبرلين» عندما استسلم في ميونيخ امام هتلر سنة ١٩٣٨ ـ وانما تهمني اكثر من ذلك حقائق لا علاقة لها بأية مظاهرات مسرحية: منها مثلا ان تزاد قيمة المساعدات العسكرية الامريكية لاسرائيل، وان يصدق مجلس النواب الامريكي على هذه المساعدات قبل وصول كيسنجر الى الشرق الاوسط بثلاثة او اربعة ايام ـ ومنها مثلا احاديث كيسنجر اثناء مؤتمر وزراء خارجية حلف الاطلنطي، ومحاولته تذكير اوربا الغربية بأنها فشلت تماما في فهم حرب اكتوبر، وأن تعرض اسرائيل لنكسة فيها كان خطرا مخيفا على حلف الاطلنطي، وان دول اوربا الغربية اخطأت حين منعت سيل المساعدات الامريكية المتدفق على اسرائيل من المرور عبر اوربا ومنها ومثلا هذه التأكيدات التي اعطاها الدكتور كيسنجر لهولندا بأن الولايات المتحدة سوف تقدم لها ما تحتاج اليه من البترول بما يبطل مفعول الحظر العربي على تصديره اليها ـ ومنها مثلا ذهاب كيسنجر لزيارة لشبونة عاصمة البرتغال، كتعبير عن تقدير امريكا للدولة الاوربية الوحيدة التي سمحت بمرور المساعدات الامريكية لاسرائيل عبر اراضيها ـ ومنها مثلا عجز امريكا عن الضغط على اسرائيل لتنفيذ البند الثاني من النقط الست المشهورة وهو البند الخاص بالعودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر، مع ان هذه النقط الست كانت من فكر وصياغة الدكتور هنري كيسنجر نفسه، وقد نفذت مصر منها ما يخصها، ولم تنفذ اسرائيل منها بندا واحدا كان يخصها ـ ومنها مثلا ان امريكا راحت تضغط على العرب لكي يوقفوا تخفيض ضخ البترول الى الغرب، وحجتهم في ذلك كما قال الدكتور كيسنجر في الرياض للملك فيصل «ان استمرار الضغط على هذا النحو لا يتيح لامريكا ان تقوم بدورها الذي تأمل القيام به، والا سمحت لنفسها كقوة عظمى بأن تتصرف تحت الاكراه، وان يملي عليها غيرها سياساتها وممارساتها»!

٢ـ ان الدور السوفيتي ـ حتى هذه اللحظة ـ يتحدث عن ازمة الشرق الاوسط في نبرة هادئة اكثر مما ينبغي، والى درجة لا تسمح لكثيرين ان يتبينوا بالضبط ماذا يقول الاتحاد السوفيتي [وهذه مسألة ليس هذا وقت مناقشتها تفصيلا، ثم ان التطورات قد ترتفع بصوت الاتحاد السوفيتي الى طبقة عالية] وان كان علينا ان نسلم بأن الاتحاد السوفيتي له الحق في ان يشعر ببعض ما يشعر به اليوم من مرارة ذلك لأن هناك من ينسون انه اذا كانت هناك صداقة دولية ذات اهمية حيوية للعرب ـ فهذه الصداقة هي مع الاتحاد السوفيتي بالدرجة الاولى . . .

٣ـ ان الدور العربي لا يذهب الى المؤتمر بكامل قوته فعاليته ، ذلك ان التحالف العربي الكبير الذي اضاف الى حرب اكتوبر مهابة شعرت بها الدنيا كلها، راح يتباعد في آرائه، واحيانا في تصرفاته . . .

٤ـ ان الدور الخاص الذي كان منتظرا في هذا المؤتمر للامم المتحدة تواضع الى درجة تثير القلق، ولقد اصبح هذا الدور مجرد رئاسة شرف «لفالدهايم» مقصورة على مراسم الافتتاح، وقد حدث ذلك تحت ضغط مكثف وعنيف جعل مقر الامم المتحدة في نيويورك ومكتب سكرتيرها العام تائها لا يعرف ماذا يفعل، ولا ما هو مطلوب منه!

٥ـ ان الدور الاوربي مشتت بالحيرة بين اعتبارات متباينة تتجاذبه، وعلى اي الاحوال فأن الدور الاوربي قد عزل ـ ولو مؤقت ـ عن التأثير المباشر في مؤتمر جنيف، لأن اسرائيل اصرت على عدم اشتراك بريطانيا وفرنسا في المؤتمر، وسمحوا لها بما اصرت عليه رغم ارتباط عضوي بين الامن الاوربي والامن في الشرق الاوسط.

٦ـ ان دور البترول العربي ـ وهذه مسألة حساسة ولا بد ان نتنبه لها ـ يتعرض لمحاولات من جانب بعض العناصر والقوى. وهي تحاول ان تتجه به الى لعبة رفع الاسعار وتتصور انها بذلك تغريه بأن يرفع درجة استفادته هو

من الازمة، اكثر من درجة استفادة الازمة منه [وهذه ايضا مسألة ليس هذا وقت مناقشتها تفصيلا] ولقد اقول لكي لا يكون هناك مجال لأي لبس ان لعبة رفع الاسعار لا بأس بها، ولكن معيار جدواها بالنسبة للمعركة هو ما تقدمه زيادة الاسعار عمليا من دعم مباشر لاعباء المعركة.

٧ـ ان اسرائيل تريد ان تصدق نفسها في نتائج حرب اكتوبر، بل أكاد اقول انها تريد ان توهم نفسها في هذه النتائج، على اساس ان تقدمها لعدة كيلومترات وراء خط وقف اطلاق النار في سوريا، كما ان تمكنها من عبور البحيرات المرة وفتح ثغرة الى الغرب من قناة السويس، يجعل حرب اكتوبر في النتيجة النهائية لصالحها وليست ضدها. وقد عبر الجنرال ياريف عن هذا الشعور الاسرائيلي في آخر اجتماع عقد عند الكيلو ١٠١، ففي ذلك الاجتماع استمع الجنرال ياريف الى اقتراح مصري بخطوط الفصل بين القوات المتحاربة ثم كان تعليقه:

ـ ولكن ذلك لا يعكس النتائج الحقيقية لحرب اكتوبر».

ولقد رد عليه اللواء الجمسي منبها ومذكرا، ولكن الجنرال ياريف ظل على عناده وتوقفت اجتماعات الكيلو ١٠١ وكان ذلك خيرا، لان هذه الاجتماعات من اولها الى آخرها كانت تجربة في الفراغ!

□

وهذه النقطة الاخيرة، نقطة رغبة اسرائيل في تصديق نفسها، او ايهام نفسها، هي النقطة التي تعنيني في هذا الحديث، وهو كما قد نتذكر حديث يركز على «اسرائيل وما يجري فيها وما جرى» وتأثيره على الانتخابات العامة التي اقترب موعدها، وهي انتخابات سوف تحكم تصرفات العدو ومزاجه لعدة سنوات قادمة، كما ان حساب الاصوات فيها سوف يكون مصدر كل قراراته في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق الاوسط وصراعاته الكبرى!

* * *

لقد مشت اسرائيل شوطا طويلا على طريق تصديق النفس او ايهام النفس. وربما قلنا ان هذا الشوط الطويل بدأ بشكل حاد منذ تلك الايام الحزينة في يونيو سنة ١٩٦٧ وحين احرزت اسرائيل نصرا لم يكن في مجال تصديقها او حتى في مجال اوهامها وتكفيني في ذلك قصة بسيطة في وقائعها، مهمة فيما تدل عليه، رواها لي الجنرال اندريه بوفر القائد العسكري الذائع الصيت ومدير مركز الدراسات الاستراتيجية الفرنسي ومستشاره الاكبر حتى الآن.

كانت اسرائيل مبهورة- قبل اي طرف آخر - بما تحقق لها في معارك الايام الستة. وكان هناك في العالم الخارجي من الخبراء العسكريين من اذهلهم هذا الذي تحقق لاسرائيل، وهرع بعضهم الى هناك يدرسون ويبحثون وكان بينهم الجنرال اندريه بوفر.

وكان الجنرال بوفر يعرف الجنرال ديان من وقت حرب السويس سنة ١٩٥٦ فقد كان ديان مسؤولا عن عملية سيناء وكان بوفر مسئولا عن الغزو البريطاني الثلاثي المشهور.

ووضعت القيادة العسكرية الاسرائيلية طائرة هليكوبتر تحت تصرف الجنرال بوفر وطار بها فوق مسارح العمليات، وبالذات مسرح العمليات في سيناء.

وعاد الجنرال بوفر من رحلة الهليكوبتر فوق سيناء بالضبط مساء يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ والتقى بالجنرال ديان وقال له:

- ان ما تحقق لكم كان شيئا لم يسبق له مثيل؟».

- ان ديان كان شديد التواضع في مسلكه وفي رد فعله... وكان تعليقه على ما قلت هو:

«في الحقيقة ان الذي يستحق التقدير هو رابين... كان هو الذي اشرف على اعداد الخطة كرئيس لهيئة اركان الحرب، واما انا فلم يكن لي

دخل فيها لانني عينت وزيرا للدفاع قبل نشوب القتال بثلاثة ايام فقط وكان تعييني لاعتبارات سياسية اكثر منها عسكرية».

ويستطرد الجنرال بوفر في روايته لي فيقول:

ـ وتصادف في نفس الليلة انني قابلت رابين رئيس هيئة اركان الحرب الاسرائيلي: وكان رابين متعبا ومرهقا بعد ليال طويلة بغير نوم وقلت له:

لقد تحقق لكم شيء كبير . . . وقال لي الجنرال ديان قبل ساعة واحدة ان الفضل كله يرجع اليك».

كان رابين هو الآخر شديد التواضع في مسلكه وفي رد فعله . . وكان تعليقه على ما قلت بالحرف كما يلي:

«لا اعرف ما الذي سيبقى من هذا الذي تحقق لنا كله. . . اغلب الظن انه كله ـ الاراضي يقصد ـ سوف يعود الى اصحابه»

□

كانت هذه مشاعر القيادة الاسرائيلية العليا غداة معارك الايام الستة. . . مشاعر غاية في التواضع او لعلي اقول غاية في الواقعية. . . مشاعر لا تريد ان تصدق حتى ما تراه امام عيونها وقد تحقق لها، ولا تريد مجرد ايهام نفسها في النتائج البعيدة لما حدث.

ومرت ايام. . واسابيع. . . وشهور.

اكثر واكثر مع كل يوم واسبوع وشهر راحوا يصدقون انفسهم

اكثر واكثر مع كل يوم واسبوع وشهر راحوا يوهمون انفسهم.

وفي البداية بدا ان القدس وحدها هي المطمع. . .لم تعد قابلة للمناقشة. . لن تعود عربية بعد الان. . . ثم لحقت بها مرتفعات الجولان

واجزاء كبيرة من الضفة الغربية... ثم جاء الدور على غزة... ثم شرم الشيخ... وشريط ساحلي من ايلات الى شرم الشيخ... كانت عملية مخيفة في تفاعلاتها وفي آثارها...

بدأ التاريخ يتراجع امام الاساطير.

وبرزت اسطورة الجيش الذي لا يقهر.

واحاط ديان نفسه بهالة المنتصر لدرجة ارتفعت معها اصوات في الكونجرس الامريكي تطالب بالاستعانة به في حرب فيتنام ايام كان الجيش الامريكي يواجه اصعب فترات حربه في مستنقعاتها.

ووصل دافيد اليعازر- خليفة رابين في رئاسة هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي الى حد قال عنده:

- ان الجيش الاسرائيلي قادر على غزو العالم العربي كله واخضاعه من الخليج الى المحيط»

وتبخر التساؤل الواقعي الذي عبر عنه رابين مساء يوم ٩ يونيو ١٩٦٧، حين قال للجنرال بوفر

- لا اعرف ما الذي سيبقى من هذا كله!»
تراجع التاريخ- كما قلت- وتقدمت الاساطير... وسادت وحكمت حتى كان يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣.

* * *

لقد كان مستحيلا ان يكون هناك حل لأزمة الشرق الاوسط في ظل الاساطير.
ولم يكن مستحيلا ان يكون هناك حل لأزمة الشرق الاوسط في ظل التاريخ.

وكانت اهمية ما حدث يوم ٦ اكتوبر ـ خصوصا باقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف ـ انه في جوهره كان اقترابا من التاريخ وابتعادا عن الاساطير .

ان التاريخ قد يسمح لاسرائيل بتفوق لبعض الوقت على بعض العرب، ولكن التاريخ لا يمكن ان يسمح بتفوق لاسرائيل طول الوقت على كل العرب.

وقد نتحدث عن فجوة حضارية تعطي لأسرائيل ميزة سبق على العرب. . .

وقد نتحدث عن ضعف في الفكر الاستراتيجي العربي يترك المجال فسيحا لاسرائيل. . .

وقد نتحدث عن فقر في التجربة القتالية الحديثة حصلت عليها اسرائيل ولم ينلها العرب. . .

وقد نتحدث عن ان الصراع في حقيقته هو صراع بين «كم» عربي مبعثر في اتجاهات شتى، «وكيف» اسرائيلي مسخر في اتجاه واحد محدد.

قد نتحدث عن ذلك كله وغيره ولكن التاريخ ـ اذا كنا نتحدث عن التاريخ وليس عن الاساطير ـ يعلمنا ان ذلك كله مؤقت، وان الموازين فيه قابلة للتغير بل الانقلاب تماما اذا استطاع العرب. . .

اذا استطاع العرب ان يحققوا اضافة كيفية ولو محدودة الى الكم العربي اللامحدود.

□

كان يوم ٦ اكتوبر ـ وهذه اهميته القصوى ـ بداية لعملية تراجع الاسطورة امام التاريخ.

وفي الساعات الاولى لم تكن اسرائيل وحدها هي التي رفضت ان تصدق ما حدث ولكن العالم كله- غارقا تحت اوهام ست سنوات كاملة- رفض ان يصدق

وفي اليوم التالي لم يكن في وسع العالم الا ان يصدق ما يراه وينزع عن نفسه كل وهم مسبق.

وبعد اسبوع من الحرب كانت الحقيقة قد بدأت تتسرب الى اسرائيل وتنساب الى قلبها من الاطراف على جبهات القتال!

وعبر «كاتزير» رئيس اسرائيل عن ذلك بوضوح حين قال في لحظة حقيقة:
- لقد عشنا سنوات طويلة على الوهم... وقد جاء الوقت لكي ننزع عن عيوننا غشاوته ولكي نطل على الامور بمنظار الحقيقة».

وكانت تلك هي الفترة التي قبلت فيها اسرائيل بوقف اطلاق النار على «المواقع الحالية» في ذلك الوقت ١٢ اكتوبر- ... وهي مواقع كان الجيش المصري فيها قد تمكن من احتلال الضفة الشرقية لقناة السويس كلها. ثم تقدم بعد ذلك على خط مواجهة يتراوح عمقه ما بين ١٨ الى ٢٢ كيلو مترا.
وكانت تلك هي الفترة التي نزلت فيها اسرائيل على ركبتيها امام الولايات المتحدة الامريكية تطلب المدد السريع وبالطائرات قبل ان يفوت الوقت... تنازلت عن دور الشريك للولايات المتحدة وهو دور كانت تزهو به بعد سنة ١٩٦٧.. وعادت الى دور التابع وهو حجمها الحقيقي!.
كان التاريخ يؤكد نفسه... وكانت الاساطير تبتعد كما يبتعد سراب الصحراء.
وفجأة طرأ طارىء وهو الثغرة التي فتحتها اسرائيل عبر البحيرات المرة لكي تدفع «بقوة عمل» الى الضفة الغربية من قناة السويس...

* * *

ان الايام سوف تثبت ان عملية الثغرة كانت في وقتها مغامرة عسكرية براقة ولكنها في حقيقة الامر وعلى المدى الطويل سوف تصبح عقبة سياسية من الدرجة الاولى لسبب محدد وهو ان هذه الثغرة سوف تتحول الى غشاوة تحجب عن الناس في اسرائيل رؤية التاريخ وحركته وتبقيهم في اسار الاسطورة وضبابها الغيبي. سوف تثبت الايام يقينا: ان اسرائيل كانت على وشك مواجهة الحقيقة التاريخية ولكن مغامرة الجنرال آريل شارون عطلت هذه العملية لبعض الوقت، وسوف يدفع كثيرون في اسرائيل ثمن هذا التعطيل للتاريخ مضاعفا وفادحا

وهذه هي المأساة فيما فعله الجنرال شارون الذي يظن نفسه الآن بطلا بينما هو في الحقيقة مغامر ضد التاريخ

□

يقول الجنرال شارون نفسه في روايته لقصة مغامرته في الغرب، وهي الرواية التي ادت الى قطيعة بينه وبين الجنرال حاييم بارليف رئيس هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي السابق ووزير التجارة الحالي والذي استدعي بعد حرب اكتوبر ليتولى التنسيق بين الجنرالات المتخاصمين على جبهة سيناء:

ـ كان الموقف بالغ السوء ... ان المصريين استطاعوا اخذ المبادأة والمفاجأة... ثم الحقوا بنا خسائر فادحة... كانت هذه حربا حقيقية... لقد خضت معارك كثيرة من قبل ولكن هذه كانت حربا حقيقية.

ولقد احسست ان الحرب سوف تتوقف في اي ساعة: الخسائر من الصواريخ على الناحيتين عالية..

والموازين الدولية تتحرك...

وفي اي لحظة فأنه قد ينزل علينا وعلى ميدان القتال كله قرار بوقف اطلاق النار، ووقف اطلاق النار على الوضع الذي كنا فيه سوف يكون كارثة

كان لا بد من عمل جريء قبل وقف اطلاق النار.

... عمل يمكن عنده ـ من جانبنا ـ ان نقبل وقف اطلاق النار وفي

نفس الوقت لا نكون عنده قد فقدنا كل سمعتنا.

وكان الحل هو عبور القناة الى الغرب

وعندما كنت قائدا لجبهة سيناء حتى ١٥ يوليو من هذه السنة فاني كنت افكر في هذا الحل فيما لوحدث واقدم الجيش المصري على عبور القناة.

وقد استطلعت الجبهة على شاطىء القناة. . واخترت موقع عبورنا المحتمل وطلبت الى سلاح المهندسين تقليل كثافة الحاجز الترابي عنده. . . وطلبت بناء علامة من الاحجار الحمراء تشير الى هذا الموقع وتذكرنا به وهكذا ذهبت يوم ١٢ اكتوبر الى اجتماع في القيادة الجنوبية اقترح السماح لي بتنفيذ خطتي في الغرب.

ولم يكن الجنرال جونين قائد جبهة سيناء متحمسا لفكرتي، ولا كان الجنرال حاييم بارليف المسئول عن التنسيق في الجبهة متحمسا لها لكني صممت واظن انني نجحت!».

■ ان الجنرال شارون يدعي لنفسه بذلك اكثر مما يستحق لكنه في حمى المغامرة نسي حقائق كثيرة.

. . . نسي ان فكرة عبور القناة من الشرق الى الغرب وعند البحيرات المرة برزت لاول مرة في التاريخ الحديث بخطط وضعها الجنرالات الالمان الذين كانوا يقودون الجيوش التركية في محاولة استعادة مصر للخلافة العثمانية ابان الحرب العالمية الاولى.

ثم ان القيادة الاسرائيلية بعد سنة ١٩٦٧، وبشهادة الجنرال حاييم بارليف نفسه، عادت الى بعث الخطط الالمانية القديمة واعدتها تفصيلا في حالة اقدام القوات المصرية على محاولة عبور قناة السويس من الغرب الى الشرق.

بل اقول ما هو اكثر

اقول ان القيادة السياسية والعسكرية المصرية كانت منذ سنة١٩٦٧، تتحسب لهذا الاحتمال، وتعتقد انه في حالة عبور مصري لقناة السويس من الغرب الى الشرق بهدف التحرير فان اسرائيل سوف تحاول عبورها، وعند البحيرات المرة، من الشرق الى الغرب.

وكانت هناك خطط لمواجهة هذا الاحتمال... بل وجرت تدريبات عملية عليه ورصدت له قوات قامت باجراء هذه التدريبات عشرات المرات.

وقد اعترف الجنرال آريل شارون بنفسه بهذه الحقيقة ذات ليلة من ليالي اكتوبر.

كان قد دعا عددا من الصحفيين الاجانب للمبيت معه في عربة القيادة المتنقلة، وعندما حل المساء جاء بزجاجة من الكونياك وجلس يتحدث معهم... واقبل ضابط الاتصال الصحفي، وهو برتبة ماجور، يقول لهؤلاء الصحفيين انهم لا يستطيعون المبيت في عربة القيادة.

وقال شارون امام هؤلاء الصحفيين [لضابط الاتصال الصحفي]:

ـ ما هي رتبتك؟»

وقال الضابط:

ـ انني برتبة ماجور يا سيدي؟»

ـ حسن.. وانا ماجور جنرال.. واذن فانني احكم .. انهم سوف يبيتون معي هنا وليس لك شأن بهذا».

وقضى الصحفيون ليلتهم مع الجنرال شارون.

وفي الليل، ومع زجاجة الكونياك، كان الجنرال شارون متجليا على الاخر مع ضيوفه، وكان مما قاله لهم وقد سمعته بنفسي من احدهم، كما استمعت اليه معه، مسجلا بصوت الجنرال شارون وهو صوت خفيض ممتلىء:

ـ لقد كان المصريون يتوقعون في خططهم احتمال عبورنا لقناة السويس من الشرق الى الغرب ان ضابط المخابرات المصرية لهذا القطاع من الجبهة وقع اسيرا في يد قواتي وقد عثرنا معه على خريطة تحدد بالضبط مكان عبورنا المحتمل وخطتنا بعد العبور.

كانت خطتنا كلها على خريطته كان هناك تفصيل واحد اختلف مع ما حدث فعلا.

كانت الخريطة تقول بان طلائع قواتنا سوف تكون دبابات برمائية.. ولكننا لم نستعمل دبابات برمائية...»

واستطرد شارون:

ـ الغريب ... ان استعمال الدبابات البرمائية كان في خطتي الاصلية، ولكني عدلت عن ذلك لان الدبابات البرمائية لم تصلني في الموعد الذي اردته وتصرفت بغيرها... نقلت بعض طلائع قوات العبور بالهليكوبتر على الناحية الاخرى لتأمين رأس جسر... ثم استعملت اطوافا عائمة.. ان اللواء المدرع الاول الذي استعملته ليفتح الطريق ليلة ١٦ اكتوبر عبر كله على هذه الاطواف العائمة، وبعدها استطعنا نصب اول جسر، ولم يكن هذا الجسر مأمونا في نظر القيادة العامة في سيناء، ولذلك فان الجنرال بارليف رفض تعزيز قواتي بلواء ثان آخر، لانه قدر ان الجسر الذي نصبناه تنقصه الحماية الكافية».

□

انني هنا لا اقترب من الاسباب التي ادت من وجهة نظر مصريه الى نجاح المغامرة الاسرائيلية، فهذا الموضوع يحتاج الى دراسة متأنية، ثم انه يحتاج الى توقيت ملائم.

ولكني اعود الى استخلاص بعض الحقائق من رواية الجنرال شارون:

١ـ ان الجنرال شارون نفسه يعرف انه قام بمغامرة لم تكن هيئة اركان الحرب الاسرائيلية ولا ممثلها المسئول عن التنسيق في جبهة سيناء، وهو الجنرال حاييم بارليف متحمسا لها.

ولقد قيل، والقول صحيح اغلب الظن، ان الجنرال بارليف» طلب في بعض مراحل العملية الى «الجنرال شارون» ان يوقفها لان نجاحها مشكوك فيه، لكن الجنرال شارون قطع كل اتصالات تليفونية مع مركز قيادته لمدة ست ساعات ، ثم عاد بعد هذه الفترة يتصل ببارليف ويقول له:

ـ ابلغوني انك طلبتني عدة مرات باللاسلكي . . . ولكني لم استطع الاتصال بك . . لقد قمت بالمهمة واريد الان تعزيزات!»

وقال الجنرال بارليف في حديث صحفي وافق عليه رسميا للنشر:

ـ «ان الجنرال شارون خالف عقيدة هامة من عقائد الحرب الاسرائيلية، وهي ان تكون الخسائر البشرية في اقل حد ممكن . . . وقد دفعنا خسائر كثيرة في عملية شارون، وكان ذلك ضد عقائدنا».

٢ـ ان الجنرال شارون نفسه لا ينكر في كل ما قاله ان احتمال صدور قرار بوقف اطلاق النار كان على الابواب، وانه قدم على مغامرته متأكدا من ان وقف اطلاق النار سوف يحميها ويغطي مخاطرها.

٣ـ ان الجنرال شارون نفسه يسلم بأن هدفه من مغامرته كان تحويل الانظار عن الصدمة التي تلقاها الجيش الاسرائيلي عندما نجح الجيش المصري في اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف.

٤ـ ان الجنرال شارون اول من يعلم انه استعمل الغش في لعبته، ذلك لأنه لم يستطع تعزيز مواقعه على الضفة الغربية الا بعد سريان وقف اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر، وانه في الفترة ما بين ٢٢ اكتوبر، بعد سريان وقف

اطلاق النار الاول الى يوم ٢٥ اكتوبر ـ تأكيد وقف اطلاق النار مرة اخرى بوساطة مجلس الامن ـ فأنه استطاع مد سيطرته على رقعة من الارض في الغرب تزيد مرتين على الرقعة التي كان قد استولى عليها بالقتال.

بالقتال حصل على واحد، وبالغش اضاف للواحد اثنين!

وعلى أي حال ، فأن الغش على هذا النحو ليس بعيدا عن عقائد الحرب الاسرائيلية، بل انه عملية تكررت في كل تجربة من تجارب وقف اطلاق النار السابقة، ومنذ هدنة سنة ١٩٤٨ الاولى ـ وحتى الأن.

٥ـ ان الجنرال شارون سمع بتقييم عدد من كبار خبراء الاستراتيجية في العالم لمغامرته وكان وصف احدهم لها، صريحا للغاية، اذ قال:

ـ. . . لقد بدت لي في ايامها الاولى نوعا من حرب السينما. . .

ولكن وقف اطلاق النار ـ بصرف النظر عن الاسباب المختلفة التي دعت اليه ـ اعطاها فرصة اكثر مما تستحق من وجهة نظر استراتيجية».

* * *

ما هو اثر ذلك على اسرائيل؟. اثره ـ مع الرغبة الخارقة في تصديق النفس، وتصديق الوهم ـ هو ان ينسى الناس في اسرائيل عبرة التجربة الضخمةالتي عاشوها من ٦ اكتوبر الى ١٦ اكتوبر.

يهبطون بها من حدث تاريخي خطير الى حادثة عارضة اصابتهم بجروح ورضوض.

. . . يتصورون ان ما حدث كان مجرد تقصير. . . ملافاته ممكنة.

يتصورون ان ما حدث كان مجرد اهمال. . . الحساب عنه ضروري.

لكنه في هذه الحدود لا يتجاوزها ولتبق الاساطير وليذهب التاريخ .

ومعنى ذلك انه لا حل للأزمة.. .لأنه ليس هناك ما يدعو الى الانسحاب الكامل الى خطوط ما قبل يونيو سنة ١٩٦٧، ثم انه ليس هناك ما يدعو الى اعادة اي حق لشعب فلسطين، لأنه لا يوجد قطـ كما يقال لهمـ شعب يحمل وصف شعب فلسطين!!

■ ان الحكومة الاسرائيلية والمؤسسة العسكرية الاسرائيلية معا سوف تضغطان على هذه النقطة طويلا وبعناد شديد لاستعادة الهيبة اولا ولأستعادة الثقة ثانيا ولمواصلة احلام التوسع ثالثا.

واذا كان الضغط على هذه النقطةـ ان ٦ اكتوبر ليس حدثا وانما هو حادثة ـ لم يشهد حتى الآن تركيزا شديدا فأن السبب يعود الى الانتخابات

ان الحكومة والمؤسسة العسكرية تدرك ان الضغط على هذه النقطةـ مع الاشارة في نفس الوقت دلالة على صحتها الى عملية «الجنرال شارون»ـ معناه نسبة الفضل ببساطة الى كتلة المعارضة «ليكود» التي يعتبر «شارون» واحدا من اقطابها بل لعله ابرز مؤسسيها

* * *

بقي ان اقول ـ فيما يتعلق بنا ـ ان اسرائيل سوف تستغل عملية الجنرال شارون وثغرة الغرب من قناة السويس ـ الى اقصى حد لكي تثبت لنا نحن ايضا ـ كما أثبتت لنفسها ـ ان يوم ٦ اكتوبر لم يكن حدثا وانما كان حادثة عارضة لا يمكن ان تتأسس عليها نتائج بعيدة المدى.

ولقد استطيع القول استنادا الى مصادر دولية موثوقة ان خطة اسرائيل في مؤتمر جنيف سوف تسير على النهج التالي:

في المرحلة الاولى من المؤتمر وهي تبدأ اليوم فأن آبا ايبان وزير خارجية اسرائيل سوف يتقدم بتصور اسرائيل للسلام... صورة وردية: علاقات جوار حسن، وتعاون اقتصادي وعلمي مفتوح، وحدود بغير اسلاك شائكة او

الغام، وسفراء وسياح، كأنما لم يحدث شيء بين العرب واسرائيل على الاطلاق، كأنه لم تضع حقوق شعوب وأراضي شعوب ولم تتعرض للعدوان وللارهاب شعوب. . .كأن التاريخ يولد من الضياع هذا اليوم فقط وعلى اساس الامر الواقع. . .

كأن التاريخ زر كهربائي يضغط عليه آبا ايبان فيحدث شيء. . .ثم يضغط عليه مرة اخرى فيحدث نقيض هذا الشيء!

في المرحلة الثانية من المؤتمر وهي على الارجح في نهاية شهر يناير القادم، وبعد ان تكون الانتخابات العامة في اسرائيل قد انتهت وتشكلت الحكومة الاسرائيلية الجديدة على اساسها فأن اسرائيل سوف تركز على المساومة بالثغرة في الغرب ضمن ما يسمونه «عملية الفصل ما بين القوات المتحاربة»

سوف تعرض اسرائيل، او لعلها تتظاهر بالقبول تحت الحاح امريكي عنيف ـ! ! ـ بأن تسحب قواتها من ثغرة الغرب والى عشرين كيلومترا في الشرق مقابل ان تقوم مصر بتخفيف قواتها العسكرية التي عبرت القناة من الجيشين الثاني والثالث وتحديد حجم قوة النيران فيهما. . . ثم تتمركز قوات الامم المتحدة بين الجيش المصري والجيش الاسرائيلي. . .

اي ان خطة اسرائيل في هذه المرحلة سوف ترتكز على تمسكها بمنطقة المضايق الحاكمة في سيناء.

ولتمض المؤتمرات والمحادثات واللقاءات بعد ذلك سنين في اعقاب سنين. . .لا شيء يهم ما دامت اسرائيل ممسكة ومتحكمة في مفاتيح مصر الاستراتيجية من الشرق، ومفاتيح مصر الاستراتيجية من الشرق هي بالتأكيد مضايق سيناء.

□

ولعلي في غير حاجة الى القول بأن هذه اللعبة ليست لمصر حتى وان كان ثمنها ثغرة الغرب

لعلي اقول اكثر:

ان ثغرة الغرب بسبعة الوية اسرائيلية كاملة محشورة فيها حشرا يمكن ان تكون رهينة اسرائيلية في متناول يدنا اكثر منها خنجرا غائرا في كتفنا

الالوية السبعة في الثغرة يمكن ان تكون رهينة لأنها:

- محشورة حشرا كما قلت
- خطوط مواصلاتها بعيدة
- مدخلها الى الغرب محصور بين الجيشين الثاني والثالث.
- انتشارها في المساحة التي تحتلها انتشار خطر عليها وهو غير متوازن
- طوق قواتنا من حولها نصف دائرة محكمة من الفولاذ.

□

لعلي اقول في النهاية:

ـ ان ثغرة الغرب ليست موضوعا تضغط علينا به اسرائيل وانما هي اقرب الى ان تكون موضوعا نضغط به نحن على اسرائيل».

ذلك ما تعلمه لنا روح ٦ اكتوبر

ثم لكي نثبتـ وعلى المدى الطويل ـ لاسرائيل ولكل من فيها ان ٦ اكتوبر كان حدثا ولم يكن حادثة.

ثم لكي يواصل التاريخ مسيرته وتتراجع الاسطورة!

(٤)

إسرائيل: ما يجري فيها وما جرى

أمام صناديق الانتخابات في إسرائيل!

٢٨ ديسمبر ١٩٧٣

بعد ثلاثة أيام، يتوجه مليون ونصف مليون ناخب في اسرائيل الى صناديق الانتخابات العامة، يدلون بأصواتهم في جو لم يعرفوه من قبل، ولم يعيشوا فيه منذ قامت الدولة الاسرائيلية في مايو سنة ١٩٤٨ . . .

الخطى ثقيلة . . . والقلوب مثقلة . . . والهواجس في الفكر رياح شتاء عاصفة!

يرى المواطن الاسرائيلي نفسه، ولأول مرة، في حرب حقيقية ـ بالنار والدم ـ على جبهتين تضغطان عليه من الجنوب والشمال: مصر وسوريا.

ويعرف المواطن الاسرائيلي ان وراء الجبهتين ـ النار والدم ـ بحرا من العداء العربي يواجه اسرائيل بالرفض، والرفض هذه المرة رفض نشيط بالحركة، وليس مجرد رفض ساكن في الضمائر.

ويشعر المواطن الاسرائيلي انه في مشكلة مع العالم كله . . . حادة مع بعضه، اقل حدة مع بعضه الآخر.

ثم يجد المواطن الاسرائيلي نفسه محاطا بعدد من الحروب الأهلية: أحزابه في معركة، ساسته في معركة، جنرالاته في معركة، والخطوط متشابكة

متداخلة بين هذه المعارك كلها، لأن الساسة جنرالات في اسرائيل، كما ان الجنرالات ساسة، ثم انه بين الساسة والجنرالات في اسرائيل من يتصور نفسه ـ منفردا ـ حزبا بأكمله!!

ولقد احس المواطن الاسرائيلي في بداية حرب اكتوبر التي دهمته على غير انتظار، انه كان على شفا كارثة لم يعرف حتى الآن دواعيها، ثم أُوحي اليه مع نهاية ايام الحرب انه بقرب انتصار دفع فيه بالأحزان، ثمنا غاليا، ولكنه لسبب ما لم يحصل عليه، واكتشف المواطن الاسرائيلي بعد مرور أيام واسابيع انه في وضع غريب: لا هو انهزم ولا هو انتصر، وانما هو على نقطة ضائعة بين الأمل وخيبة الأمل.

ومهما تكن النتيجة التي تظهرها عمليات فرز وعد الأصوات في صناديق الانتخابات ـ فان الامور لن تعود قط في اسرائيل الى ما كانت عليه قبل ٦ اكتوبر، لأن الصورة تغيرت، وبعض ما حدث، بل كثير مما حدث، جاء ليبقى، وليواجه اسرائيل كلها، شعبا ومؤسسات وقيادة، بحقائق جديدة تفرض نفسها فرضا. ومهما كان القبول بها صعبا، فان انكارها مستحيل!

* * *

ولربما استطعنا تقسيم الحقائق الجديدة التي جاءت لتبقى في اسرائيل، والتي تفرض نفسها الآن فرضا على هذا المجتمع الغريب في تكوينه وتفكيره ومزاجه ـ الى عدة مجموعات، والقصد مجرد تسهيل البحث:

هناك أولا مجموعة حقائق عسكرية.

ثم هناك ثانيا مجموعة حقائق سياسية.

ثم هناك ثالثا مجموعة حقائق نفسية.

□

■■■ وسوف ابدأ أولا بمجموعة الحقائق العسكرية، ولعلي اخترت

البدء بها لأن اسرائيل أريد لها ان تكون مجتمع حامية عسكرية بصرف النظر عن الأحلام والرؤى الصهيونية، ومثالياتها عن فلاح الكيبوتز - حركة المستعمرات الاسرائيلية - وهو فلاح تصوروه أو صوروه يقود المحراث ويمسك البندقية، وانكسر المحراث وبقيت البندقية واصبح هذا الفلاح من الكيبوتز شيئا عجيبا اذا اخذنا الجنرال شارون [قائد الثغرة غرب قناة السويس] نموذجا له فقد ظهر اخيرا ان الجنرال شارون يملك ويدير مزرعة مساحتها أربعة آلاف فدان قرب بئر السبع!

□

مجموعة الحقائق العسكرية الجديدة كما يلي:

١- ان حرب اكتوبر هزت - ولا أقول حتى الآن كسرت- نظرية الأمن الاسرائيلي التي كانت ترتكز على قدرة اسرائيل وتفوقها وحريتها في الحركة الى أي اتجاه - بما يمكنها دائما من فرض ارادتها.

لقد ثبت أن الآخرين - العرب - لديهم المقدرة، وفي استطاعتهم تحدي التفوق الاسرائيلي أو تلافي نقط الخطر فيه، ثم انهم بالتجربة العملية تمكنوا من أخذ المفاجأة لصالحهم المباوأة في ايديهم ومن ثم اعطوا انفسهم حرية الحركة.

٢- ان تطبيقات نظرية الأمن الاسرائيلي التقليدية كانت تقوم على اساس تجنب عدد من المحظورات:

حرب على جبهتين او اكثر [وفي اكتوبر كانت هناك جبهتان: المصرية والسورية، وكان احتمال الثالثة مطروحا سواء بعمل الجيش الأردني على جبهته او بعمل قوات المقاومة الفلسطينية عبر نهر الأردن وان كان ذلك الاحتمال لم يتحقق لأسباب عديدة، ومع ذلك فان اسرائيل استبقت على الجبهة الأردنية وحتى آخر يوم من الحرب لواءين من المدرعات ولواء من المشاة الميكانيكية].

وتخوف اسرائيل من الحرب على جبهتين أو أكثر مرجعه الى ان هذا الوضع يحرمها من تركيز كل قوتها في اتجاه واحد والضغط عليه الى الحد الأقصى لضربه بل لسحقه تماما.

حرب طويلة [وفي أكتوبر كانت الحرب طويلة... ستة عشر يوما... واسرائيل تريد حربا لا تزيد بأي حال من الأحوال عن اسبوع واحد، لأنها في حالة التعبئة العامة تضع تحت السلاح أكثر من ٣٥٠ الف رجل وامرأة ومعنى ذلك انها لا تترك لبقية مرافق الحياة: الانتاج والخدمات من يستطيع القيام بمسئولياتها وذلك وضع لا يحتمل.

وقد روى المراقبون العسكريون انه في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ بدأت القوات الاسرائيلية في العودة يوم ٩ يونيه - في أعقاب صدور قرار وقف اطلاق النار - ثم فكت تعبئتها فورا].

وقد كان يمكن ان تطول حرب اكتوبر اكثر مما طالت، ولقد توقفت معاركها بعد ستة عشر يوما والجيش المصري سليم الجيش السوري متماسك.

حرب غالية في تكاليفها البشرية [وفي أكتوبر كانت الحرب غالية في تكاليفها البشرية وقد كان عدد القتلى كما اذاعته اسرائيل في البداية - حوالي ١٨٠٠ - صدمة، وعندما ارتفع ذلك الرقم رسميا في اسرائيل بعد ذلك - الى ٢٣٠٠ - فقد كانت تلك فجيعة. ولست أعرف ما هو الوصف الذي يمكن استعماله حينما تظهر الأرقام الحقيقية وهي أرقام تتفاوت فيها التقديرات: وزارة الدفاع الأمريكي تقدر رقم الخسائر البشرية الاسرائيلية بـ٤٥٠٠ - والمصادر البريطانية العسكرية تقدر الرقم بـ ٥٦٠٠ - والمصادر الفرنسية تقدر الرقم بـ٦٨٠٠ - والمصادر السوفيتية تصل بالرقم الى قرب العشرة آلاف].

والتكاليف البشرية بالنسبة لاسرائيل نقطة حساسة فتعدادها كله

بالقطارة: اقل من ثلاثة ملايين، ثم ان عدد اليهود في العالم كله شحيح: اقل من خمسة عشر مليونا!

٣ـ ان تطبيقات نظرية الأمن الاسرائيلي حديثا، أي بعد سنة ١٩٦٧ صدر عليها حكم يصعب استئنافه كما يصعب نقضه.

كانت اسرائيل بعد سنة ١٩٦٧ قد توصلت الى استراتيجية كما يلي:

حدود بعيدة: خط قناة السويس الى الجنوب، خط نهر الأردن الى الشرق، والمرتفعات السورية من الشمال [خطوط تضمن الأمن كما تكفل التوسع].

على هذه الحدود البعيدة تقوم نظم دفاعية معقدة، يزداد تعقيدها بازدياد الخطر المحتمل عليها ومن هنا كان خط بارليف اعقدها... تليه تحصينات الجبهة السورية... ثم شبكات الانذار على الضفة الغربية للأردن.

وكان التقدير ان هذه النظم الدفاعية، وبالذات خط بارليف قادرة على عرقلة اي محاولة هجوم عربي.

نظام سريع للتعبئة العامة: ست وثلاثون ساعة، ثم تكون القوات المسلحة الاسرائيلية كلها في دروعها ووراء مدافعها وفوق طائراتها تضرب، وتضرب بقسوة، وتضرب لتسحق!

هكذا كانت استراتيجية الأمن: حدود بعيدة، ونظم دفاعية معقدة عليها تصد وتعرقل، ونظام للتعبئة العامة يلحق بهذا كله ويتكفل ببقية المهمة.

وقال الجنرال ديان في اجتماع للجنة المركزية لحزب العمل اخيرا:

«ان هذه لم تكن اكفأ استراتيجية أمن لأسرائيل فحسب ولكنها ايضا كانت ارخص استراتيجية أمن».

واستطرد ديان:

«كانت هذه الاستراتيجية تمكننا من حماية اسرائيل ومن الاحتفاظ بالأراضي وبغير ان نكون مضطرين لقوات كبيرة تحت السلاح ترهق اقتصادنا».

واستطرد ديان وهو لا يدري انه كان في الواقع يتحدث عن سقوط استراتيجية الأمن الجديدة... الامن الأكفأ والأمن الأرخص:

«كانت مشكلتنا يوم ٦ اكتوبر اننا لم نعلن التعبئة العامة بالسرعة المطلوبة وقد اخطأنا في تحليل وتقييم ما كان لدينا من معلومات...

ان العرب ـ ومصر بالذات ـ تحركوا في مرات سابقة وبدت عندهم نية الهجوم علينا ولكن كانت تلك انذارات كاذبة.

ولم يكن في وسعنا ان نعلن التعبئة العامة في كل مرة نراهم امامنا يتحركون حركة واسعة.

لقد استجبنا من قبل لتحركات واسعة قاموا بها وكانت كل مرة تكلفنا ما بين ثمانية الى عشرة ملايين دولار، فهل كان علينا كل شهر او شهرين ان ندفع هذا المبلغ ثمنا للتحوط امام انذارات كاذبة.

اننا في اكتوبر لم نعلن التعبئة العامة الا عندما تأكدنا بما لا يقبل الشك... لكن ذلك جاء متأخرا بعض الشيء».

٤ـ ان خليج العقبة، وهو بؤرة الاستراتيجية البحرية لاسرائيل منذ قيامها، فقد بالتجربة اهميته...

لم تعد شرم الشيخ هي النقطة التي يمكن منها تهديد الملاحة الى اسرائيل، وانما نزلت هذه النقطة جنوبا، وبعيدا عن مطال اسرائيل، واستقرت عند باب المندب مدخل البحر الأحمر.

واذا توصلت الدول العربية الى رسم استراتيجية عربية، ذكية وقوية، للبحر الاحمر ـ فانها تستطيع ان تنقل هذه النقطة بعيدا اكثر عن باب المندب،

وهي تستطيع بالتعاون مع الصومال ان تغطي المساحة ما بين رأس القرن الافريقي الى الخليج العربي، وتغطيه بوجود بحري عربي مؤثر.

ولقد حدثت في اكتوبر، وبمحاولة مصر اغلاق باب المندب بداية، وهي بداية وراءها ما وراءها.

٥ـ لقد تخلفت نظرية الأمن الاسرائيلية في التطبيق العسكري وفاتها ان تدرك المعنى الحقيقي لتطورات بعيدة المدى في الاسلحة واستعمالاتها.

كانت ما زالت مأخوذة بصور الحرب الخاطفة الألمانية في الحرب العالمية الثانية [الماريشالات جودويان ورومبل الى آخره]... حرب بالطيران وبالمدرعات بالدرجة الأولى، وأسلوبها ضربات سريعة تشل امامها، ثم اختراق وتطويق وابادة.

لقد جاءت الصواريخ المضادةللطائراتبثورة.

وجاءت الصواريخ المضادة للدبابات بثورة.

وأصبحت هذه الصواريخ المضادة للطائرات صغيرة بحيث يحملها فرد واحد [مثل صاروخ الاستريلا].

وأصبحت هذه الصواريخ المضادة للدبابات صغيرة بحيث يحملها فرد واحد [مثل صاروخ المولوتكا].

ومعنى ذلك ان الجندي حامل «الاستريلا» أو حامل «المولوتكا» اصبح اقوى من الطائرة واقوى من الدبابة.

وهذا تغيير له معانيه في حقائق الحرب الجديدة.

معانيه ببساطة:

● ان الدفاع ـ لأول مرةـ يمكن ان تكون له نفس فاعلية الهجوم.

● ان الطائرة والدبابة كلتيهما تنزل عن العرش الملكي الذي تربعت عليه في حروب القرن العشرين.

● ان العدد يستعيد قيمته التي كاد يفقدها امام قوة النيران المتحركة والمركزة.

وهذا كله لصالح العرب لانه يسد جزءا كبيرا من فجوة التفوق الحضاري الذي كان ولا يزال ـ الى حد ما ـ لصالح اسرائيل!

* * *

■■■ اصل الان ـ ثانيا ـ الى مجموعة الحقائق السياسية الجديدة وقد استطيع اجمالها فيما يلي:

١ـ لقد ثبت عمليا ان هناك شيئا اسمه الوحدة العربية، وهذا الشيء كان احتمالا مستبعدا في اسرائيل تماما وكان الجنرال ديان هو الذي قال بنفسه لويليام روجرزوزير الخارجية الامريكي السابق:

ـ ليس هناك امل في ان يلتقي العرب يوما على هدف واحد.

يقولون انهم امة واحدة ولكن ذلك مشكوك فيه.

واسرائيل ـ في كل الاحوال ـ تعتمد على فرقتهم اكثر مما تخاف وحدتهم!».

ولقد برزت الوحدة العربية في شكل مهيب خلال شهر اكتوبر، وربما لم تكن هذه الوحدة في اقصى حالات الفعالية ولكنها اظهرت نفسها بما فيه الكفاية.

ولقد نقول ان التنادي للحرب في الجولة الرابعة بين العرب واسرائيل سنة ١٩٧٣ [بعد جوله أولى سنة ١٩٤٨ وجولة ثانية سنة ١٩٥٦ وجولة ثالثة سنة ١٩٦٧] كان لا يزال بأسلوب استثارة النخوة على الطريقة القبلية، ولكن

هذا الحال قابل للتغيير، لانه مع اكتشاف العرب لقيمة وحدتهم، فانهم على وجه اليقين سوف يحرصون في المستقبل على التخطيط لها باسلوب العصر وليس باسلوب الجاهلية.

٢ـ ان الانسان العربي العادي كان هو بالفعل معجزة حرب اكتوبر، وسرها وبطلها الاكبر والاوحد.

ولقد كانت شجاعة القيادة في اتخاذ القرار.

ولكن الرجال هم الذين حملوا القرار وانطلقوا به على نحو لم يكن يخطر على البال.

ولقد لخص أحد الخبراء العالميين مغزى دور الرجال في حرب اكتوبر بقوله:
ـ ان الطريقة التي حارب بها الجندي العربي سنة ١٩٧٣ ضربت التفوق الاسرائيلي المطلق.

وقد كانت هذه الطريقة حقيقة كبرى من حقائق الجولة الرابعة بين العرب واسرائيل.

وهي على هذا الاساس نذير شؤم لاسرائيل في الجولة الخامسة، ونذير كارثة في الجولة السادسة، وقد تكون نهاية كل شيء في الجولة السابعة».

٣ـ لقد تنبه العرب الى قيمة ما لديهم من ثروة ـ البترول ـ ولقد اشهروا بالفعل سلاحه واحسوا بتأثيره على العالم كله واتذكر ما كنت الاقيه عندما كنت اتحدث عن سلاح البترول في المعركة وكان ذلك قبل خمسة عشر عاما او تزيد... كان الحديث يقابل بالاهمال احيانا وبالاستهجان احيانا اخرى وقيل لي باستمرار: ـ البترول قضية اقتصادية واقحامه في السياسة او في الحرب خطأ».

ثم عرف من لم يكن يعرف اخيرا ان الاقتصاد والسياسة والحرب كلها شيء واحد في صراع البقاء والتقدم.

وخرج السلاح من غمده وارتعشت الدنيا.

ومع انه قد تكون لي تحفظات على الطريقة التي استدار بها سلاح البترول - وربما قلت ابتعد!! - إلى خدمة قضية الاسعار - الا ان الحقيقة الكبرى باقية والحقيقة الكبرى هي ان لدى العرب سلاحا... وان استعمال هذا السلاح ممكن... وان هذا السلاح لا يقاوم.

٤- لقد افاقت الدنيا كلها، بالرضى او بالغضب، من غيبوبة التنويم المغناطيسي الاسرائيلي. واذا جلست اسرائيل لتحسب خسائرها في حرب اكتوبر فلسوف تكتشف ان خسارتها على المدى البعيد في اوربا وفي افريقيا كانت اكبر من خسائرها في ميادين القتال القريبة.

كانت أوربا مدخلا لاسرائيل وكانت افريقيا منفذا لاسرائيل ولم تعد اوربا مدخلا... ولا عادت افريقيا منفذا.

٥ - لقد ادركت اسرائيل في معمل الحوادث، وداخل انابيب الاختبار انها لا تستطيع الحياة بعيدا عن الولايات المتحدة، وخارج فلكها.

وكانت اسرائيل تدرك باستمرارا اهمية علاقاتها مع الولايات المتحدة لكنها كانت تحاول ان تمنح نفسها لمسة من الاستقلال.

كانت تحاول ان تجعل نفسها - خصوصا امام افريقيا وامام حركة التحرر الوطني عموما - شريكا صغيرا للولايات المتحدة وقد نجحت هذه المحاولة الى حد ما بعد سنة ١٩٦٧ فلقد بدا ضد حقائق الطبيعة والواقع ان اسرائيل تستطيع ان تحارب وحدها وان تنتصر، وهي على هذا النحو صديق خاص للولايات المتحدة، وليست تابعا- او اداة - للامبر يالية الامريكية.

يلفت النظر ان نغمة جديدة تسود العالم الان تربط بطريقة واضحة بين اسرائيل والبرتغال وروديسيا وجنوب افريقيا وفيتنام الجنوبية وغيرها.

كيانات معادية في اساسها او في سياساتها للحرية وللتحرر... وكل قيمتها ان الاستعمار الامريكي يستغلها ويستخدمها... وقد يستطيع ان يستغني عنها تحت الضغوط او اذا تأكد ان قيمتها بالنسبة له تتضاءل بحيث تتحول من سوط في يده يجلد به الآخرين الى سوط في يد الاخرين يجلدون به ظهره!

* * *

■■■ واخيرا ـ وثالثا ـ مجموعة الحقائق النفسية، وهي ما يتجلى الان بوضوح في عملية البحث في اعماق النفس وهي عملية تجري الان في اسرائيل، وتجري بالحاح وقلق، ويمكن تلخيص هذه العوامل فيما يلي:

١ـ لقد كانت هناك ثقة في اسرائيل، او على الاقل بقايا ثقة، بقيمة الحلم الصهيوني والرؤية الصهيونية في فلسطين كانت هناك احلام بمجتمع يكون العمل فيه مصدرا لكل قيمة وكانت حركة الكيبوتز هي التعبير العملي عن هذه الاحلام.

ولكن الكيبوتز ـ حركة المستعمرات ـ راحت تتراجع رويدا رويدا وبرز على أرض اسرائيل وبين شعب اسرائيل ـ أرض الشعب المختار وشعب الارض المختارة! ـ وضع طبقي عرته تماما تجربة الحرب.

طبقة رأسمالية تنشأ
طبقة عسكرية تنشأ

تحالف بين الرأسمالية والعسكرية، ومليونيرات يظهرون من أرباح الصناعات الحربية ومن الارتباط العضوي مع الرأسمالية العالمية ـ حتى الهستدروت اتحاد العمال الاسرائيليين العام، انحرف هو الآخر وانجرف مع التيار.

ليست الدولة الحلم هي اذن. . . وانما هي دولة شأنها شأن غيرها من الدول. . . وأسوأ من ذلك فهي دولة طفيلية لا تملك امكانيات حياة مستقلة.

٢ـ كانت هناك ثقة في اسرائيل بجيل الرواد. . . هؤلاء الذين صنعوا الحلم وحققوه [بن جوريون مات شبه منفي لانه اصطدم. . . وجولدا مائير ضبطت متلبسة بالكذب على الشعب ولم تقل له الحقيقة ولا صارحته بما جرى، وهي تحكم ـ كما ظهر ـ ببلاط خاص وليس بمؤسسة حقيقية: وأفراد بلاطها المقربون من عملية صنع القرار اربعة او خمسة لا يزيدون.

وكانت هناك ثقة في اسرائيل بجيل السابرا [جيل نبات الصبار الذي ولد في اسرائيل] من أمثال ديان ولكن هذا الجيل تحركه مطامع شخصية حارقة تجعله يدخل في صراعات ومناورات بعضها يصل الى المساس بصورة الدولة امام العالم الخارجي. . . بل وبأمنها الوطني.

٣ـ وكانت هناك ثقة في اسرائيل بـ«تساهال» ـ جيش الدفاع الاسرائيلي ـ وكانت لهذا الجيش باستمرار مكانة خاصة في اسرائيل تضعه في قلب الحياة الاسرائيلية تماما بل تجعله هو قلب الحياة الاسرائيلية ذاته.

ولقد كان مشهد هذا الجيش لا يصدق يوم ٦ اكتوبر.

قيادته مفاجأة بما حدث مأخوذة.

قواته مبعثرة: اجنحتها فراش ودروعها صفيح، وتحصيناتها بيوت من ورق الكرتون. . . او هكذا بدأ في الساعات الاولى من القتال

ثم استعادت القيادة توازنها، وتماسكت قوات الجيش وراحت تقاتل، ولكن الجنرالات انهمكوا الى الاخر في الاقتتال فيما بينهم ولسوف تتهاوى رؤوس كثيرة ... سوف يتهاوى أغلب الظن رأس الجنرال ديان وزير الدفاع ورأس الجنرال اليعازر رئيس هيئة أركان الحرب، ورأس الجنرال زاييرا رئيس المخابرات العسكرية.

وليس تهاوي الرؤوس هو المهم ولكن التساؤل سوف يبقى :

ـ وماذا حدث لـ«تساهال»؟ والى اي مدى اصبح ممكنا لاسرائيل ان تعتبره قلبها، أن تنام واثقة انه في مكانه يدق بانتظام!؟».

٤ ـ وكانت هناك ثقة لدى الاسرائيلي العادي في انه لم يرتكب جريمة، فلقد ابعد جسم الجريمة وهو فلسطين، عن خواطره وعن افكاره، بل ابعد عن مدى بصره. . .

وربما كان اقصى ما كان يمثله الفلسطيني بالنسبة للاسرائيلي هو انه مجرد شبح من الماضي ولكن الحرب وما سبقها وما لحق بها وما سوف يلحق حدثت شيئا لم يكن منتظرا كأنه عودة الشبح عاد الفلسطيني. . . انساناً موجودا، يعيش ـ ويموت ـ مطالبا بحق له سلبه منه الاسرائيلي وجاء العقاب ليطارد الجريمة!

٥ ـ وكانت هناك ثقة لدى الاسرائيلي في انه يعيش وسط عالم هو سيده، فهو المتقدم الوحيد وسط حشد من الهمج المتخلفين لكن المواجهة في ميدان القتال غيرت الصورة وفتحت الباب لرؤية جديدة على الحقيقة العربية المعاصرة، فضلا عن امكانيات تطورها.

وقد سمحت قيادة الجيش المصري لاحد الخبراء النفسيين باجراء تجربة على عدد من الضباط الاسرائيليين الاسرى لكي يقيس مدى معرفتهم بمصر وشعبها. . واخذ بعضهم الى احد فنادق القاهرة الكبرى، ثم اخذهم الى المنطقة الصناعية الكبيرة بحلوان، ثم اخذهم الى حرم جامعة القاهرة وكانت النتيجة شبه صدمة عصبية لهؤلاء فقد كان ما رأوه ابعد الاشياء عن تصوراتهم.

* * *

هذه كلها حقائق جديدة تعصف في وجدان الاسرائيلي العادي وهو ذاهب بعد أيام الى صناديق الانتخابات.

ولعلي احذر في النهاية

ان كل ما قلته لا ينبغي المبالغة فيه.

ان الحقائق الجديدة لن تجعل اسرائيل تسقط من الداخل كالثمرة الناضجة.

لا أقول بذلك... بل هو آخر ما ارضى لنفسى أن أقول به»

ما اقول به شيء واحد:

- ان اسرائيل بعد تجربة اكتوبر سوف تكون شيئا مختلفا.

وقد يصعب تحديد اتجاه الاختلاف وان كنت اتصوره الى الأسوأ على أساس عقدة «الماسادا» - العناد الى درجة الموت الانتحاري - في التاريخ اليهودي... ومع ذلك فلماذا نسبق الحوادث؟

اقول بالتحديد: انها سوف تكون شيئا مختلفا...

اسرائيل سنة ١٩٧٤ وما بعدها لن تكون هي اسرائيل سنة ١٩٧٣ وما قبلها.

هذا ما أقوله.. ولا اقول غيره... وعلينا ان نتابع!

الجنرال.. والغزالة!

٢٥ يناير ١٩٧٤

لماذا استقال الجنرال آريل شارون، قائد قوات الثغرة الاسرائيلية غربي السويس؟.. ولماذا آثر ترك خدمة الجيش الاسرائيلي برغم تصريحات له قريبة، أكد فيها تمسكه بالبقاء في الخدمة العسكرية مهما حدث أو يحدث؟

لماذا؟

□

إذا قيل أن السبب هو اعلان الاحتجاج على انسحاب القوات الاسرائيلية من الغرب طبقا لما جاء في اتفاقيات الفصل بين القوات- فلعليّ أقول أن ذلك التفسير يصبح تبسيطا للأمور بأكثر مما هو جائز، إزاء ظواهر ووقائع تستحق منا دراسة أكثر عمقا، وليس بالضرورة اكثر تعقيدا.

... واذن ما هو السبب؟

□

ان الاجابة على أي سؤال فيما يتعلق بأي تصرف سياسي تمر في الغالب بثلاث مناطق: منطقة ما هو «خاص»- ومنطقة ما هو «خاص عام»- ومنطقة ما هو «عام».

ذلك أنه لا يمكن مهما فعلنا ان نعزل أي تصرف عن مشاعر ومزاج صاحبه، وحتى إذا كان التصرف سياسيا فانه في الأصل انساني.

وهذه منطقة ما هو «خاص» .

ثم ان الحدود الفاصلة بين ما هو خاص وما هو عام ليست ـ
وقاطعة كأنها خط أسلاك شائكة محاط على الناحيتين بحقول الغام مبثوثة .

وهذه منطقة ما هو «خاص عام» في أي تصرف، أي المنطقة التي ة
فيها النزعات الشخصية بالاعتبارات الأوسع من شخص صاحبها .

وأخيراً فان وراء كل تصرف سياسي بالتأكيد قضية . . .

* * *

وإذا طبقنا هذه المقاييس على استقالة الجنرال آريل شارون وبـ
بمنطقة ما هو خاص في الأسباب التي دعته إلى الاستقالة من الجيش الاسر
هذا الأسبوع ـ لوجدنا ما يلي :

١ ـ إن شارون يشعر انه لم يعد له عمل في خدمة الجيش الاسرائيلي ،
شعر بذلك من قبل في شهر يوليو سنة ١٩٧٣ ، حينما طلب احالته إلى التقاعد
سنوات في قيادة الجبهة الجنوبية ـ مع مصر . وكان دافعه الى هذا الطلب في
الوقت هو معرفته مقدماً بأن الحكومة الاسرائيلية قررت تخطيه في التعيين لمن
رئيس أركان حرب القوات المسلحة الاسرائيلية بعد انتهاء خدمة الجنرال
اليعازر في هذا المنصب، واتجاه الترشيح في الغالب الى الجنرال اسرائيل تال

ولقد تصور الجنرال شارون ـ ربما لوهلة ـ أن دوره في فتح الثغرة غ
قناة السويس قد يعطيه فرصة جديدة على القمة أو بقربها في هرم المؤ
العسكرية الاسرائيلية، لكن الشواهد كلها أقنعته بأن ذلك احتمال مس
تماما .

٢ ـ وكان أكثر ما اقنع شارون بذلك هو تعيين الجنرال «افراهام آ

قائداًللجبهة الجنوبية ـ مع مصر. والعلاقات بين «شارون» وبين «ادان» متوترة وكـانت بين الاثنـين اتهامـات متبادلـة أثناء عمليـة فتح الثغـرة في غرب قنـاة السويس، فقد كان اتهام «آدان» «لشارون» بأنه اندفـع في مغامـرة خطرة دون أن يتخذ ضمانات تأمينها، وحتى على فرض نجاحها فان الحرب ليست العاب قمار ترتهن بالحظ وحده ـ وأما اتهام شـارون لآدان فقد كـان «التردد بـأكثر مما ينبغي، والبطء بأكثر مما هو لازم، والعجز عن تدعيم واستغلال نجاح ظهرت بوادره».

وقد دارت هذه الاتهامات كلها على الهواء بأمواج شبكات الاتصال على مستوى القيادات العسكرية العليا في الحرب، وكـانت مسموعـة في الساعـات الأولى من فتـح الثغرة حـين اندفـع «شارون» بمجمـوعات ميكـانيكية خفيفـة بلوائـين من المدرعـات، وأراد آدان أن يؤمن دخول قـواته إلى الثغـرة واعتبـر شارون أن آدان تلكأ.

٣ـ ان «شارون» يجد ان بقاءه في الجيش يضر به ماديا لأنه يجعله بعيـدا عن مزرعته في بئر سبع، وهي مزرعة مساحتها الفـان وخمسمائـة فدان، وقـد قـال شارون من قبـل: ان خدمتـه في الجبهات المختلفـة أضرت بمـزرعته لأن ابتعاده عنها قلل من رقـابته عـلى انتاجهـا، على أن هنـاك آخرين يقـولون أن خـدمة شـارون في الجيش خصوصـا فترة عمله في القيـادة الجنـوبيـة لم تلحق ضـرراً ـ بل جلبت نفعـاً ـ على مـزرعـة شـارون، لأن جـرارات الجيش عملت بالقرب منها ومهدت طريقا مؤديا إليها!

. . . وباختصار وفي نـاحية الاسبـاب الخاصـة فان شـارون يشعر انهم تخطوه على سلم القيادة العليا، ثم وضعـوا فوقـه رجلا لا يحبـه وهو آدان، ثم ان مصالحه المادية قد تتأثر.

* * *

نصل إلى منطقة الأسباب «الخاصة العامة» وعندها نجد ما يلي مما يدفع

الجنرال شارون إلى الاستقالة من خدمة الجيش:

١ـ ان مجموعة «ليكود» التي يرأسها مناحم بيجين، والتي لعب شارون نفسه دورا كبيرا في تكتيل عناصرها في شهري أغسطس وسبتمبر ١٩٧٣ـ قد اختارته في قائمتها الانتخابية، وجاء ترتيب اسمه الخامس في هذه القائمة ومعنى ذلك أنه له مقعدا في الكنيست ـ الجديد ـ ينتظره إذا رغب وهذا مكان مناسب له خصوصا وهو يريد أن يثير مسائل كثيرة مما جرى في الأيام الأولى لحرب اكتوبر.

وبالتأكيد فان تقرير لجنة التحقيق الخاصة التي شكلت برئاسة قاضي المحكمة العليا لتحديد مسئولية القصور في الاستعداد للحرب يوم ٦ أكتوبر ـ سوف يذهب إلى الكنيست أو على الأقل إلى لجنة الأمن والدفاع فيه وهذه فرصة في رأي شارون لا تعوض لكي ينتقم من كل الذين أساءوا إليه حين تخطوه أو خالفوه.

وقد كان آخر ما قاله شارون وهو يغادر مركز قيادته في غرب قناة السويس لآخر مرة هو:

ـ سوف أذيقهم طعم الجحيم»

ولم يكن بالطبع يتكلم عن المصريين!

٢ـ ان الجنرال شارون قد بدأ يشعر أن هناك نظاما للانضباط الحديدي سوف ينزل على الجيش الاسرائيلي بعد الأضرار البالغة التي احدثها تسيب الأيام الأولى من الحرب على الجبهة المصرية وحين كان الاقتتال بين جنرالات الجيش الاسرائيلي على أشده بينما كان القتال مع الجيش المصري في ذروة ضراوته.

ولقد وضع الجنرال ديان ـ وهو الوحيد الذي ظل شارون إلى آخر لحظة يحترمه ويحتمي به ـ قواعد جديدة للعلاقات العامة في الجيش الاسرائيلي وبينها

حظر دخول الصحفيين الأجانب إلى قيادات الجيش إلا لمهام محددة لساعات محدودة، كما أنه قد أصبح محظوراً حظراً باتاً أن يتحدث ضباط الجيش الاسرائيلي إلى «الغير» بدون وجود مسئول من المخابرات الاسرائيلية له وحده أن يقرر حدود ما يقال وما لا يقال.

ومعنى ذلك كما يقول شارون بنفسه «انهم يريدون وضعي في قميص من الحديد».

٣ـ ان شارون نفسه أحس بأن الرأي العام الاسرائيلي مجروح من السلوك العام والعلني لجنرالاته وقت المعركة، والجيش الاسرائيلي له مكانة خاصة في المجتمع الاسرائيلي وهذه المكانة حجمها بحجم مشكلة الأمن في اسرائيل تماما، ومشكلة الأمن في اسرائيل هي كل حياة اسرائيل، ومن هنا نستطيع تصور مكانة الجيش الاسرائيلي في مجتمعه.

ولقد أحس شارون ـ كما أحس غيره ـ أن الرأي العام الاسرائيلي يريد ابعاد الجيش عن الصخب السياسي، والرأي العام الاسرائيلي مفتون بمغامرة شارون ولكن الاغلبية فيه تفضل أن تسمع شارون يقول ما يريد بملابس مدنية. . . ويضايقها أن تسمع منه وهو باللون «الكاكي» كما يقولون!

وهكذا أحس شارون أن «جمهوره» يريد أن يسمع منه ولكنه يريده في زي آخر.

. . . وباختصار وفي ناحية الأسباب الخاصة العامة فان شارون وجد أن مقعد الكنيست افضل بالنسبة له، ثم أنه يعطيه حريته التي يطلبها في الكلام، ويكسوه بزي آخر لا تتمزق أمامه مشاعر الجمهور الذي يريد أن يسمعه، وإذا كان مستقبله في الجيش قد توقف فان مستقبله في السياسة على وشك أن يبدأ . . .

* * *

هكذا تتبقى منطقة الاسباب العامة التي دعت ـ وأكاد أقول أرغمت ـ الجنرال شارون على الاستقالة من خدمة الجيش.

وهذه المنطقة هي القضية ذاتها أو هي الصلب من القضية وأظن أن هذه المنطقة هي مسافة الخلاف الكبير في التفكير العسكري الاسرائيلي حول القيمة الحقيقية للثغرة التي فتحها الجنرال شارون في غرب قناة السويس:

● هل كانت هذه الثغرة عملا حربيا عظيما غير نتيجة حرب اكتوبر من نكسة لاسرائيل إلى نصر حرمت في اللحظة الأخيرة من ثماره [وهذا هو رأي الجنرال شارون]

أو:

● ان هذه الثغرة كانت مغامرة خطرة نجحت عمليا ونفسيا لساعات أو لاسابيع ولاسباب خارجة عن تخطيط مدبريها ويستحسن تصفيتها بكرامة وهدوء [وهذا هو رأي عدد آخر من جنرالات اسرائيل وفي مقدمتهم الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق والمشرف على تنسيق العمليات على جبهة سيناء]

ولقد بدأ هذا الخلاف من ثاني يوم في حرب اكتوبر وظل محتدما طول فترة العمليات وبعدها وتجاوز النطاق العسكري وعلت النبرات السياسية فيه على غيرها من اصوات الكلام!

□

وربما اقتضانا الامر أن نلقي نظرة أبعد على عملية الثغرة، بدايتها كفكرة، ثم التخطيط لها، ثم تنفيذها، ثم نتائجها الظاهرية والحقيقية.

ويمكن تلخيص ذلك كله فيما يلي:

١ـ لقد كانت اسرائيل تحاذر دائما من أي حماقة في غرب قناة السويس،

وبعد معارك الأيام الستة، فقد كان الطريق مفتوحا امامها وحتى القاهـرة، ولم يخطر ببال احد- على سبيـل الجد- ان يعبـر القناة لان المخـاطر شـديدة وأولهـا الامتـداد البعيد بـأكثر ممـا هو محتمـل بالنسبـة للجيش الاسـرائيـلي، وثـانيهـا الاقتراب من مناطق الكثافة السكانية المصرية. . وأسباب أخرى.

كان الطريق مفتوحا امامها في الغرب ومع ذلـك توقفت اسـرائيل عـلى الضفة الشرقية سنة ١٩٦٧ ولم تعبر ولا بقارب مطاط واحد.

٢- بـدأ التفكير في عمليـة محدودة في الغـرب سنة ١٩٧٠، في أعقـاب حرب الاستنزاف الشهيرة، وفي أعقاب نجاح مصر في بنـاء حائط الصـواريخ العتيد على الضفة الغربية لقناة السويس وكان هذا الحائط أكبر شبكة صواريخ عرفها العالم، وكان من أثر بناء هذا الحائط أن أصبح الطيران الاسرائيلي- وهو سلاح الردع الاساسي- عاجزا تماما عن العمل فوق القوات المصرية.

ورأت القيادة الاسرائيليـة انها سوف تكـون في مأزق صعب إذا حـدث واستؤنفت حرب الاستنزاف أو إذا حدث وقامت مصر بعملية أكبر لعبور قناة السويس.

وهكذا بدأ التفكير في عملية اسرائيلية محـدودة في الغرب تقـوم بها قـوة عمل اسرائيلية خاصة تكون مهمتها تحطيم جـزء من شبكة الصـواريخ لفتـح ثغرة فيه تستغلها الطائرات الاسرائيلية لكي تتم بأمان تدمير الحائط كله، ومن ثم تصبح قوات الجبهة المصرية تحت رحمة الطيران الاسرائيلي.

٣- لقد كان هـذا التفكير دائـرا- بشهادة الجنـرال حاييم بـارليف رئيس الأركان في ذلك الوقت- حينما عين الجنرال شارون قائداً للجبهة الجنوبية- مـع مصر.

واهتم شـارون بهذه الفكـرة، وشارك في التخـطيط لها، واختـار بنفسه مجمـوعات عنـاصر العمـل التي تكلف بها، وكـان هو نفسـه الذي صـك لهـا

اسمها الرمزي الذي عرفت به من وقتها وحتى الآن وهو اسم: «الغزالة».

ولعل هذا الاسم الرمزي نفسه يشير إلى التصور الحقيقي وراء هذه العملية: حركة سريعة وخفيفة.. تعبر القناة بقفزة واحدة.. وترمح هنا وهناك في لمح البصر، ثم تفر عائدة من حيث أتت بعد أن تتمم دورها، أو يلحقها الصياد فيصيبها، بعد أن تكون قد فتحت ثغرة في السماء وليس ثغرة على الأرض، أي ازاحت جزءاً من حائط الصواريخ.. دون أن تحتل أرضا عليه أو من حوله!

وبلغ من اهتمام شارون «بالغزالة» أنه استكشف مواقع العبور المحتمل بنفسه واختار منها موقعا عند نقطة الدفرسوار وأمر سلاح المهندسين في هذا الموقع ببناء منطقة تجمع للدبابات والمصفحات، وبتخفيف الحاجز الترابي على القناة ليسهل فتح فجوة فيه إذا جاء وقت تنفيذ العملية، وبوضع علامات من الاحجار الحمراء هناك لتكون دليلا لقوة العمل جاهزا يشير لها نحو منطقة الاختراق إذا حانت الفرصة.

٤ـ وفي يوم الجمعة ٥ أكتوبر، وقبل أربع وعشرين ساعة من بدء العمليات وصل الجنرال شارون إلى مقر القيادة الجنوبية المتقدم في أم خشيب.

كان شارون قد استدعى للخدمة ضمن من استدعوا من كبار الضباط في اسرائيل بعد أن أحست القيادة الاسرائيلية بنية هجوم مصري واسع.. وشيك.

وتوجه «شارون» إلى غرفة العمليات حيث كان يجلس قائد الجبهة الحالي ـ وقتها ـ ومرؤوسه السابق ـ من قبل ـ «الجنرال جونين» وعدد من أركان حربه.

واشترك الجنرال شارون في مناقشة حول التطورات المحتملة عرضت

فيهـا مجموعـة من صور الاستـطلاع التي التقطتها الطائـرات الاسـرائيليـة، وأمسك الجنرال شارون ببعض هذه الصور يتأملها ويقول:

ـ هـذه معدات عبـور واضحة في الصـورة. . معنى ذلـك انهم سـوف يهـاجمون. . بهـذه الأوضاع التي أراهـا امامي فـان هجـومهم سـوف يجيء في ظرف ساعات قليلة. .

وبدأ شارون يعرض مقترحات وتصورات أحس أن جـونين لا يشـاركه فيها فحاول الاتصال بموشي ديان في تل أبيب، ثم تمكن من الاتصال بدافيـد اليعازر في مقر قيادة «تساهال»ـ جيش الدفاع الاسرائيـلي، وكان رأي الجنـرال دافيد اليعازر أن تكون المسئوليـة للقائـد المسئول [جـونين] وان يلتـزم شارون بالتسلسل القيادي في عرض أي مقترحات له.

٥ـ وبعد الظهر بقليل من يوم ٦ اكتوبر العظيم في مصر، صدر القـرار وانـطلق الـرجـال ولم تمض سـاعـات حتى كـان خط بـارليف قـد سقط أمـام الموجات الاولى للهجوم المصري.

أخذت قوات الخط كلهـا بالمفـاجأة رغم أن اشـارة استعداد كـانت قد أرسلت لهـا، وتبين فيـما بعد أن هـذه الاشارة لم تصـل بسبب ارتبـاك القيـادة وخطوط اتصالاتها.

وكان شارون قد ترك مقر القيادة العـامة المتقـدم وقضى الليل في قيـادة مدرعات أقامها على عجل للقوات التي وضعت تحت امرتـه ليقوم بـالهجمات المضادة الأولى.

وعند ظهر اليوم التالي كـان شارون في حـالة عصبيـة بالغـة حملها معـه وذهب إلى المقر المتقدم للقيادة العامة في الجنوب.

كـان سبب عصبيته هـو معارك الـدبابـات التي وقعت في الصباح أمـام الفرقة الثانية مشاة المصرية ضمن قوات الجيش الثاني.

لقد فوجيء شارون في هذه المعارك بجندي المشاة المصري يحمل الصوارخ المضادة للدبابات من طراز مولوتكا، كما فوجيء بكتائب المدرعات الملحقة بفرق المشاة المصرية.

وأتذكر أنني زرت ساحة هذه المعارك فيما بعد مع الجنرال اندريه بوفر ونظر الجنرال بوفر إلى آثار المعركة من حوله، ثم قال بتأكيد خبير يعرف ما يقول:

«أستطيع أن أشهد بما أراه من حولي الآن، انكم هنا حاربتم باكفأ مستوى يعرفه العصر».

وربما كانت ملاحظة الجنرال بوفر فيما بعد هي نفس السبب الذي جعل الجنرال شارون- من قبل- يشعر بالعصبية فقد رأى نفسه يفقد في هذه الساحة وحدها نصف لواء بأكمله من مدرعاته.

٦- احس شارون بمنطوق ما قاله بنفسه أن الخطة المصرية في هذه المرحلة- وبعد اتمام العبور وظهور خمس فرق من الجيش المصري فجأة على الضفة الشرقية لقناة السويس- تتلخص في «ان المصريين يريدون أن يجرونا إلى مهاجمتهم بالدبابات وحين نقترب منهم فانهم يصدموننا بصواريخهم المضادة للدبابات وبدباباتهم نفسها».

وأسرع الجنرال شارون إلى مقر قيادة الجنرال جونين ليعرض تقديره ويقول وبالحرف طبقا لما ذكره هو فيما بعد:

- إذا استمر الوضع على هذا الحال فاننا سوف نخسر. . . اننا الآن نرقص على انغام مصرية ولا بد أن نتوقف عن ذلك فوراً».

وكان الجنرال جونين في حالة يرثى لها.

كان قد فقد سيطرته على نفسه وعلى الجبهة التي يقودها وكان ضباطه من حوله قد أحسوا بتآكله من الداخل منذ الساعات الأولى للهجوم، وبدا

ذلك واضحا من تصرفاته العادية حتى عندما مد يده إلى فم أحد معاونيه فانتزع منه سيجارة كان يدخنها وألقى بها على الأرض وراح يدوسها بقدمه حتى طحنها تقريبا وهو يقول:

- «هل تدخن يوم السبت؟... هل نسيت انك يهودي؟» كانت هذه هي حالة جونين عندما دخل عليه شارون، وأدرك شارون على الفور أنه أمام رجل تم انهياره داخلياً أو هو بقرب الانهيار التام من داخله.

وكان سؤال جونين لشارون وهو يحاول السيطرة على أعصابه:
- ما هي توصياتك؟
وقال شارون على الفور:

- لا بد أن نوقف الاسلوب الذي نقاتل به الآن.. لا بد أن نأخذ نحن زمام الهجوم في ظرف ملائم لنا».

ثم برقت الفكرة في عينيه وقال على الفور:

- انني افكر في «الغزالة»!
ورفض جونين الفكرة بشدة.

وتطورت المناقشة إلى مشادة بين الجنرالين وكانت هذه هي المشادة التي قال فيها شارون لجونين عبارته المشهورة.

- جونين.. لو كان لي رأي فيما يحدث لما كان لك مكان هنا في هذه القيادة».

وتركه وخرج بدون استئذان وكان أول ما فعله الجنرال جونين بعد ذلك هو انه طلب من مركز اتصالاته الرئيسي ان يضع شبكة اتصالات قيادة الجنرال شارون تحت الرقابة وان يتسمع على كل الرسائل الصادرة منها سواء للقيادة العامة أو لقواد الألوية المدرعة مع شارون!

٧ـ ووصلت الصورة إلى القيادة العامة في تل ابيب وتقرر ارسال الجنرال حاييم بارليف ـ وزير المواصلات وقتها ورئيس هيئة الاركان السابق ـ إلى سيناء لتنسيق القيادة بين الجنرالين المتخاصمين هناك، ودعا بارليف إلى اجتماع لبحث الموقف حضره شارون.

وعرض شارون وجهة نظره:

● لا بد من تحويل « تيار الحرب» لتأخذ اسرائيل زمام الهجوم.

● الحل في رأيه هو «الغزالة» مع تعزيزها بقوات أكبر وتوسيع نطاق مهمتها.

● اذا حدث اختراق إلى الغرب بخطة الغزالة فسوف يصاب التفكير المصري بشلل وارتباك.

● ان الهجوم في الغرب سيقوي الروح المعنوية بين القوات ووراء القوات هناك في اسرائيل بعد كل ما وقع من صدمات.

● ان القتال في الغرب قد يعطي الجيش الاسرائيلي فرصة للمناورة الواسعة بالدبابات ولحركات الاختراق والتطويق والابادة.

● أن أي نجاح يحدث هناك مهما كان محفوفا بالمخاطر يمكن احتماله لان الدول الكبرى لن تسمح باستمرار الحرب طويلا ولا بد أن يتوقف اطلاق النار على الجبهة في أيام ومن الملائم سياسيا أن يكون للجيش الاسرائيلي في تلك اللحظة قوات في الغرب

واستمع بارليف إلى بقية وجهات النظر، ثم كان رأيه:

ـ ان الوقت ما زال مبكرا للتفكير في عملية «الغزالة» وان هناك محظورات ما زالت عليها:

● ان القتال قد يستمر اياما اخرى قبل صدور قرار بوقف اطلاق النار يحمي قفزة «الغزالة» في الغرب.

● ان الخسائر العالية في معارك الدبابات لا تسمح ببعثرة الوية مدرعة قد تشتد الحاجة اليها إذا حاولت القيادة المصرية تطوير هجومها في الشرق.

● ان هناك فرقة مصرية مدرعة موجودة كاحتياطي استراتيجي في الغرب وتدخلها يستطيع قتل «الغزالة» على الفور.

وكان قرار بارليف بعد ذلك هو انه لا بأس من تحويل شارون بالاستعداد لتنفيذ عملية الغزالة شريطة ان ينتظر اشارة تصله فيما بعد وعندما ترى القيادة العامة ان الظروف أصبحت مهيأة.

وفي يوم ١٤ أكتوبر ونتيجة الحاح مستمر من الجنرال شارون الذي بدأ يحصل في ذلك الوقت على تأييد الجنرال ديان- الذي وجد نفسه مكشوفا إلى أقصى حد أمام جميع أعدائه السياسيين، والذي كان يتحرق شوقاً إلى أي عملية براقة- صدرت الاشارة إلى شارون بأن يكون جاهزا للعمل في ظرف ست ساعات.

ولم يقف بارليف موقف المعارضة لأسباب شرحها:

● ان جهود وقف اطلاق النار على وشك أن تصل إلى نتيجة.

● ان المعونات الأمريكية أصبحت سيلا متدفقا على اسرائيل.

● ان الفرقة المدرعة المصرية التي كانت احتياطيا استراتيجيا في الغرب قد عبرت إلى سيناء لتطوير هجوم مصري كان القصد منه التخفيف عن سوريا.

وكان تفكير «بارليف» في عملية الغزالة محددا بأهداف معينة:

● فتح ثغرة في حائط الصواريخ المصري تمكن الطيران الاسـرائيلي من العمل بحرية فوق الجيوش المصرية.

● أحداث أثر نفسي عميق على التفكير العسكري المصري.

● الاحتفاظ بمواقع في الغرب يمكن ان يحميها وقف اطلاق النار ويمكن أن تكون المساومة عليها بعده.

٨ـ بدأت قفزة «الغزالة» في الساعة الثالثة بعـد الظهـر من يوم الاثنـين ١٥ أكتـوبر وكـانت العملية مغـامرة بكـل المصـادفـات التي يمكن ان تلقـاهـا مغامرة.

ولست أريد الآنـ ولا هو موضوع هذا الحديثـ ان ادخل في تفاصيـل عملية الغزالة وسير وقائعها، ولكنه في اليوم الذي تنشر فيه اشارات شارون من مقر قيادته المتحركـ وكان من خمس مصفحات تتوسطهـا عربـة قيادتـهـ سوف تظهر صورة غريبة.

اشــارات تشتم قـادة تشكيــلات شـارون انفسهم لأنهم تعــطلوا عن اللحاق به أمام هجمات مضادة قامت بها وحدات من الجيش الثاني.

اشارات تشتم سلاح المهندسين لتأخيره في مد الكبارى التي تعبـر عليها المدرعات لتعزيز الطلائع التي دخل بها شارون.

اشارات تشتم الجنرال أفراهـام آدان قائد المدرعات الذي كان عليه ان يلحق شارون بلواءين من الدبابات ولكنه تأخر لأنه أراد أن يتأكد أن مـداخل الثغرة مؤمنة وأن الجسور التي كانت تحت قصف مصـري شديـد قد أصبحت مفتوحة.

وسادت الفوضى شاملة لأيام على هذا القطاع من الجبهة في الغرب.

وكانت الفوضى هي التي ساعدت شارون من حيث لا يدري في حين نها كان يجب ان تكون القاضية عليه!

ونزل قرار وقف اطلاق النار على الجبهة، ولم يلتزم به شارون، ولم يكن يستطيع- من وجهة نظر عسكرية بحتة- أن يلتزم بـه لأن قواتـه في اوضاع ٢٢ أكتوبر كانت معرضة ومكشوفة إلى حد خطير ثم أنه لم يكن قد وصل بعـد إلى مواقع يحقق منهـا هدفـا اضافـة إلى أهدافـه وهو قـطع طريق الجيش المصـري الثالث.

هكـذا واصل «شـارون» تقدمـه تحت وقف اطلاق النـار ونزل جنـوبـا فأحاط بالسويس واحتلّ تقاطـع الطرق بينهـا وبين القـاهرة ومـد خطوطـه الى الأدبية وحاول الوصول إلى السخنة!

٩- كان وضع قـوات الثغرة- عـلى حد تعبـير الرئيس انـور السادات في مؤتمره الصحفي الكبير بعد وقف اطلاق النار- هشا.

وربما كانت أخطر نتيجة لهذه الثغرة هي الأثر السياسي والنفسي.

ومن وجهة نظر عسكرية فقد أصبح وضع قوات الثغرة في نطاق مقدرة العمل المصري في اللحظة التي أمكن فيها حشد قوات جديدة من فـرق المشاة ومن المدرعات والمدفعية تحكم من حولها حصارا كاملا.

وبهذه الطريقـة أصبح وضـع القوات الاسـرائيلية عـلى الجبهة المصـرية كلها- وليس في الثغرة فقط- وضعا غريبا:

عززت الثغرة خـوفا من الضغط المصـري المحتمل عليهـا أو اقتحامهـا فأصبحت قوتها سبعة الوية.

ولحمـاية الـطرق والمداخـل اليها فقـد وقفت على الغـرب خمسة الـويـة أخرى مهمتها حماية مواصلات الثغرة.

وهذا كله غير عشرة الوية وزعت أمام الجيشين الثاني والثالث.

ووراء هذا كله احتياطي استراتيجي متأهب للعمل.

أي أنه كان لاسرائيل ما بين خمسة وعشرين وثلاثين لواء في سيناء تحت التعبئة العامة وتحت التوتر الشديد وأمام الخطر في أي لحظة.

وتصبح المقارنة مهمة إذا تذكرنا أن القوات الاسرائيلية المعبأة على كل الجبهات العربية قبل حرب اكتوبر كانت سبعة الوية في حالة تعبئة كاملة وخمسة ألوية في حالة تعبئة.

وكان الوفد العسكري المصري في جنيف متنبها إلى خطورة وضع القوات الاسرائيلية على الثغرة وفي سيناء وقد قال رئيسه صراحة:

ـ ان أحداً لا يمكن أن يخيفنا بهذه الثغرة فنحن نعلم قيمتها العسكرية، فهي معرضة، ثم ان حمايتها تحتاج إلى تعبئة ضخمة وراءها في سيناء».

وكان رد الجنرال جور رئيس الوفد الاسرائيلي مائعا حين قال:

ـ ان قوادنا يرون أن هناك فوائد كثيرة تعود علينا من بقاء هذه الثغرة وهم يرون أمكان استغلالها وأما عن التعبئة فنحن نستطيع احتمالها سنة وسنين!»

وقال الوفد العسكري المصري:

ـ ليكن فلتبق الثغرة ولتعودوا إلى خطوط ٢٢ اكتوبر»

وكان رد جور وبسرعة «أن هذا مستحيل عسكريا».

١٠ـ كانت المناقشة ما زالت دائرة في اسرائيل حول قيمة الثغرة.

كان الجنرال شارون وهو مغرم بالتعبيرات الملونة يقول في اجتماعات القيادة العامة في تل ابيب:

ـ ان الثغرة مسدس مصوب إلى قلب مصر. . . ثم هي حبل حول قبة الجيش الثالث».

وكان رأي غيره:

ـ ان الثغرة قد أدت دورها النفسي والسياسي وهذا يكفي

أما عسكريا فالمسألة تختلف.

هل تستطيع أن تتقدم من هذه الثغرة لتهديد القاهرة مثلا. . .؟

وأما عن الجيش الثالث فحصاره مرهون بوقف اطلاق النار وإذا حدث تجدد لاطلاق النار فان الجيش الثالث فقد يصبح في مصيدة ولكن قوات الثغرة هي الأخرى سوف تصبح في مصيدة وهذا ما لا تستطيع اسرائيل تحمله».

وكان هؤلاء يضيفون:

ـ ان بقاء قوات الثغرة يعرضها لحرب استنزاف يومية وهو ما تخشاه اسرائيل حتى ولو كان ضحايا حرب الاستنزاف قتيلاواحداً كل يوم.

ثم أن بقاء قوات الثغرة معناه بقاء حالة التعبئة العامة وهو ما لا تستطيع اسرائيل احتماله إلى وقت غير محدود».

وانتهت المناقشة.

وعرف شارون أنه خسر نظريته داخل الجيش الاسرائيلي

ان قيادة الجيش الاسرائيلي وافقت ـ ضمن اتفاقية الفصل بين القوات ـ

على سحب قوات الثغرة والانسحاب إلى خط المضايق.

* * *

لقد وجد نفسه وحيدا في النهاية، عن كل الفكر السائد في القيادة الاسرائيلية، مهزوما داخل المؤسسة العسكرية التي ينتمي إليها.

كان يظن أن بيده مسدسا موجها إلى قلب مصر، وحبلا حول رقبة الجيش المصري الثالث

وبقرارهم النهائي فلقد قالوا له جميعا وببساطة:

انه ليس في يده مسدس.. وليس في يده حبل».

وتنتهي مغامرة شارون... وتنتهي معها خدمته العسكرية كلها!...

وهذه هي القضية!

الظلال.. والبريق

أول فبراير ١٩٧٤

وسط الصخب العالي، وسحب الدخان الكثيف، مما تثيره الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط الآن- يحق لنا ان نتساءل:

- هل يمكن ان نكون أمام تغيير كبير لحق بالسياسة الأمريكية في المنطقة ولم نتنبه له بالرصد والتحليل في الوقت الملائم وبالسرعة الواجبة؟»

اذا اردنا- أو حاولنا- ان نجيب على هذا التساؤل. فلقد يكون مناسباً ان نتفق اولاً على ما يلي:

ان السياسة الخارجية لأي قوة دولية- خصوصاً اذا كانت احدى القوتين الأعظم- هي: تعبير عن مصالح دائمة، واستجابة- او استغلال- لظروف أو ملابسات متغيرة.

ومعنى ذلك ان السياسة الخارجية لأي قوة دولية فيها العنصران معاً.

عنصر الاستمرار المستمد من الاستراتيجية العليا لهذه القوة الدولية، ومن طبيعة علاقاتها على هذا الأساس مع اطراف متعددين.

وعنصر طارىء يرجع الى ظروف مؤقتة، او يعود الى اسباب متنوعة بينها اختلاف الشخصيات المشرفة على التوجيه وتباين امزجتها.

وعلى سبيل المثال، فإن سياسة الولايات المتحدة ازاء النظام الثوري في مصر سنة ١٩٥٦، كانت اسقاط هـذا النظام او ارغـامه عـلى الركـوع، وكان سحب العرض الامريكي بالاسهام في بناء السد العالي في يوليو سنة ١٩٥٦، والطريقة التي اعلن بها جون فوستر دالاس (وزير الخارجيـة الأمريكيـة في ذلك الوقت) قرار سحب العرض الامريكي- تطبيقاً عملياً لهذه السياسة.

ومع ذلك، فانه لم تكد تمضي اسابيع قليلة على هـذا الاجراء العنيف، حتى كان جون فوستر دالاس بنفسه يقود حملة الادانـة ضد الغـزو البريـطاني- الفرنسي لمصر في أكتوبر سنة ١٩٥٦.

لم تكن السياسة الامريكية قد تغيرت ازاء النظام الثوري في مصر.

ولكن طرأت ظروف وأسباب:

● منها ان حلفاء أمريكا- بريطانيا وفرنسا- أخفوا عن ايـزنهاور- الرئيس الامريكي وقتها- خططهم لغزو مصر.

● ومنها انهم في محاولتهم لغـزو مصر نسـوا أنهم يعتمدون في حمـايتهم على مظلة نووية أمريكية.

● ومنهـا انهم اختـاروا تـوقيتـاً «سخيفـاً»- في رأي ايـزنهاور- لأن الانتخابات الأمريكية كانت على وشك ان تجري، وكان هو مـرشحاً فيهـا مرة ثانية للعودة الى البيت الأبيض، وكانت النقطة الرئيسية في برنـامجه الانتخـابي وقتها هي: السلام.

والدليل على ان ذلك التغيير- أو ما بدا انه تغيير- كان امـراً طارئـاً يعود الى ظروف مؤقتة وأسباب متنوعة ان حرب السويس لم تكد تتوقف حتى كانت الـولايات المتحـدة الأمريكيـة- وليس اي طرف غيـرها- تحـاول تنفيذ اهـداف العدوان الثلاثي- الغزو البريطاني الفرنسي والتواطؤ الاسرائيلي- بوسائل اخرى

وصلت كما لعلنا نذكر الى درجة حظر تصدير الدواء لمصر.

ولربما قيل، والقول يبدو منطقياً، للوهلة الأولى.

ـ هل معنى ذلك انه يوجد «مكتوب ابدي» في السياسة الدولية؟

والرد هو انه. لا يوجد «مكتوب ابدي» في السياسة الدولية ولا في غيرها من مجالات الطبائع والعلاقات الانسانية وانما كلْ شيء حركة وتحول لا يتوقفان.

ومعنى ذلك ان التغيير يحدث اذا تغيرت الطبائع وتغيرت معها العلاقات

وعلى سبيل المثال فان الامبراطورية البريطانية تغيرت في طبيعتها وعلاقاتها عندما ارغمتها حركة الثورة الوطنية على ان تلزم حدودها وتتقلص من امبراطورية لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها الى قوة من الدرجة الثانية تبحث لنفسها عن دور متواضع تجد فيه امانها الاقتصادي والسياسي

وتطبيقاً على ذلك فاننا نستطيع ان نقول ان السياسة الأمريكية سوف تتغير في يوم من الأيام اذا واجهت القوى التي تفرض عليها تغيير طبيعتها وعلاقاتها.

وربما استطعنا ان نقول ان هناك قوى تواجه الولايات المتحدة وتتصدى لها وبينها التحدي الاشتراكي عقائدياً والتحدي السوفيتي والتحدي الصيني والتحدي الفيتنامي والتحدي العربي سياسياً.

ولكنني ـ مع ذلك ـ واحد من الذين يقولون ان هذه التحديات حتى هذه اللحظة، لم تصل بعد الى حد تغيير طبيعة وعلاقات السياسة الأمريكية!

ان هذه التحديات كلها فرضت عليها حدوداً معينة في السلوك تتجنب

بها محظورات خطرة وارغمتها على التراجع في بعض المواقع، ولكن هذه التحديات لم تصل بعد الى حد ترويض القوة الامريكية تماماً او تغيير طبيعتها وبالتالي علاقاتها!

وربما من هذا السبب، فانني كنت واحداً من الذين دعوا الى «تحييد امريكا»

ولم أكن- وغيري- نطلب ذلك عن طريق الاسترضاء او الاستخذاء امام القوة الامريكية ولا عن طريق التوسل او التسول منها، وانما كنا نطلب ذلك عن طريق الوعي بتناقضنا العميق معها والضغط عليها بالارادة الوطنية وبالوحدة العربية وبالصداقة مع الاتحاد السوفيتي وبتأثير الرأي العام العالمي ونفوذه السياسي والمعنوي.

وعندما كنا نفعل ذلك فاننا لم نكن ننادي بالكف عن الصراع مع الثور الأمريكي - فهذا الصراع حتمي - وانما كنا نلفت النظر الى اهمية تفادي قرونة كما يفعل مصارع النيران، حتى لا يقتلنا في هجمة مجنونة واحدة، ثم اننا كنا نعتقد انه في قضايا الحرب والسلام في هذا العصر فان تأثير القوتين الاعظم لا يمكن عزله او تجاهله!

واذا كانت طبيعة القوة الأمريكية، وبالتالي علاقاتها، لم تتغير بعد- اذن فما هو مثار الصخب العالي وسحب الدخان الكثيف الذي يملأ الآن آفاق الشرق الاوسط؟

... ربما كان علينا اولاً ان نتأكد من ان طبيعة القوة الامريكية وعلاقاتها لم تتغير حتى يكون انتقالنا من هذه النقطة الى ما بعدها انتقالاً سليماً لا يترك وراءه فراغات او فجوات.

ومن هنا فلعلنا نأخذ تصرفات الولايات المتحدة في حرب الشرق الأوسط الأخيرة، ٦ أكتوبر وما تلاه، نموذجاً نقيس وندرس على أساسه.

ولقد قلت وما زلت أقول ان الولايات المتحدة الأمريكية لها في الشرق الأوسط مجموعة من الاهداف الدائمة تتلخص فيما يلي :

١ـ حماية أمن ومستقبل اسرائيل
٢ـ ضمان الحصول على البترول العربي واستمرار تدفقهبسعرٍ معقول
٣ـ اخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة العربية
٤ـ استعادة النفوذ الأمريكي في المنطقة وجعله النفوذ الأوحد فيها اذا أمكن.
٥ـ الحيلولة دون قيام قوة عربية كبرى في هذه المنطقة بما في ذلك حجب الدور المصري الطبيعي واعتراض طريق قيام الوحدة العربية بكل الوسائل

ونأخذ تجربة حرب أكتوبر في كل هدف من هذه الأهداف الخمسة، ونقيس وندرس

■■■: في حماية أمن ومستقبل اسرائيل- فإن الولايات المتحدة الأمريكية تصورت عندما نشبت معارك أكتوبر العظيمة انها سوف تكون ساعات معدودة ثم ينقض الردع الاسرائيلي بكامل جبروته فاذا العبور المصري يغرق في قناة السويس ويحيل مياهها الزرقاء الى حمرة قانية بلون الدم

لكن الهجوم المصري، المنسق مع هجوم سوري، نجح واستطاع في الأيام الأولى من القتال ان يحطم نصف القوة المدرعة الاسرائيلية وثلث القوة الجوية الاسرائيلية فضلاً عن خسائر بشرية لا تستطيع اسرائيل احتمالها.

ماذا كان رد الفعل الامريكي؟

كان رد الفعل الأمريكي- تعبيراً عن طبيعة القوة الامريكية وعلاقاتها- هو قرار الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون باعتماد مبلغ ٢٣٠٠ مليون دولار

كان مفكراً ـ لديه شيء يريد ان يقوله.

واكتشف بالتجربة ـ انه يستطيع ان يمارس.

وكانت ممارسته بأسلوب له طعم خاص. سواء اعجب هذا الطعم كل الناس، أو أعجب بعضهم فقط... لكنه في كل الاحيان رجل له طابع.

والقوة الامريكية هائلة لمن يريد الامساك بمفاتيحها او يقدر على ذلك.

والرئيس الامريكي عاجز، مشلول بالفضيحة، واذن فإن كل المفاتيح في يد كيسنجر، او هكذا يبدو.

ولقد نجح في موسكو... ونجح في الصين... ونجح في فيتنام وحصل على «نصف» جائزة نوبل وحصل فوقها على «كل» اسطورة نجاح.

وكان من قبل ـ حين كان مستشاراً للرئيس الامريكي لشئون الأمن القومي ـ يتحرج أمامها ويحاذر الاقتراب منها لصعوبتها من ناحية ولحساسيته الخاصة كيهودي من ناحية اخرى ولكنها وقد تفجرت امامه وشكلت اول تحد عملي لدوره الجديد كوزير للخارجية تقدم منها يريد ان يمارس فيها براعة وسحر النجوم.

وهو يريد أن ينجح... وهو يقيس نجاحه بالطبع بأهدافه هو وليس بأهداف غيره.

ولو انه نجح اذن لدخل التاريخ تماماً باعتباره معجزة في ممارسة القوة في مجال السياسة الخارجية، ولو أنه نجح لاستطاع ـ ربما ـ ان يخفف الضغط عن الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون الذي اعطاه الفرصة ليصعد الى آفاق النجوم، ولو انه نجح لحقق انجازاً حقيقياً لا يقل عن انجازه في بكين وموسكو وهانوي.

لم يتجاوز أخذ تعهدات مكتوبة من قباطنة الناقلات بأن لا يذهبوا ببترولهم الذي يحملونه من الموانىء العربية الى موانىء أمريكية:

وتكشف الارقام ان تدفق النفط على الولايات المتحدة لم يتوقف ولم يتأثر وان ظل الغموض المقصود يحيط بالمصادر التي استمر منها تدفق النفط.

● حاولت الولايات المتحدة- الى حد ما- تشجيع لعبة رفع الاسعار فهي الشريك الأكبر والأقوى في عملية بترول الشرق الاوسط كلها. واذا اردنا دليلاً على ان الولايات المتحدة كانت طرفاً مستفيداً من لعبة رفع الاسعار فلدينا الدليل وهو بسيط مقنع.

- اليس لافتاً للنظر ان الدولة التي طبقنا عليها اقصى وأقسى قرارات الحظر هي الدولة الوحيدة التي كانت قيمة نقدها- الدولار- ترتفع أمام عملات دول اخرى رفعنا عنها الحظر وخصصناها بالرعاية؟»

● حاولت الولايات المتحدة بكل اللغات واللهجات ان تضغط لرفع الحظر العربي عنها، ليس لانه أثر فيها مادياً. ولكن لانها اعتبرت استمراره ضدها اهانة سياسية- حتى وان كانت شكلية- وهي ليست مستعدة لتحملها أكثر مما تحملتها.

■■■ **ثالثاً**: في اخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة- فان الولايات المتحدة تذرعت باعذار واهية يوم ٢٥ أكتوبر. واذا بالرئيس الامريكي يعلن حالة التأهب القصوى للقوة النووية الامريكية الرادعة.

وقال الرئيس الامريكي أو قيل عنه بأن معلومات لديه أقنعته ان الاتحاد السوفيتي على وشك ان ينقل بعض قواته المحاربة الى الشرق الاوسط- وليس في علمي ان ذلك كان صحيحاً او وارداً في أي لحظة من لحظات حرب أكتوبر وهكذا مشى الرئيس الامريكي الى حافة الهاوية وأعلن حالة التأهب القصوى للقوة النووية الامريكية الرادعة.

كان قصده ان يعرف العالم كله ان الولايات المتحدة وحدها قادرة على تجاوز كل الحدود في تصرفاتها وأما الآخرون فمهما بلغت درجة قوتهم فعليهم ان يعرفوا لانفسهم حدودها.

وكان هذا التصرف ايضاً ـ بكل ما حواه ـ تعبيراً عن طبيعة القوة الامريكية وعلاقاتها.

■■■ **رابعاً**: ويتصل بذلك مباشرة هدف استعادة النفوذ الامريكي في المنطقة وفي شأنه فإنه يكفي ان نتتبع اسلوب الولايات المتحدة في عملية واحدة وهي عملية الفصل بين القوات المتحاربة ـ لكي نرى ردود الفعل الأمريكي في هذه النقطة تعبيراً عن طبيعة القوة الامريكية وعلاقاتها.

لقد وردت الاشارة الى عملية الفصل بين القوات في قرارات وقف اطلاق النار في الاسبوع الاخير من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣، وكانت هذه القرارات كلها مشروعات امريكية وسوفيتية اقرها مجلس الأمن وصدرت عنه.

وفجأة قفزت الولايات المتحدة منفردة الى النقط الست المشهورة التي قدمها الدكتور هنري كيسنجر وبدأت على أساسها المرحلة الاولى من محادثات الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس.

وكانت الامم المتحدة بعيدة عن هذه النقط الست. . وكان الاتحاد السوفيتي بعيداً ايضاً وتعثرت الامور عند الكيلو ١٠١ وكانت الولايات المتحدة هي التي اقترحت الانتقال الى جنيف لمواصلة المحادثات وهناك تم استبعاد اوربا الغربية من الاشتراك في مؤتمر جنيف وبقي السكرتير العام للأمم المتحدة في المؤتمر بصورة فخرية وبقي الاتحاد السوفيتي مشاركاً بالاسم كما ظهر فيما بعد. .

ومع ذلك فقد كانت الولايات المتحدة هي التي عادت فجأة الى الكيلو

١٠١ ووصلت هناك فعلاً الى التطبيق العملي لقرار الفصل بين القوات وكـان فالدهايم في نيويورك وكان فينوجرادوف في جنيف.

وكانت هذه كلها اشارات واضحة موجهة الى المنطقـة العربيـة بالـذات وكأنها تقول لها.

ـ اذا كنتم تـريدون حـلاً. . فلا حـل الا عن طريقنـا وباشتـراكنا. . . وحدنا!»

■■■ خامساً: واما الحيلولة دون قيام قوة عربية كبرى في هذه المنطقة- فـإن الصورة هنـا مكشوفـة الى أبعد حـد تعبيراً عن طبيعـة القوة الامـريكيـة وعلاقاتها

ولولا رحلة مرهقة مضنية وجهد خارق قام به الرئيس أنور السادات في العالم العربي كله مشرقه ومغـربه. لكـان الفصل بـين القوات المتحـاربة عـلى جانبي قناة السويس كفيلاً وحده بتفجير الموقف العربي كله الى شظايا متنـاثرة ليس هناك ما يربطها او يقربها.

•

في هذه البنود الخمسة رأينا اهداف الولايات المتحدة في المنـطقة وقسنـا ودرسنا على تجربة ٦ أكتوبر وما تلاه لنشهد تجربـة عملية في التـطبيل. لنتـأكد بوساطتها من ان طبيعة القوة الامريكية وبالتالي علاقاتها لم تتغير.

ما زالت كما هي. .

تعترضها التحـديات ولكنهـا تتقدم دون مبـالاة. أو تكلف خاطـرها في بعض الأحيان عناء اللف والدوران واصلة في النهاية الى هدفها.

واذن مـا الذي تغـير ممـا يثـير هـذا الصخب العـالي وسحب الـدخـان الكثيف في أجواء الشرق الأوسط؟؟

لقـد قلنا ان السيـاسة الخـارجية لأي قـوة دولية فيهـا عنصران في نفس الوقت:

عنصر الاستمرار المستمد من الاستراتيجية العليا لهذه القوة الدولية ومن طبيعة علاقاتها على هذا الاساس مع اطراف متعددين.

ثم عنصر طارىء يرجع الى ظروف مؤقتة او يعود الى أسباب متنوعة بينها اختلاف الشخصيات المشرفة على التوجيه وتباين امزجتها.

ولقد اخترنا العنصر الاول وهو عنصر الاستمرار وأكدت التجربة العملية بالتطبيق على ٦ أكتوبر وما تلاه- صحة واستمرار سريانه.

واذن فهل يكون التغيير في العنصر الثاني او العنصر الطارىء الذي يرجع- كما قلنا- الى ظروف مؤقتة او يعود الى اسباب متنوعة؟؟

ربما!

ولو اننا حاولنا البحث في هذا الاتجاه لوجدنا سببين:

● اولهما- الظلال التي تسقط الآن على الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون.

● وثانيهما- البريق الذي يتوهج الآن من حول وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر.

ونأخذ الظلال على نيكسون أولاً فنجد ان الرئيس الامريكي الحالي في وضع بالغ السوء فهومتّهم بما لم يسبق لأي رئيس أمريكي ان أتهم به:

التحايل على العدالة- التهرب من القانون- استغلال النفوذ مادياً- الكذب على الكونجرس وعلى الرأي العام الامريكي- تزييف الادلة والتلاعب في الاشرطة المسجلة لمحادثاته في البيت الأبيض وهي فيما يبدو تدينه ادانة كاملة.

ولقد سقط كل رجاله المقربين تحت ركام الفضيحة التي تفجرت في

ووترجيت وتشير كل المعلومات والتقارير الى ان عملية عزل الرئيس الامريكي قد تبدأ في أي وقت من الآن، ولسوف يقاوم قدر استطاعته، ولكنه اذا عجز عن المقاومة فسوف يقدم استقالته متطوعاً... واذا ارادوا ان يضعوه في قفص المجرم فانه سوف يسبقهم ليعلق نفسه على صليب الشهيد!

ومقاومة الرئيس الامريكي كلها تقوم على أساس سجله في السياسة الخارجية... ألم يفتح باب الصين؟.. ألم يكتب صفحة الوفاق مع الاتحاد السوفيتي؟.. ألم يضع نهاية لتورط أمريكا المؤلم في حرب فيتنام؟

وهو الآن على وشك ان يصل الى السلام في الشرق الأوسط... أفلا يتركونه يتم مهمتـه ويحقق ما لم يحققه غيره... سلام في الشرق الأوسط... سلام على الأماكن المقدسة!!

وننتقل الى البريق الذي يتوهج من حول هنري كيسنجر.

النجاح يعزز النجاح.. هكذا يعتقد هنري كيسنجر، بل ويضيف أحياناً:

ـ لقد اكتشفت ان النجاح حافز للنجاح... حافز للجنس ايضاً!!»

ولقد كانت الولايات المتحدة في حاجة الى نجم يظهر في سمائها، فقد خبت كل النجوم من أيام كيندي وعصره اللامع.

عصر جونسون بعده كان تجربة مع السخف، وعصر نيكسون خيمت عليه التفاهة حتى حلت الفضيحة محل التفاهة

وعندما بدأ دور كيسنجر فلقد ارتفع الى الآفاق الشاهقة بسرعة، لأن الحاجة كانت ماسة الى نجم.

وكانت في كيسنجر كل مواصفات النجوم:

كان مفكراً ـ لديه شيء يريد ان يقوله.

واكتشف بالتجربة ـ انه يستطيع ان يمارس.

وكانت ممارسته بأسلوب له طعم خاص. سواء اعجب هذا الطعم كل الناس، أو أعجب بعضهم فقط... لكنه في كل الاحيان رجل له طابع.

والقوة الامريكية هائلة لمن يريد الامساك بمفاتيحها او يقدر على ذلك.

والرئيس الامريكي عاجز، مشلول بالفضيحة، واذن فإن كل المفاتيح في يد كيسنجر، او هكذا يبدو.

ولقد نجح في موسكو... ونجح في الصين... ونجح في فيتنام وحصل على «نصف» جائزة نوبل وحصل فوقها على «كل» اسطورة نجاح.

وكان من قبل ـ حين كان مستشاراً للرئيس الامريكي لشئون الأمن القومي ـ يتحرج أمامها ويحاذر الاقتراب منها لصعوبتها من ناحية ولحساسيته الخاصة كيهودي من ناحية اخرى ولكنها وقد تفجرت امامه وشكلت اول تحد عملي لدوره الجديد كوزير للخارجية تقدم منها يريد ان يمارس فيها براعة وسحر النجوم.

وهو يريد أن ينجح... وهو يقيس نجاحه بالطبع بأهدافه هو وليس بأهداف غيره.

ولو انه نجح اذن لدخل التاريخ تماماً باعتباره معجزة في ممارسة القوة في مجال السياسة الخارجية، ولو أنه نجح لاستطاع ـ ربما ـ ان يخفف الضغط عن الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون الذي اعطاه الفرصة ليصعد الى آفاق النجوم، ولو انه نجح لحقق انجازاً حقيقياً لا يقل عن انجازه في بكين وموسكو وهانوي.

وهكذا نجد ما يلي:

السياسة الامريكية مستمرة كما قلنا تعبيراً عن الاستراتيجية العليا للولايات المتحدة وهنا فانه ليس هناك جديد.

والجديد الذي نعثر عليه الآن هو ذلك العنصر الطارىء الذي يرجع الى ظروف مؤقتة او يعود الى أسباب متنوعة بينها اختلاف الشخصيات المشرفة على التوجيه وتباين امزجتها:

نحن هنا أمام رئيس امريكي تلفه ظلال الشبهات والاتهامات ويتصور انه لو وصل الى شيء في أزمة الشرق الأوسط لاستطاع تغطية فضيحته.

ثم نحن هنا أمام وزير للخارجية الأمريكية يحيطه بريق النجاح بوهج النجوم وهو يريد تعزيز نجاحه لأسباب عديدة.

والسؤال الذي يتبقى لدينا هو:

- هل تكفي الظلال التي تلف نيكسون او هل يكفي البريق الذي يتوهج من حول كيسنجر لاحداث تغيير كبير يلحق بالسياسة الأمريكية في المنطقة؟

ولو جازفت بابداء رأي لقلت:

- يصعب علي كثيراً ان أرى كيف يستطيع نيكسون ان يفلت من فضيحة ووترجيت ومضاعفاتها وأغلب الظن ان هذه الفضيحة سوف تزيحه من البيت الأبيض في شهور قليلة تتراوح ما بين ثلاثة الى ستة شهور.

ان الادلة القاطعة باشتراكه في جرائم متعددة تقرب منه شخصياً بشكل مخيف وحتى اذا حاول ان يقاوم فلست اتصور كيف يستطيع حزبه- الحزب الجمهوري- ان يتركه في مقعده الى الانتخابات القادمة سنة ١٩٧٦ . . . معنى ذلك ان الحزب كله سوف يسقط»

هذا في موضوع الظلال

وأما في موضوع البريق فلعلّي اقول.

ـ انـه يصعب عـلي جـداً ان أرى كيف يستـطيـع هنـري كيسنجــر ان يتصـرف في الولايـات المتحدة الأمـريكية خـارج مؤسسات السلطة الشـرعيـة وأحياناً فوقها. . . فهو الآن أكبر من الرئيس الأمريكي وهو الآن خارج ولايـة الكونجرس وهو يمارس لعبة خطرة بين القوى الاقتصادية والعسكرية وغيـرها من القوى المؤثرة والحاكمة في أمريكا.

والنجوم في أي مجتمع زهور متالقة بالألوان متضوعة بالعطر

ولكن الزهور عمرها قصير.

واذا سقط نيكسون او استقال فسوف يخلفه بالتأكيد جيرالد فورد نـائب الرئيس الجديد في الولايات المتحدة، وأكبر الظن ان جيرالد فورد لن يستطيع الاستغناء عن بريق ووهج كيسنجر.

ولكن جيـرالد فـورد سوف يكـون رئيساً مقيـداً اذا أكمـل مـدة ولايـة نيكسون لأن عينه سوف تكون على انتخابات سنة ١٩٧٦»

ومع ذلك فليكن في الولايات المتحدة ما يكون. . . المهم ما عندنا.

وهنا يطالعنا سؤال.

ـ هل تستطيع هذه الأوضاع في الولايات المتحدة ان تصنع تغييراً كبيـراً في سياستها.

أقول بأمانة: لا اظن انها تستطيع!

لا تستطيع ذلك ظلال تحيط برجل، وهو يريد تبديد بعضها بـأي عمل في الشرق الاوسط.

ولا يستطيع ذلك بريق يتوهج من حول رجل يريد ان يعزز نجاحة وأن يرتفع درجات أعلى في مصاف النجوم.

باختصار:

لا الظلال كافية... ولا البريق كاف.

... ومع ذلك فما اظننا ننتظر الظلال او البريق اذا كانت معنا روح ٦ أكتوبر... والارادة التي صنعت قرارها العظيم؟

كيسنجر.. ومعنى النجاح؟!

٤ يناير ١٩٧٤

مع بداية سنة جديدة، تلقيت كثيراً من الخطابات والبطاقات من أصدقاء بغير عدد في كل أرجاء الدنيا. ومما أفعله أحياناً في هذا «الموسم»، أنني أخلو الى نفسي مع هذا الكوم من الخطابات والبطاقات... أروح أقلبها وأقرأ سطورها وما بين سطورها، ثم أعود الى أيام لي مع أصحابها، وذكريات وحكايات وتجارب متنوعة مع الأفكار والناس والظروف!

□

ولفت نظري هذه السنة خطاب من صديق له مكانه المرموق في واشنطن. وربما كان ما لفت نظري إن إسم «هنري كيسنجر» تكرر في الخطاب أكثر من مرة، لمحته وعيناي تجريان على السطور بسرعة. بداية الخطاب طبيعية... كلمات رقيقة وحلوة مما يتبادله الأصدقاء في هذه المناسبات. ولكن اسم هنري كيسنجر أكثر من مرة في وسط الخطاب، كان يستوقف ويستلفت.

كانت العبارة التي ورد فيها اسم هنري كيسنجر أكثر من مرة في وسط الخطاب كما يلي:

......

......

«إنني أستطيع أن أعرف أمانيك للعام الجديد، وربما سمحت لنفسي أن أقول لك أن أزمة الشرق الأوسط سوف تجد حلاً سنة ١٩٧٤».

لو أنك سألتني عن أسباب عقلانية لهذا الذي أقوله لك، لكان جوابي:

«ليست هناك أسباب يدعوني اليها العقل، ولكن لدي أسباب يدعوني اليها الشعور».

لا أعرف كيف أسميها؟.. انك لست متحمساً لأحاديث التفاؤل والتشاؤم، ولكننا في أيام الأعياد تتملكنا نزعة شبه غيبية، تجمع بنا كثيراً، وتشرد مع خيالات المنى ومع الأحلام.

ومع ذلك فليس ما عندي خيالاً وحلماً... وإنما هو شيء آخر... سمه إحساساً أو شعوراً.

لقد رأيت هنري [كيسنجر] بالأمس، وكان عائداً من جنيف، وكان في حالة معنوية عالية... كان عطر النجاح يفوح في الجو من حوله... وهذا مما جعلني أطمئن.

لقد كنت ـ كما تتذكر من أحاديثنا الطويلة ـ أريده أن يأخذ أزمة الشرق الأوسط في يده، وكان هو يتردد دائماً، وكان يقول كثيراً: «انني لا أقترب من أزمة الا اذا ضمنت على الأقل ان خمسين في المئة من عناصر نجاحها في يدي... إنني أستطيع أن أقامر وفي يدي خمسون في المئة، ولكني لا أستطيع أن أقامر مبتدئاً من الصغر».

كان «هنري كيسنجر» يردد ذلك دائماً، يقوله كثيراً، والآن فإن أزمة الشرق الأوسط في يده، واعتقادي انه سوف ينجح فيها... أنه رجل أصابه «ادمان النجاح» وسرى في كل عروقه وخلاياه!

هو رجل لا يريد لنفسه شفاء مما أصابه وهو كأي مدمن لا يعرف لنفسه شفاء الا جرعة أخرى من الداء الدواء!»

□

لفتت نظري هذه العبارة ـ كما قلت ـ في وسط خطاب من صديق له مكانه المرموق في واشنطن، لفتت نظري بما فيها ثم أنها استعادت الى ذاكرتي مرات سابقة تكرر فيها ذلك المعنى على سمعي.

كان آخر من أعاده عليّ سياسي عربي بارز قال لي بالحرف تقريباً:

ـ هل يعقل يا أخي أن يقامر الرجل بكل ما حققه في العالم حتى الآن ويرضى لنفسه بأن يفشل في حل أزمة الشرق الأوسط... لا بد في رأيي من أن ينجح، وهو لا يريد هذا النجاح من أجل خاطرنا ولكن يريده من أجل خاطر نفسه... من أجل تاريخه... من أجل غروره حتى اذا هبطنا بحوافز الحركة لدى الانسان الى هذه الدرجة.

الا ترى ذلك؟»

خطر لي أن أعالج هذا الموضوع في هذا الحديث اليوم!

***

ولعلي أقول بداية:

إنني أوافق على أن الدكتور هنري كيسنجر قد أصابه «ادمان النجاح»ـ وبالفعل فإن الرجل تعرض لعدد من أهم قضايا العصر ونجح فيها، وأحاطه النجاح بهالة ملونة لا أظن أن غيره من وزراء الخارجية في العالم لهم مثلها؟

إنني أوافق على أن الدكتور هنري كيسنجر سوف يحاول الى أقصى جهد أن ينجح في ايجاد حل لأزمة الشرق الأوسط، أو على الأقل في المساعدة على ايجاد حل لها.

إنني أوافق على أن الدكتور هنري كيسنجر لن يسمح مهما كان الثمن لأسطورة النجاح التي أصبح بطلاً لها أن تضيع أو تشحب او حتى تتعرض للضياع أو للشحوب

ذلك كله أوافق عليه في البداية، وربما أضفت.

ـ ان السياسة الامريكية تضع هذا العنصر من عناصر التأثير النفسي في الميزان وهي تحاول إقناع العرب بتقبل دور رئيس الولايات المتحدة في محاولات حل أزمة الشرق الأوسط».

وربما رويت للتدليل على ذلك طرفاً مما جرى في مقابلة شهيرة بين الرئيس الامريكي «ريتشارد نيكسون» وبين أربعة من وزراء الخارجية العرب وقد تمت هذه المقابلة في البيت الأبيض الأمريكي في واشنطن، يوم ٧ أكتوبر الماضي وكانت الحرب في الشرق الأوسط دائرة رحاها، وكانت الحرب ومضاعفاتها هي موضوع هذه المقابلة، وكانت أبرز هذه المضاعفات وقتها هو ان الولايات المتحدة بدأت جسراً جوياً وبحرياً من المعونات العسكرية لاسرائيل كما ان الرئيس الأمريكي أعلن عن اعتمادات طارئة رصدها لهذه المعونات قيمتها الفان وثلاثمائة مليون دولار!

□

كان وزراء الخارجية العرب ـ وكلهم في نيويورك لمناقشات مجلس الأمن حول الحرب والأزمة ـ قد التقوا جميعاً، والجو متوتر والأحداث آخذة بنواصي بعضها متلاحقة متدافعة، ثم قرروا أن الموقف يحتاج الى مواجهة مباشرة مع القمة الأمريكية.

واتفقوا على أن يبعثوا وفداً يمثلهم من نيويورك الى واشنطن واختاروا لهذا الوفد أربعة منهم: وزير خارجية المملكة العربية السعودية السيد عمر السقاف ـ ووزير خارجية الجزائر السيد عبد العزيز بوتفليقة ـ ووزير خارجية الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح ـ ووزير خارجية المغرب السيد أحمد الطيب بن هيما».

وأتذكر ان السيد محمد المصمودي وزير خارجية تونس وكان بين وزراء الخارجية الذين حضروا جلسة اختيار اعضاء الوفد العربي الذاهب الى واشنطن ـ قال لي:

ـ لقد اخترنا هؤلاء الأربعة . . . ربما بالغريزة.

لم يكن هناك اقتراع بالطبع ولا جرت انتخابات.

ولكن الأمر كان اختياراً يبدو عفوياً لأول وهلة، ولكننا عندما نتأمله أكثر ندرك انه لم يكن عفوياً الى هذا الحد.

لقد كان بينهم المعتدلون والمتشددون ـ وفق التصورات الامريكية ـ وكان هناك من تربطه بالولايات المتحدة صداقات تقليدية أو عداوات حادة ـ وفق التصورات الامريكية أيضاً ـ وربما أردنا ـ دون أن يكون ذلك متعمداً بطريقة فجة ـ ان يكون بينهم من تفوح حوله رائحة البترول لكي يشمها الرئيس نيكسون!»

□

المهم... ذهب الوزراء العرب الأربعة الى واشنطن، وحدد لهم الرئيس ريتشارد نيكسون موعداً في البيت الأبيض، وطلبوا أن يجيئوا معهم بمترجم لأن بينهم اثنين من اتجاه ثقافي فرنسي ـ بوتفليقه وبن هيما ـ وقيل لهم من البيت الأبيض انه لا داعي لمترجم يجيء معهم وانهم عندما يجيئون سوف يجدون مترجماً أمريكياً مستعداً، وعندما ذهبوا الى موعدهم لم يجدوا مترجماً.. وانما وجدوا الرئيس ريتشارد نيكسون ومعه رجل واحد هو: هنري كيسنجر وزير خارجيته.

وكما كان الاتفاق مسبقاً بين وزراء الخارجية فقد كان الذي تولى الحديث هو السيد عمر السقاف وزير خارجية المملكة العربية السعودية.

وعرض الوزير السعودي وجهة النظر العربية بسرعة وهدوء وبدأ الرئيس نيكسون يرد...

كان بين ما قاله الرئيس نيكسون:

ـ ان الولايات المتحدة على استعداد لبذل نفوذها من أجل حل للأزمة بعد ان يتم وقف اطلاق النار».

ـ ثم قال:

ـ ان الولايات المتحدة تساعد اسرائيل علناً وبدون أي محاولة للتستر لأنها ملتزمة بضمان أمن اسرائيل»

ثم قال:

ـ ان أمريكا هذه المرة سوف تتخذ موقفاً مختلفاً عن موقفها سنة ١٩٦٧ ذلك «لأنكم سنة ١٩٦٧ أثرتم الدنيا ضدنا وقطعتم علاقاتكم معنا وأما هذه المرة فانكم جئتم الينا وطلبتم منا أن نمارس نفوذنا في حل الأزمة»

ثم قال وهذا هو الأهم في موضوع هذا الحديث.

ـ لقد كلفت الدكتور كيسنجر بأن يقوم بدوررئيسي بإسم الولايات المتحدة في حل هذه الأزمة الخطيرة التي وصلت الى درجة الحرب. . . وهي حرب قاتلتم فيها بشرف واستطعتم فيها تغيير موقفكم. . . ومن ثم فإنكم تقبلون على مواجهة الحل بغير مركبات نقص مما كان يصنعه عجزكم أمام اسرائيل بعد هزيمة سنة ١٩٦٧»

ثم التفت الى هنري كيسنجر وأشار اليه كأنه يقدمه للوزراء الأربعة العرب، واستطرد يقول:

ـ هذا هو أمامكم. . هنري كيسنجر.

قد يقول بعض الناس انه يهودي ولكني أقول أن ولاءه للولايات المتحدة الأمريكية، ثم انه ينفذ سياستي.

لقد استطاع من قبل ان يحل مشاكلنا مع الاتحاد السوفيتي، واستطاع أن يحل مشاكلنا مع الصين، واستطاع أن يحل مشكلة فيتنام.

وقد نجح في هذا كله هو حريص على رصيده من النجاح.

انه حصل على نصف جائزة نوبل للسلام، وهو لا يريد أن يفقد استحقاقه لهذه الجائزة.

وأريدكم أن تتعاملوا معه»

واستمر الحديث بعد ذلك وبعض ما فيه خارج عن موضوعي اليوم، وعاد الوزراء العرب الأربعة الى نيويورك لجلسة عقدوها مع بقية زملائهم من وزراء الخارجية العرب، وراحوا يحاولون تقييم ما سمعوه وكان تقديرهم في النهاية وفق تقرير كتبه السيد محمود رياض الأمين العام لجامعة الدول العربية وكان يتولى تنسيق الجهود العربية في نيويورك ـ كما يلي:

ان الموقف الأمريكي مثقل بالالتزامات تجاه اسرائيل.

ان الولايات المتحدة وعدت بجهد نشيط في حل الأزمة يتولاه الدكتور هنري كيسنجر.

ان النصيحة التي يقدمونها لدولهم هي: التمسك بوحدة العمل العربي ومواصلة النضال بكل الوسائل، والضغط الى أقصى حد ممكن بالسلاح وبالبترول وبالنفوذ السياسي حتى يمكن أحداث تأثير أكبر وأعمق على الموقف الامريكي»

كان ذلك يوم ١٨ أكتوبر، وفي اليوم الثاني ـ **١٩** أكتوبر ـ طار الدكتور هنري كيسنجر الى موسكو لمحادثات مع ليونيد بريجنيف، وبدت حركة القوتين الأعظم على القمة الدولية ظاهرة ومؤثرة، ومساء **٢٠** أكتوبر دعى مجلس الأمن فجأة الى الاجتماع وجيء بأعضائه جميعاً من حيث كانوا في عطلة نهاية الأسبوع وصدر قرار وقف اطلاق النار في الساعة الأولى من يوم **٢١** أكتوبر لكي يكون نافذ المفعول في الساعة السادسة مساء اليوم التالي **٢٢** أكتوبر.

ومن لحظتها بدأ دور الدكتور هنري كيسنجر في المقدمة من محاولات حل الأزمة.

رجل وراءه «رصيد ضخم من النجاح»...

رجل «مصمم على النجاح» يريد أن يحتفظ بحقه في نصف جائزة نوبل للسلام.

هناك نقطة أساسية في هذه القضية، قضية «النجاح» ولا بـد أن نتوقف عنـدها وبتـركيز شـديد لأنها نقـطة العصب أو القلب او الصميم في المسـألـة كلها.

هذه النقطة هي «تعريف النجاح»

«ما هو معنى أن ينجـح أحد ـ هنـري كيسنجر وغيـره ـ أو لا ينجح في مهمة حمل نفسه بها أو حمله لها آخرون؟

ان النجاح ليس معنى مطلقاً وانما النجاح لا بد أن يكون قيمة منسـوبة بالقياس الى معيار معين.

□

ان الهدف المحدد لشخص ما، هو المعيار الوحيد الذي يمكن ان نقيس عليه نجاح أو عدم نجاح أي جهد يقوم هو به.

أليس كذلك؟

. . . على أساس الهـدف المحدد لأي شخص فـإننا نستـطيع أن نقيس جهده، وهل نجح فيه أو لم ينجح؟

ان النجاح يختلف من شخص لآخر مع اختلاف الهـدف بين الاثنـين، بل اننا نكاد نصل الى تعـارض تام في قيـاس النجاح مـع اختلاف الأهـداف بالنسبة لموضوع واحد.

بمعنى ان ما يعتبر نجاحاً ـ في موضوع معـين ـ بالنسبـة لأنور السـادات مثلاً، يعتبر فشلاً بالنسبة لجولدا مائير.

مـا يعتبر نجـاحاً بـالنسبة لليـونيد بـريجنيف مثلاً، يعتبـر فشلاً بـالنسبة لماوتسي تونج.

أي ان نتيجة واحدة محددة قد تعني شيئاً، وقد تعني هي نفسهـا نقيض الشيءـ بالنسبة لطرفين تختلف أهدافهما.

واذا طبقنا ذلك عملياً على هنري كيسنجر، وهذا هو موضوع حديث اليوم فاننا لا بد أن نقول:

صحيح . . .

نحن أمام رجل أصابه «ادمان النجاح»

نحن أمام رجل لديه «رصيد ضخم من النجاح»

نحن أمام رجل «مصمم على النجاح» يريد أن يحتفظ بحقه في نصف جائزة نوبل للسلام.

صحيح

ولكنا يجب أن نسأل أنفسنا ـ ما هو النجاح بالنسبة لهنري كيسنجر في أزمة الشرق الأوسط؟»

واذن فإن هذا السؤال لا بد ان يقودنا الى سؤال بعده:

ـ ما هي أهداف هنري كيسنجر في أزمة الشرق الأوسط؟

ان الرجل بالطبع يريد أن ينجح في هدفه وهذا هو المعيار الوحيد ـ كما إتفقنا ـ لقياس النجاح أو عدم النجاح.

الهدف هو المعيار.

الهدف الذي يريده أي انسان هو مأمونه للنجاح، والا فنحن نخلط في قوانين اللعبة السياسية وهي قوانين تربط النتيجة بالهدف.

***

لعليّ أضيف، ولكي لا يكون هناك مجال للخطأ في فهم ما أقول انني واحد من المعجبين بمواهب هنري كيسنجر. . . أعجبت به بصفة عامة ومن نتيجة متابعة دقيقة لفكره السياسي وتجربته العملية على أساسه، ثم أعجبت به بصفة خاصة من نتيجة لقاء بيننا دام حوالي ثلاث ساعات أثناء زيارته الأولى للقاهرة في شهر نوفمبر الماضي.

ولكني عادة أحب ان أفرق أفصل بين الاعجاب العام أو الشخصي، وبين المصلحة الوطنية والقومية.

وعلى سبيل المثال فلقد كنت معجباً بدافيد بن جوريون كرجل له إرادة استطاعت تحويل الأسطورة والموعد الى حقيقة وواقع، حتى اذا كانت الحقيقة مؤقتة والواقع محكوماً عليه بالتاريخ.

ومع ذلك فإن جيلي ـ وكنت قطرة في البحر ـ قضى عمره كله في صراع عنيف ودام مع دافيد بن جوريون.

□

أردت أن أقول وبغير تحرج انني واحد من المعجبين بهنري كيسنجر ولكن هذه ليست القضية.

لعليّ أقول ما هو أكثر من ذلك: ـ إنني أخشى أن ينجح هنري كيسنجر في حل أزمة الشرق الأوسط.

ومبعث خشيتي هو أن نجاحه سوف يكون ـ وهذا هو المعيار الوحيد ـ وفق قانونه هو وليس وفق أي قانون آخر.

أي انه قد ينجح ولكن السؤال الحيوي هو:

ـ ماذا يعني نجاحه؟

ما قد يكون نجاحاً وفق قانونه هو، قد لا يكون نجاحاً وفق قانون غيره.

وهذا هو اختلاف الأهداف... والهدف كما اتفقنا هو المقياس الذي نستطيع أن ننسب اليه.

وهكذا نجد أنفسنا أمام السؤال النهائي:

ـ ما هي أهداف هنري كيسنجر في أزمة الشرق الأوسط وفي محاولته الآن لحلها؟»

قـد أكون مخطئاً وقـد أكون مصيبـاً، ولكن كل انسـان يصف ما يـراه بحدود بصره وحدود بصيرته فهذا هو الأفق لأي واحد منا.

وهكذا فإن حدود ما أراه فيـما يتعلق بأهـداف هنري كيسنجـر في أزمة الشرق الأوسط وفي حلها هو كما يلي:

١ـ الهـدف الاول لهنري كيسنجـر ـ وللسياسـة الامريكيـة عمومـاً ـ في منطقة الشرق الأوسط هو حماية وضمان أمن اسرائيل.

ولم يفصح هنري كيسنجر في أحاديثه العامة ولا في حديثه الخاص معي عن تصوره للحدود التي يتعهد فيها ـ وتتعهد أمريكـا معه ـ بحمـاية وضمـان أمن اسرائيل.

واذا جاز لي أن أجازف برأي فإني أقول:

هو لا يوافق على توسع اسرائيلي الى خط ٥ أكتوبر ١٩٧٣.

ولكنـه لا يوافق عـلى عودة اسـرائيل الى خط ٤ يـونيـه ١٩٦٧... في نقطة ما بين هذين الخـطين يجد كيسنجـر ـ ونجد أمـريكا ـ تعهـدها بحمـاية وضمان أمن اسرائيل.

أين هـذه النقطة بـالضبط على الخـريطة فيـما يتعلق بمصـر وفيـما يتعلق بفلسطين وفيما يتعلق بسوريا؟ ـ لا أعرف، ولا أظن أن غيري يعرف... بل أكاد أقول انه هو ـ هنري كيسنجر نفسه ـ حتى الآن لم يقرر!

٢ـ الهـدف الثاني لهنـري كيسنجر ـ وللسيـاسة الأمـريكية عمـومـاً ـ في منـطقة الشـرق الأوسط هـو استمـرار تـدفق البتـرول العـربي بـدون انقـطاع وبأسعار مقبولة.

والبترول العربي كمصـدر للطاقة ليس مسـألة حيـاة أو موت للولايـات المتحدة في هذه الفترة، ولكنه مصدر للقوة الاستراتيجية وللقوة الاقتصادية.

لعـليّ أكرر القول ـ مرة أخـرى ـ ان الطريقـة التي استعملنا بهـا سلاح

البترول حتى الآن لم تلحق ضرراً كبيرا بالولايات المتحدة، ولعلّي أتجاوز وأقول انها حتى الآن مستفيدة من هذه الطريقة فلعبة الأسعار تناسبها وهي الشريك الأعظم في كل موارد البترول العربي وارتفاع أسعاره مكسبٌ لها ثم أن هذا الارتفاع أداة لها في اخضاع أوربا الغربية واليابانلسيطرة السياسة الامريكية بغير تجاوز تحس به أمريكا من اوربا الغربية ـ وفرنسا بالذات ـ وبغير منافسة قاتلة تستشعرها أمريكا من قوة النمو الياباني المعجزة أو الذي كان معجزة. . . أي ان لعبة الأسعار في النهاية تقوي الدولار الامريكي وتضعف أمامه الين الياباني كما تضعف أمامه بقية العملات الاوروبية!

٣ـ الهدف الثالث لهنري كيسنجر ـ وللسياسة الامريكية عموماً ـ في منطقة الشرق الأوسط هو المحافظة على سريان الوفاق في هذه المنطقة الحساسة، ذلك لأن المنطقة بكل ما فيها وبكل ما تمثله، واحدة من المناطق التي يمكن أن تتحول فيها المنافسة في ظل الوفاق الى احتكاك ساخن بين القوتين الأعظم يفتح أبواب الخطر على مصراعيها.

ونلاحظ ان هنري كيسنجر بدأ محاولته النشيطة في الشرق الأوسط بعد اجتماع مع ليونيد بريجنيف.

ونلاحظ أن هنري كيسنجر لم يذهب الى بلد خلال اهتمامه بأزمة الشرط الأوسط الا وكان السفير السوفيتي في هذا البلد على موعد معه.

ونلاحظ ان رسائل هنري كيسنجر الى زميله في موسكو اندريه جروميكو تكاد تكون يومية.

٤ـ الهدف الرابع لهنري كيسنجر ـ وللسياسة الامريكية عموماً ـ في منطقة الشرق الأوسط هو اعادة تثبيت النفوذ الامريكي فيها كاملاً، ومنفرداً.

ان مفهوم الوفاق هو تجنب الصدام بين القوتين الأعظم.

ولكن تجنب الصدام ـ أي الوفاق ـ لا يعني توافق المصالح بين القوتين

الأعظم، ذلك لأن المنافسة بينهما عقائدياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً سوف تظل مستمرة.

ومؤدى ذلك أن كيسنجر لا يعتبر نفسه على طريق صدام مع الاتحاد السوفيتي في المنطقة وهو لا يريد ذلك، وانما هو يعتبر نفسه طرفاً في منافسة في المنطقة مع الاتحاد السوفيتي وهو يريد ذلك.

ومطالبه من هذه المنافسة يمكن تحديدها منطقياً وعملياً كما يلي:

إخراج السلاح السوفيتي ـ باعتباره الرمز الأكبر والأفعل لوجود الاتحاد السوفيتي في المنطقة ـ وأبعاده عنها.

تقليص النفوذ السياسي السوفيتي بكل الوسائل.

ان يحدث ذلك ـ اذا حدث ـ بواسطة القوى المحلية في المنطقة نفسها وبدون تدخل أو ضغط مباشر من الولايات المتحدة ـ وذلك لكي لا يؤدي ذلك الى احتمال احتكاك مباشر بين القوتين.

والهدف الخامس لهنري كيسنجر ـ والسياسة الامريكية عموماً ـ في منطقة الشرق الأوسط هي محاولة كسب صداقة النظم الحاكمة فيها، ثم الشعوب التي تعيش على أرضها اذا أمكن:

وبالنسبة للنظم الحاكمة فإن الاولوية الاولى بالطبع موجهة الى الصداقات التقليدية وخصوصاً حيث يكون البترول. . . ولا بأس بعد ذلك من نظم أخرى قد لا تكون صداقتها مع الولايات المتحدة تقليدية وقد لا يكون باطن الأرض فيها معبأً بمخزون البترول.

وبالنسبة للشعوب فإن الأفضلية بغير جدال هي للتعامل معها فرادى. . . كيانات منفصلة، بدلاً من التعامل معها كتلة واحدة. . . مرتبطة باستراتيجية موحدة. . . ولا بأس هنا ايضاً من تركيز اضافي على دول لها مكانتها في المنطقة ولها وزنها شريطة ان تكون مستعدة للتجاوب!

هذه حدود ما أراه!

ولا أريد أن أكون ظالماً للدكتور هنري كيسنجر . . . ولكني لا أريد أن نظلم أنفسنا .

ثم اننا أيضاً لسنا أصحاب حق في أن نظلم نجاحه .

نجاحه وفق قانونه هو وليس وفق قانوننا نحن .

النتيجة في النجاح او عدم النجاح لا تقاس ـ كما قلت ـ الا على الهدف .

كان هدف هنري كيسنجر في الوفاق هو وضع أساس يضمن تجنب الصدام بين القوتين الأعظم بعد تعادل قوة القتل الرهيبة بينهما ـ وقد نجح في وضع هذا الأساس .

وكان هدف هنري كيسنجر في الصين هو فتح أبواب بكين لعلاقات طبيعية مع الولايات المتحدة بعد أن أصبح مستحيلاً إنكار وجود ونمو وتعاظم قوة الصين الشعبية ـ وقد نجح في فتح هذا الباب .

وكان هدف هنري كيسنجر في فيتنام هو سحب القوات الأمريكية منها بدون هزيمة وكسب فترة من الوقت بعد الانسحاب لا ينهار خلالها النظام في فيتنام الجنوبية .

ـ وقد نجح في سحب القوات الامريكية ، ثم أن النظام الحاكم في سايجون لا زال حتى هذه الساعة على قيد الحياة .

□

ولقد شرحت هدفه كما أراه في أزمة الشرق الأوسط .

لعليّ أقول :

ـ انني لا أريد لهنري كيسنجر أن ينجح في الشرق الأوسط وفق قانونه»

لعليّ أقول ايضاً .

ـ إنني اريد لهنري كيسنجر أن ينجح في الشرق الأوسط وفق قانون اخر يتعين علينا أن نفرضه، وقد فعلنا شيئاً من ذلك يوم ٦ أكتوبر، ولكن القانون لا يفرضه يوم واحد. . . وانما يفرضه ان يتأكد مفعوله كل يوم. . . وليس ضرورياً أن يتأكد القانون بالسلاح وحده وأن كان علينا أن نتذكر أن السند النهائي لأي قانون هو قوة الاجبار الظاهرة ـ أو الكامنة ـ وراءه.

حتى داخل المجتمع الواحد فإن السلطة في النهاية سند القانون وفي مجتمع الدول تحل القوة محل السلطة ـ سنداً نهائياً للقانون.

أليس كذلك؟!»

مَاذا يُريد «دَيَّان» ؟

١١ يناير ١٩٧٤

ربما كان علينا اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، أن ندقق في كل صياغة تقدم الينا من خلال محاولات الوصول الى تسوية لأزمة ـ او لحرب ـ الشرق الأوسط. . .

وربما كان الأهم من التدقيق في الصياغات، هو التدقيق في النوايا الكامنة وراء هذه الصياغات، بصرف النظر عما تقول به الكلمات، ذلك ان بعض الكلمات قد تكون وردية وحلوة، ولكن الدم في خدود الورد أحيانا، كما ان السم في العسل كما يقولون!

ولست من انصار الرفض المطلق والأعمى لكل اقتراح يقدم الينا، ولعلي من الذين يوافقون على قول الرئيس الجزائري هواري بومدين الذي ذكر لأحد زواره هذا الأسبوع، وهو «كريستوفر مايهيو» العضو العمالي البارز في مجلس العموم البريطاني ووزير الحربية السابق في بريطانيا:

ـ ان الدنيا قد سمعت منا كثيرا كلمة «لا»، وربما جاء الوقت لكي تسمع الدنيا منا كلمة «نعم»، شريطة ان نقولها في موضعها المناسب مكانا وزمانا».

□

ومن اهم الصياغات المطروحة علينا الآن، لمسألة من أخطر المسائل

التي تواجهنا الآن، صيغة تم التوصل اليها في واشنطن بين «الجنرال موشي ديان» وزير الدفاع الاسرائيلي و «الدكتور هنري كيسنجر» وزير الخارجية الأمريكية، وهي تنصب على مسألة الفصل بين القوات المتحاربة على الجبهة المصرية الاسرائيلية، تطبيقا للبند الثاني من البنود الستة المشهورة التي قدمها كيسنجر لضبط وتثبيت وقف اطلاق النار في ١١ نوفمبر سنة ١٩٧٣.

ولقد ذهب الجنرال ديان غداة اعلان نتيجة الانتخابات العامة في اسرائيل الى واشنطن يحمل في حقيبته، كما قال هو بالحرف: «مجموعة من الخيارات لتنفيذ الفصل بين القوات المتحاربة»، ثم عرض بضاعته صنفا صنفا ـ صياغة بعد صياغة ـ على الدكتور هنري كيسنجر ثم استقر الرأي بينهما ـ او هكذا يقال ـ على واحدة اعتبرها الدكتور كيسنجر قابلة للعرض على مصر، ولا اعرف اذا كانت هذه الصيغة قد وصلت الى القاهرة ام انها لم تصل بعد؟

***

واذا اردنا ان ندقق في صياغة من الصياغات، نزن كلماتها ونفحص نواياها ـ فان علينا ان نفعل ذلك مسترشدين بمنهج في التحليل امين يسائل نفسه بوضوح، ويرد على نفسه بصدق، لكي يصل الى نتيجة يستطيع عندها مطمئنا ان يقول: الـ«لا» أو يقول الـ«نعم»، او يضيف هنا ويحذف هناك، عارفا طول الوقت بما يريد، راسما طريقا الى ما يريد!

واذن فلنا ان نتساءل ازاء أي صياغة تعرض علينا بما يلي:

١ ـ ما هو مصدر هذه الصياغة؟
٢ ـ ما هو مطلبه القريب؟
٣ ـ كيف كانت تصرفاته قبل الوصول الى هذه الصياغة؟
٤ ـ ما هي اهدافه وراء ذلك؟
٥ ـ ما الذي يريد الوصول اليه في النهاية؟

□

وضمن هذه التساؤلات الخمسة ـ فان هناك اثنين منها لا يحتاجان الى عناء كبير ذلك ان الاجابة عليهما توحي نفسها بنفسها وبدون حاجة الى مصادر اضافية للالهام.

● وحينما نتساءل مثلا:

ـ ما هو مصدر هذه الصياغة الجديدة لمسألة الفصل بين القوات على الجبهة المصرية الاسرائيلية؟».

فان الجواب يكون:

ـ مصدرها هو الجنرال موشي ديان.

عندما نقول: «موشي ديان» فاننا نعرف على الفور اننا نتكلم عن المؤسسة العسكرية في اسرائيل».

● وحينما نتساءل مثلا:

ـ ما هو المطلب القريب للجنرال موشي ديان وللمؤسسة العسكرية الاسرائيلية؟».

ـ فان الجواب يكون:

ـ ان يوم ٦ اكتوبر كان لهؤلاء جميعا ـ ديان وكل جنرالات المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ـ صدمة مزعجة هزت بعنف نظرياتهم في الأمن الاسرائيلي كما هزت بعنف مكانة خاصة لهم في الدولة الاسرائيلية.

ومن الطبيعي اذن ان يكون مطلبهم الأول في هذه المرحلة:

اما ضرب ما حدث يوم ٦ اكتوبر... بالقوة اذا تمكنوا...

واما تضييع قيمة ما حدث يوم ٦ اكتوبر... بالخديعة اذا واتتهم الفرصة!

وهكــذا نفـرغ من التســاؤل رقم [١] والتسـاؤل رقم [٢] ـ وكـانت الاجابة عليهما توحي نفسها بنفسها وبدون جاحة الى مصادر اضافية للالهام!

* * *

نجيء الى التساؤل رقم [٣] وهو الذي يقول:

ـ كيف كانت تصرفات مصدر هـذه الصياغـة الجديـدة ـ قبل الـوصول اليها؟

ونجد أنفسنا امام وقائع معقدة ومتشابكة وعلينا ان نحاول تبسيطها قدر ما نستطيع وربما نكتفي بالسياق التالي:

■ لقد توقف القتال على الجبهة المصرية وأوضاع القـوات على الجـانبين غريبة: جيشان لمصر عبرا بالقوة الى الشرق من قنـاة السويس: الجيش الثـاني في القطاع الشمالي والجيش الثالث في القطاع الجنوبي، مع احتفاظ كل جيش منهما بمؤخرة له في الغرب من قناة السويس.

القوة الرئيسية للجيش الاسرائيـلي: تواجـه الجيشين المصـريين، الثـاني والثالث مرتكزة على مضايق سيناء الحاكمة، ولكن هناك قوة عمـل اسرائيليـة من سبعة ألوية مدرعة وميكانيكية تمكنت من فتح ثغـرة في منطقـة الدفـرسوار وتدفقت منها الى غرب قناة السويس تحاول العمـل في مؤخرة الجيش المصـري الثالث.

اي ان القـوات كانت متشـابكة ومتـداخلة وأوضاعهـا على النـاحيتـين دقيقة، خصوصا بالنسبـة لقوات الثغـرة الاسرائيليـة ولقوات الجيش المصـري الثالث في الشرق.

■ ولقـد توقف القتال دون ان يكون هناك جهاز يحفظ وقف اطلاق النار ويمسك بالمواقع التي كان عليها الطرفان لحظة سريانه في السـاعة السـادسة من بعد ظهر يوم ٢٢ اكتوبر، والنتيجة ان اسرائيل ـ كالعادة! ـ استغلت الفرصة

وزحفت في حماية قرار وقف اطلاق النار ودفع الجنرال شارون قائد قوات الثغرة الاسرائيلية بمفارز من دباباته وصلت جنوبا الى ميناء الأدبية متجاوزة المقاومة العنيدة لمدينة السويس ثم وصلت بعض هذه المفارز الى طريق القاهرة السويس وتمركزت عند نقطة الكيلو ١٠١ ـ وكان هدفها الواضح من ذلك هو عزل مدينة السويس نفسها وعزل الجيش المصري الثالث في الشرق.

■ ولقد جاء الدكتور هنري كيسنجر في زيارته الاولى للقاهرة وكان الموضوع الأول في زيارته هو تثبيت وقف اطلاق النار، وكانت مقترحاته لذلك هي البنود الستة المشهورة، وكان اهم ما فيها بالنسبة لمصر هو البند الثاني الذي يتحدث عن فصل القوات المتحاربة بالعودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر.

وفي حين ان مصر نفذت من البنود الستة ما يخصها، فان اسرائيل لم تنفذ بندا وحيدا كان يخصها وهو العودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر.

واقترح كيسنجر محادثات بين العسكريين من الطرفين تحت علم الأمم المتحدة لتحديد خطوط يوم ٢٢ اكتوبر وبدأت محادثات الكيلو١٠١.

■ ولقد كانت محادثات الكيلو ١٠١ ـ كما قلت من قبل ـ تجربة في الفراغ، ذلك لأن اسرائيل استحكمت وراء عناد غير مقبول مدعية انها لا تعرف ـ ولا احد غيرها يعرف ـ أين هي مواقع ٢٢ اكتوبر؟

وفي الحقيقة فان مواقع ٢٢ اكتوبر لم تكن لغزا ولا كان فيها سر.

لم تكن لغزا: لأن القوات الاسرائيلية لم تكن يوم ٢٢ اكتوبر قد اقتربت من مدينة السويس ولفت حولها ولا اندفعت الى الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس.

ولم تكن سرا لأن الدولتين الأعظم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانت لديهما على وجه التأكيد صور بالأقمار الصناعية التي كانت تمسح جبهة القتال مسحا كل ساعة وهذه الصور تبين على وجه الدقة وبما لا يقبل مجالا

للشك: اين هي بالضبط مواقع ٢٢ اكتوبر.

■ ولقد كان هناك من يرون ان اسرائيل لن تقبل بالعودة الى مواقع ٢٢ اكتوبر حتى لو وضعوا امامها على المائدة صور الأقمار الصناعية تقطع وتحسم، لأن معنى قبولها بالعودة الى هذه المواقع أنها تتخلى عن ثلثي الاراضي التي تحتلها في الغرب وهذا بدوره يعني ان قواتها في الثغرة هي المحاصرة وليس الجيش المصري الثالث هو المحاصر، وقد قال الجنرال ديان شيئا في هذا المعنى بالفعل للجنرال سيلاسفو قائد قوات الامم المتحدة.

ويلفت النظر وهذه نقطة من اهم النقط في الموضوع كله ان الجنرال ديان كان هو بنفسه الذي اقترح فصلا أوسع بين القوات وكان اقتراحه

ـ لماذا نتوقف ونضيع وقتا كثيرا في تحديد مواقع يوم ٢٢ اكتوبر... اننا على استعداد لسحب قوات الثغرة كلها من الغرب اذا كانت مصر على استعداد لخطوة مقابلة».

وكانت «الخطوة المقابلة» التي اقترحها ديان في البداية هي ان تقوم مصر بسحب قواتها من شرق القناة كأنّ شيئا لم يحدث يوم ٦ اكتوبر!!

■ ولقد تعثرت محادثات الكيلو ١٠١ رغم ان الجنرال ديان عدل بعد ذلك بعض مقترحاته بالنسبة «للمقابل» الذي يتعين على مصر ان تقدمه كثمن لانسحاب قوات الثغرة الاسرائيلية في الغرب، فاقترح ان تحل قوات الامم المتحدة محل قوات الجيشين المصريين الثاني والثالث في شرق القناة، ثم عاد وقدم مقترحات اخرى كان الرفض هو الجواب المصري عليها عند الكيلو ١٠١ ـ ثم جاء اقتراح نقل موضوع الفصل ما بين القوات المتحاربة بأكمله الى مؤتمر جنيف وقيل ان ذلك كان باشارة من الدكتور كيسنجر الذي رأى ان هذه المسألة يمكن حلها بسهولة في جنيف ومن ثم فانها تكون بداية مشجعة للمؤتمر تقنع الناس هنا وهناك وفي كل مكان بأن تقدما محسوسا قد جرى احرازه في جنيف.

■ ولقد كانت المرحلة الأولى من مؤتمر جنيف محكوما عليها من اللحظة الأولى ذلك ان الانتخابات الاسرائيلية كانت على الأبواب وكانت حجة الوفد الاسرائيلي برئاسة ابا ايبان وزير الخارجية انه لا يستطيع ان يرتبط بشيء لأن حكومته لا تعرف اذا كان يوم أول يناير سيجيء ليجدها في الحكم او في المعارضة.

واصرت مصر على استمرار المحادثات العسكرية في جنيف للفصل بين القوات المتحاربة حتى اذا كانت المناقشات السياسية الأوسع سوف تتوقف في انتظار نتيجة الانتخابات الاسرائيلية وتظاهر الجانب الاسرائيلي بأن ذلك سوف يكون محرجا له، ثم تظاهر بالقبول!

واستمرت الاجتماعات في جنيف ولكننا نستطيع القول ان المحادثات العسكرية في جنيف كانت كالمحادثات العسكرية التي سبقتها عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس - تجربة اخرى في الفراغ. ذلك ان الوفد الاسرائيلي برئاسة الجنرال جور اتبع في جنيف نفس أساليب الوفد الاسرائيلي برئاسة الجنرال ياريف عند الكيلو ١٠١ وأضاع الجلسات كلها طبقا لما تقول به مصادر الأمم المتحدة في قضايا فرعية: كالمطالبة بالبحث عن جثث ضائعة لبعض القتلى الاسرائيليين، والمطالبة بالافراج عن جاسوس اسرائيلي والا فان طريق الامداد بالمؤن لمدينة السويس وللجيش المصري الثالث في الشرق سوف ينقطع... الى آخره!

■ ولقد توقفت - في الواقع - محادثات جنيف وان بقيت مستمرة في الشكل - تعطي العالم كله انطباعا خاطئا بأن شيئا ما يجري في المقر الأوربي للأمم المتحدة.

ولكن الحركة الفعلية بدأت في ذلك الوقت في واشنطن حين طار اليها الجنرال ديان لاجتماعات مع الدكتور هنري كيسنجر لبحث موضوع الفصل بين القوات، ولاجتماعات مع شليزنجر وزير الدفاع الامريكي للبحث في

شحنات الاسلحة الامريكية الجديدة لاسرائيل.

وفي واشنطن قدم الجنرال ديان الى الدكتور كيسنجر ما حمله في حقائبه من خيارات مختلفة لتنفيذ الفصل ما بين القوات المتحاربة على الجبهة المصرية الاسرائيلية، واستقر كيسنجر ـ بعد مناقشات مع ديان ـ على صيغة منها وجدها صالحة للعرض على مصر!

* * *

ونصل الآن الى التساؤل رقم [٤] وهو التساؤل الذي يقول:

ـ ما هي اهداف ديان كما تبدو من خلال صيغته المعروضة؟».

من الصعب ان يقول أحد ـ أو يدعّي ـ انه حتى هذه اللحظة يعرف تفاصيل هذه الصيغة المعروضة من ديان على كيسنجر والمعروضة من كيسنجر على مصر.

أو لعلي اتحفظ وأقول انني شخصيا لا اعرف ولا ادّعي انني اعرف تفاصيل هذه الصيغة وكل ما لدي بشأنها هو ما نقلته وكالات الأنباء وما تقول به التقارير الصحفية من واشنطن ومن القدس المحتلة وأظنها صحيحة ـ وهذا مجرد تقدير يقوم على التجربة في متابعة التطورات.

ومهما يكن فانه طبقا لوكالات الأنباء وللتقارير الصحفية فان الصيغة المطروحة الآن هي على النحو التالي:

١ ـ تسحب اسرائيل قوات الثغرة من غرب قناة السويس.

٢ ـ تعود القوات الاسرائيلية الى الوراء فترتكز على خط المضايق الحاكمة في سيناء: ممر الجدي وممر متلا.

٣ ـ تظل القوات المصرية على شريط في الشرق من قناة السويس على ان يجري سحب الأسلحة الهجومية من هذه القوات، وبالذات يجري سحب

القوات المدرعة والمدفعية الثقيلة وبطاريات الصواريخ المضادة للطائرات والدبابات.

٥ ـ تتعهد مصر بالبدء في فتح قناة السويس وتعمير مدن القناة الثلاث: السويس والاسماعيلية وبور سعيد!!

□

واذا كانت هذه الصيغة صحيحة او قريبة من ان تكون صحيحة فاننا نصل الى صلب التساؤل رقم [٤] ـ ما هي اهداف ديان من هذه الصيغة؟

وقد اجازف في هذا الصدد واقول ما يلي:

■ يريد الجنرال ديان سياسيا ان يظهر وان يؤكد انه يتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، ويتعامل معها وحدها.

ليس مع الأمم المتحدة التي تجري اجتماعات جنيف تحت سقفها.

وليس مع الاتحاد السوفيتي الذي يشترك في رئاسة اجتماعات جنيف.

وليس مع مؤتمر جنيف من أوله الى آخره بدليل ان ما فيه كله شكل وأما الفعل ـ مهما كانت نتيجته ـ فهو في واشنطن ثم انه فعل مباشر بين الولايات المتحدة واسرائيل.

وهدف التعامل الاسرائيلي على هذا النحو واضح شديد الوضوح كأنه يقول ببساطة: اعطونا اسلحة وضمانات ونحن نعطيكم صيغا تختارون منها ما تشاؤون.

■يريد الجنرال ديان ان يسحب قوات الثغرة الاسرائيلية خلال اسابيع لأسباب متعددة:

● قوات الثغرة في وضع غير متوازن ذلك لأن مدخلها الى الغرب محاط بالجيش المصري الثاني من الشمال والجيش المصري الثالث من الجنوب، ثم

ان هناك نطاقا حولها من القوات المصرية في الغرب.

● وهذا وضع يجعل هذه القوات - اذا تحركت الجبهة - في شبة حصار.

ثم انه وضع يجعل هذه القوات عرضة - حتى في حالة استمرار وقف اطلاق النار - لعمليات من الاستنزاف البطيء

● وهذه القوات كبيرة: سبعة الوية مدرعة وميكانيكية وحصارها - اذا وقع - كارثة.

ثم ان هذه القوات بعيدة جدا بخطوط مواصلاتها عن قواعد امدادها وتموينها واستنزافها - اذن - ممكن وسهل.

وقوات الثغرة نفسها تحس بهذه الاوضاع.

■ يريد الجنرال ديان ان يتجنب هذه المخاطر على قوات الثغرة الاسرائيلية وهو يعرف ان هذه المخاطر يمكن احتمالها اذا كانت الجبهة السورية سوف تظل هادئة والجبهة السورية سوف تظل هادئة بالضرورة الى شهر مارس ذلك لأن المنطقة هناك الآن شتاء. ثلوج وامطار تعوق حركة المدرعات ونشاط الطيران.

لكن الظروف يمكن ان تتغير اذا انقطعت الأمطار وذابت الثلوج واصبحت الحركة على الجبهة السورية احتمالا مطروحا ذلك لأنه ليس هناك من يتصور انه في مقدور اسرائيل ان تخوض معركة اخرى على جبهتين تمتد خطوطها هذه المرة ما بين الادبية جنوب السويس الى سعسع جنوب دمشق!

■ يريد الجنرال ديان ان يرتكز بالقوات الاسرائيلية في سيناء على خط طبيعي وخطه الطبيعي في هذه الحالة هو مضايق سيناء الحاكمة، ويناسبه اكثر

ان تكون قوات الطواريء التابعة للأمم المتحدة امامه، ويناسبه اكثر واكثر ان تكون القوات المصرية على شرق القناة بغير مدرعاتها ومدفعيتها وصواريخها.

ذلك يعطيه تعويضا دفاعيا عن خط قناة السويس نفسه وعن خط بارليف على شاطيء القناة قبل ٦ اكتوبر.

قوات مصرية خفضت سلاحها... وقوات امم متحدة بينه وبينها.

خط طبيعي - من جبال المضايق - يرتكز هو عليه.

■ يريد الجنرال ديان بهذه الصورة الجديدة ان يتمكن من رفع عبء التعبئة العامة بأسرع ما يمكن عن كاهل الاقتصاد الاسرائيلي بما يعنيه ذلك من تقليل النفقات العسكرية وتحرير الايدي العاملة التي تحمل السلاح الان على حساب المصانع والحقول والجامعات في اسرائيل.

ولقد بقيت اسرائيل في حالة تعبئة عامة منذ صباح ٦ اكتوبر حتى الان ذلك لانها تحتفظ تقريبا بعدة جبهات.

جبهة الثغرة في الغرب من قناة السويس

جبهة الشرق امام الجيشين المصريين الثاني والثالث

جبهة سوريا.

جبهة العمق اذا فرض وحدث شيء من اتجاه الاردن، أو استطاعت المقاومة الفلسطينية ان تجد منفذا ودخلت.

■ يريد الجنرال ديان - او لعله يتصور - ان يكون انسحاب قوات الثغرة الاسرائيلية من الغرب عنصرا مريحا لمصر ولو بالتخدير.

تستريح مصر بهذه الخطوة وتنتظر.

وتستريح اسرائيل ايضا في مواقعها الجديدة وترتب نفسها

وتبدأ مرحلة اخرى من المحادثات والاتصالات والضغوط وتمر شهور، وربما تمر سنوات، وقد يحدث فيها مالا يتوقعه أحد، والقمار دائما على المجهول.

■يريد الجنرال ديان ـ او لعله يتمنى ـ ان تكون صيغته الجديدة بمثابة بعث لاقتراحه المشهور عن الحل الجزئي. وهي فكرة طرحها أثناء حرب الاستنزاف سنة ١٩٧٠، حل جزئي لا يرتبط بحل شامل يكفل الانسحاب الى خطوط ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ولا يرتبط بحل لقضية شعب فلسطين وحقوقه المهدرة منذ سنة ١٩٤٨.

■ يريد الجنرال ديان ـ بعد هذا كله ـ ان يكون اعادة فتح قناة السويس واعادة تعمير مدن القناة رادعا لمصر يجعلها تفكر مرة ومرتين وثلاثا قبل ان تعود الى الضغط بالقوة اذا وجدت ان الموقف سوف يتجمد مرة اخرى عند حالة اللاسلم واللاحرب، وذلك هو التفسير الوحيد الذي يمكن العثور عليه حينما نجد ان احد شروط ديان في صيغته المقترحة: اعادة فتح القناة واعادة تعمير مدنها.

ذلك هو التفسير الوحيد، ولا يمكن ان يكون التفسير حرص ديان على فتح القناة وحرصه على المهجرين من مدنها الثلاث الباسلة!

* * *

اخيرا... اخيرا نجيء الى التساؤل رقم [٥] وهو التساؤل الذي يقول: ـ ما الذي يريد الجنرال ديان ان يصل اليه في النهاية؟

لقد عدنا مرة اخرى الى التساؤلات السهلة ذلك لان الاجابة عن هذا التساؤل الخامس تعود بنا الى الخطوط الرئيسية في الاستراتيجية الاسرائيلية:

■ بينها: اضعاف ثقة مصر بنفسها وبما تستطيع بقوتها تحقيقه ـ لقد حاربت.. الم تحارب؟ ثم هي في النهاية قبلت بحل جزئي كان معروضا عليها بغير حرب!

■ بينها: فك الجبهة العربية المتحدة على عمل متسق خصوصا وقد جربت اسرائيل محاذير الحرب على جبهتين.

وماذا تقول سوريا مثلا اذا انفردت مصر بحل او بنصف حل؟

ماذايقول الشعب الفلسطيني؟

وماذا تقول الامة العربية كلها؟

وربما تظن اسرائيل ان تجربة مؤتمر جنيف بداية مشجعة لها:
ـ لقد تفرقت في المؤتمر على جبهات توحدت بالقتال.

مصر موجودة في المؤتمر على مستوى الاجتماعات السياسية والعسكرية.

الاردن موجود في المؤتمر على مستوى الاجتماعات السياسية ولكنه ليس موجودا على مستوى الاجتماعات العسكرية:

وسوريا في المؤتمر صفان من المقاعد الخالية

والعالم العربي كله لا يعرف بالضبط اين هو... لقد جمعه نفير الحرب، وبعثره ناي السلام... بغير سلام!

ثم ان بتروله انتقل من ميدان المعركة الى بورصة المزايدات على الاسعار!

■ بينها زرع الشكوك بين العرب وبين الاتحاد السوفيتي

الم يتقدموا الى الحرب بسلاحه... ثم جروا بعد المعارك الى حل امريكي؟

الم تنجح اسرائيل ـ والولايات المتحدة تساندها ـ في ابعاده عن حضور اجتماعات اللجنة العسكرية في مؤتمر جنيف وكان هو مصرا على حضورها

ولكن اصراره اصطدم بباب مقفول عليه عوارض من الفولاذ؟

الم تجـر المحاولات لاقنـاعه ـ او لايهـامه ـ بـان اشيـاء تجـري من وراء ظهره؟!

■ بينها: وهذه محصلة اخيرة لاستراتيجية اسرائيل: ان يتم عزل مصـر بالكامل لتنكفيء على نفسها تلعق جراحها وتجتر مشاكلها وتمد يدهـا في طلب العطف والاحسان!

أوليست هذه هي استراتيجية اسرائيل من البداية الى النهاية!

* * *

هي استـراتيجيـة اسـرائيـل لم تتغـير. . . وان كـانت الان في صيـاغـة جديدة. . .

. . . . .

. . . .

ولكن مصـر العظيمـة يقظى وهي واعيـة بمغزى الحكمـة المـأثـورة التي تقول:

ـ اذا كنت لا تعرف لنفسك هدفا فان اي طريق يستطيع ان يصـل بك الى هناك. . . واذا كنت تعرف لنفسك هدفا فلا بد لك من طريق محدد!»

كذلك تعلمنا روح ٦ اكتوبر المجيد. . . شهودنا عليها شهداؤنا. . على المعابر والجسور وفوق كثبان الرمل وعلى قمم الجبال المقدسة في سيناء.

أسلوب التفاوض الاسرائيلي؟

١٨ يناير ١٩٧٤

لم تتضح أمامنا بعد ـ وحتى الآن ـ القيمة الحقيقية لنتائج هذه الجهود الدبلوماسية المكثفة التي نراها من حولنا للاتفاق على ما يسمونه «الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة السويس» وحتى تتضح هذه النتائج وقيمتها الحقيقية ـ فلعلي أقترح وقفة قصيرة أمام اسلوب «التفاوض» الاسرائيلي وقد رأيناه هذا الاسبوع في حالة استعداد قصوى يمارس امام الدكتور هنري كيسنجر او يمارس معه ـ بما يستحق الدراسة فعلا ويستدعي التدقيق.

ولقد كان «التفاوض» دائما فنا من فنون الدبلوماسية، ولكنه الآن يوشك ان يستقل ليصبح علما قائما بذاته حتى ان بعض الجامعات الكبرى المهتمة بالدراسات السياسية تخصص الآن كرسي استاذية لمادة «التفاوض».

ولقد استفدنا كثيرا من مواجهة اسلوب الحرب الاسرائيلي، بل واستطعنا ان نتعلم منه: كيف نتحداه!.

وربما كان مفيدا ان ندرس اسلوب التفاوض الاسرائيلي، فلقد نستطيع ان نتعلم منه هو الآخر: كيف نتحداه!

ولكي لا يكون هناك مجال لسوء فهم فأني احدد ان ما اتحدث عنه ليس المفاوضات مع اسرائيل وانما حديثي هو عن: اسلوب التفاوض الاسرائيلي،

متخذا مما يجري حولنا الآن نموذجا عمليا للدرس والتحليل ولهذا فأن المجال الذي اقتصر عليه اليوم هو : «أسلوب التفاوض الاسرائيلي» ضمن العملية الدبلوماسية الاسرائيلية الشاملة فيما اعقب حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ .

ان اسرائيل أدركت بنتيجة حرب اكتوبر وملابسات ما بعدها انها مقبلة على مرحلة من «التفاوض».

. . . حتى اذا كانت تريد العودة الى ميدان القتال مرة اخرى فأنها مضطرة قبل ذلك الى مرحلة من التفاوض.

. . . حتى اذا كانت تريد تجميد الموقف عند درجة معينة فأنها لا تستطيع الوصول الى هذه الدرجة قبل مرحلة من التفاوض وربما عن طريق هذه المرحلة من التفاوض.

وهكذا فان اسرائيل بدأت تعد المسرح للتفاوض الذي تريده.

وكان اول سؤال طرحته على نفسها هو:

«مع من تتفاوض . . مهما كان الهدف من التفاوض»؟

وتوصلت اسرائيل الى اجابة. ويعيننا على استنتاج الاجابة التي توصلت اليها اسرائيل- ان ندرس خطواتها التمهيدية نحو ما توصلت اليه وسوف نجد امامنا ما يلي:

١- سوف نجد- بداية- ان وقف اطلاق النار كان بمشروع قرار تقدمت به القوتان الاعظم - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي- واصدره مجلس الامن بالاجماع مع تغيب الصين لحظة التصويت، اي أن القرار كان للقوتين الاعظم وللقوى الكبرى ولبقية دول العالم الممثلة في مجمع الدول الذي هو ملتقى مجتمع الدول.

٢- عندما جاء دور الحديث عن تثبيت وقف اطلاق النار فاننا نلاحظ

ان دور الامم المتحدة قد تراجع الى الخلف، كما ان دور الاتحاد السوفيتي قد توارى في الظل، وكان طرح النقط الست المشهورة لتثبيت وقف اطلاق النار محاولة امريكية منفردة جرت على اساسها محادثات الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة- السويس.

بل ان الدكتور هنري كيسنجر استهل خطابه الى الدكتور كورت فالدهايم السكرتير العام للامم المتحدة يعلنه بالاتفاق على النقط الست قائلاً بالحرف:

«عزيزي السكرتير العام» «تحت رعاية الولايات المتحدة» وبارشادها تم الاتفاق على» . . كذا وكذا الى آخره . . .

ثم طلب اليه في خطابه ان يرتب لعقد مؤتمر بين الاطراف في جنيف يبحث فيما يلي ذلك من خطوات.

٣- قبل مؤتمر جنيف كان الدكتور كورت فالدهايم لا يعرف لنفسه ولا للأمم المتحدة دورا محددا ولكن الرجل اضطر الى المسايرة على امل الوصول الى نتيجة . .

ثم حدث قبل ان يبدأ المؤتمر ان اصرت اسرائيل على إستبعاد فرنسا وبريطانيا وكان اشتراكهما في المؤتمر واردا . . كذلك اصرت اسرائيل على استبعاد اشتراك اي طرف دولي آخر يمثل مجتمع الدول المهتمة بالازمة والمطالبة بتسويتها تسوية عادلة.

واستقر المؤتمر في النهاية على رئاسة شرفية في جلسة الافتتاح الاولى لكورت فالدهايم ثم رئاسة مشتركة عملية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

٤- ولقد سارت الامور بعد ذلك بحيث تعذر اشتراك سوريا وهي

طرف رئيسي في الحرب في اعمال المؤتمر واقتصر الاشتراك فيه من اطراف الحرب الرئيسيين على مصر واسرائيل وحدهما. ولم يكن للاردن دور رئيسي في الحرب ومع ذلك فان وجوده في جنيف كان مقصورا على حضور جلسة الافتتاح الاولى.

وانتهت المرحلة الاولى من مؤتمر جنيف بلجنة عسكرية مصرية اسرائيلية تبحث موضوع الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة السويس، وهو موضوع كان المفروض ان يكون بحثه قد تم وتنفيذه قد جرى عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة ـ السويس.

وعارضت اسرائيل بشدة اشتراك الاتحاد السوفيتي في اللجنة العسكرية في جنيف وكان غضب الاتحاد السوفيتي شديدا لدرجة ان المندوب السوفيتي المناوب وهو فلاديمير فينوجرادوف السفير السوفيتي السابق في القاهرة هدد بأنه « سوف يبعث بضابط روسي كبير الى قاعة اجتماع اللجنة العسكرية وبأن هذا الضابط الروسي سوف يقتحم طريقه الى القاعة ولو بالقوة وسوف نرى من الذي يستطيع ان يمنعه»؟.

ولم يحدث ذلك بالطبع لأن المحاولات الديبلوماسية جرت لتهدئة خاطر الاتحاد السوفيتي فقبل بعدم الاشتراك في اعمال اللجنة العسكرية على اساس ان يقوم الجنرال سيلاسفو باعطاء معلومات يومية الى ممثلين عسكريين للاتحاد السوفيتي وللولايات المتحدة عن مناقشات اللجنة العسكرية التي كانت تنعقد تحت رئاسته!.

٥ـ ووصلت محادثات اللجنة العسكرية في جنيف الى طريق مسدود بسبب تعنت الوفد الاسرائيلي برئاسة الجنرال جور: قوله يوما: انه غير مفوض بالبحث خارج دائرة معينة. .» وقوله يوما: انه مضطر لانتظار نتيجة الانتخابات الاسرائيلية. .» وقوله يوما: اذا كان لدى الطرف المصري مشروع جاهز للبحث فنحن على استعداد لسماعه. .» وغير ذلك مما قال ووصل باعمال اللجنة العسكرية في جنيف الى طريق مسدود. . .

عنـد هذا الحـد ـ وكانت الانتخابات الاسـرائيليـة قـد انتهت واعلنت نتائجها ـ ظهر الدكتور هنري كيسنجر مرة اخـرى وبشكل درامي عـلى مسرح الشرق الاوسط متنقـلاً بين اسوان والقدس ذهابا وايابا. . .

. . . .

كـان معنى ذلك ان السـامر كله قـد انفض ولو مؤقتـا. . لم يبق منه الا الدكتور كيسنجر طائرا طول الوقت بين اسوان والقدس. .

اي ان السؤال الذي طرحته اسرائيل على نفسها وهو:

ـ مـع من نتفاوض. . مهـما كان الهـدف من التفاوض»!. . . وصـل في النهاية الى جواب مؤاده:
ـ مع مصر وحدها عن طريق الدكتور هنري كيسنجر. . او مع الدكتور هنري كيسنجر وحده طريقا الى مصر!»

الامم المتحدة جرت المحاولة لتنحيتها. . الدول الكبرى جرت المحـاولة لعزلها. . الاتحاد السوفيتي جـرت المحاولـة لابعاده. . بـل ان مؤتمر جنيف من اوله الى آخره جرت المحاولة لتركه في العراء او في البرد كما يقولون.

اكثر من ذلك:

جرت المحاولة لعزل ازمـة الطاقـة عن ازمة الشـرق الاوسط فاصبحت ازمة الطاقة مشكلة اسعار، واصبحت ازمة الشرق الاوسط مشكلة اخرى.
ثم جرت المحاولة بالايحـاءات والايماءات لتصـوير مـوقف مصر وكـأنه مـوقف منفرد بـرأي او متفرد بتجـربة، وبقيـة العالم العـربي ينتظر ليـرى على احسن الفروض.

ولا نستطيع ان نضـع هاتـين المحاولتـين لحساب المتفـاوض الاسرائيـلي ولجهـده، فهذا بـالتأكيـد حساب وجهـد قـوي اخـرى، وان كـان المتفـاوض الاسرائيلي على أي حال قد استفاد ـ كالعادة ـ من حساب وجهد غيره!

وفي الخلاصة: فان اسرائيل توصلت الى نتيجة قريبة- ولو في الشكل- مما ارادته.

مصر وحدها، واسرائيل وحدها، وكيسنجر بين الاثنتين، وهو في كل الاحوال- وهذا ما يجب الا ننساه- يمثل سياسة الولايات المتحدة الامريكية !

نتابع «اسلوب التفاوض» الاسرائيلي خطوة اخرى بعد ذلك

□

ان الخطوة الاولى انتهت بأن اصبح «المتفاوض» امام اسرائيل هو الدكتور هنري كيسنجر وكان «اسلوب التفاوض» الاسرائيلي لا يكف عن الحركة وفي الولايات المتحدة نفسها قبل اي مكان آخر.

ان اسلوب «التفاوض الاسرائيلي» وما لديه من اوراق جعل الدكتور هنري كيسنجر- ولا اقول فرض عليه- «يتفاوض» مع اطراف متعددة في الولايات المتحدة ذاتها قبل ان يجيء لممارسة التفاوض مع اسرائيل:

١- كان على الدكتور هنرى كيسنجر ان «يتفاوض» مع الجالية اليهودية في الولايات المتحدة وهي قوة سياسية قادرة على ممارسة ضغوط رهيبة خصوصا ازاء رئيس امريكي عرته تماما فضيحة ووترجيت ويقول الدكتور هنري كيسنجر بنفسه: انني قضيت ليالي طويلة مع زعماء الجالية اليهودية خصوصا في نيويورك اقنعهم انني لا يمكن ان اقوم بجهد يؤدي الى تعريض امن ومستقبل اسرائيل لأي خطر».

٢- كان على الدكتور هنري كيسنجر ان «يتفاوض» مع مجموعات من الشيوخ والنواب في الكونجرس الامريكي عرفوا بموالاتهم لاسرائيل.

وصحيح ان قرار السياسة الخارجية في الولايات المتحدة من سلطة الرئيس الامريكي في البيت الابيض ولكن المسائل كلها متداخلة خصوصا مع ضعف موقف الرئيس الامريكي ازاء الكونجرس بسبب فضيحة ووترجيت مرة اخرى.

٣ـ كان على الدكتور هنري كيسنجر ان «يتفاوض» مع عناصر في البنتاجون ـ قيادة الجيش الامريكي ـ ذلك ان جماعات من العسكريين في الولايات المتحدة اصبح لديهم اقتناع راسخ بأن اسرائيل هي القاعدة الوطيدة لحماية المصالح الامريكية في الشرق الاوسط وانها النقطة الرئيسية لنظام الدفاع الذي يقبلونه في هذه المنطقة ضد «محاولات التغلغل السوفيتي» على حد تعبيرهم وضد «قوى الثورة الوطنية» وهي الشبح الذي يهدد احلامهم ويؤرقها.

٤ـ كان على الدكتور هنري كيسنجر ان «يتفاوض» مع كثيرين ممن يملكون زمام توجيه الرأي العام الامريكي وبالذات حملة الاقلام والميكروفونات والعدسات في وسائل الاعلام الامريكية ومعظمها ـ ان لم نقل كلها ـ منحاز لاسرائيل.

كان هؤلاء جميعا قد اسهموا ـ امام عجز عربي اعلامي كامل ـ في ان يجعلوا الرأي العام الامريكي يرى في اسرائيل واحة من الديمقراطية والتقدم وسط صحراء شاسعة من الهمجية العربية والتخلف.

٥ـ بل لقد كان على الدكتور هنري كيسنجر ان «يتفاوض» مع بعض مرافقيه من الدبلوماسيين والصحفيين الذي صاحبوه في رحلاته وركبوا معه طائرته وقطعوا معه وسط السحب ذهابا وايابا طريق اسوان ـ القدس..

وتحولت بعض المؤتمرات الصحفية في الطائرة الى محاكمات على حد وصف الدكتور هنري كيسنجر نفسه وكان هو يدافع بما يردده دائما من انه «لا يفعل الا ما يصون ويحفظ امن ومستقبل اسرائيل»!

.....

.....

كان معنى ذلك ان الدكتور هنري كيسنجر يتفاوض على مستقبله هو شخصيا.

اي انه- اراد او لم يرد- اصبح في وضع يمكن ان تختلط فيه الاعتبارات بين «امنه ومستقبله الشخصي» وبين «امن ومستقبل اسرائيل»

وكانت هذه هي الخطوة الثانية في اسلوب التفاوض الاسرائيلي

□

نتابع «اسلوب التفاوض الاسرائيلي» خطوة ثالثة بعد ذلك.

لقد وصل الدكتور هنري كيسنجر الى القدس المحتلة فأذا عليه ان يتفاوض مع مستويات متعددة ومختلفة واحيانا متصارعة

١- ليس هناك رجل واحد او امرأة واحدة يستطيع الدكتور هنري كيسنجر- بالتفاوض- ان يحل ويربط معه او معها وانما هناك تنظيمات وقوى وجماعات واحيانا افراد يتعين عليه ان يتحدث اليهم وان يسمع منهم.. فرئيسة الوزراء السيدة جولدا مائير مريضة في المستشفى وهي لا تستطيع ان تقابله اكثر من نصف ساعة يجلس فيها بجوار فراشها ويحاول ان يلتقط كلماتها المتقطعة!

وحتى في ابسط المسائل فانها تقول له وقد قالت ذلك له فعلا:

- لقد حصل حزب العمل- الذي تتزعمه- على اغلبية ضئيلة وهكذا فانني لا استطيع ان اتحرك الى بعيد.

ثم انني لم استطع بعد تشكيل وزارتي الجديدة بعد الانتخابات العامة وسوف اكون مضطرة الى ان آخذ في الاعتبار آراء كتل حزبية متعددة لا بد لها ان تدخل معي في وزارة ائتلافية: اذا كنا نستطيع ان نذهب الى اي مكان»!

واذا وجدت نفسي امام قرارات كبيرة فقد افكر في الدعوة لانتخابات عامة اخرى في اسرائيل على امل ان يعطيني الناس اغلبية اكبر استطيع على اساسها ان اتصرف بحرية اكثر..»

ثم تضيف جولدا مائير:

ـ انني مجاوزت الخامسة والسبعين ولست مستعدة ان آخذ مع تاريخي عملية تقليص حدود اسرائيل . . الى درجة لا تكفل أمنها!»

٢ـ و«يتفاوض» الدكتور هنري كيسنجر مع مجلس وزراء جولدا مائير، وهو مجلس وزراء انتهت ولايته ولا بد على اساس نتائج الانتخابات العامة ان يعاد تشكيله .

والاقطاب في هذا المجلس كل منهم برأي .

آلون له رأي ، وجاليلي له رأي ، وايبان له رأي ، وسابير له رأي ، وديان له رأي .

٣ـ و«يتفاوض» هنري كيسنجر مع زعماء كتل واحزاب . . وقد لا تكون لأي من هؤلاء فرصة لدخول الوزارة الجديدة ولكن كلا منهم يستطيع ان يجعل الكنيست ـ البرلمان ـ الاسرائيلي ساحة صراع رهيب حتى ازاء اي مسألة اجرائية ، ويضاعف من هذا الخطر تباين المشاعر لدى الرأي العام العادي في اسرائيل خصوصا بعد تجربة حرب اكتوبر وقد اظهرت ثغرات كثيرة في نظام الامن والاستعداد للحرب .

٤ـ ثم «يتفاوض» الدكتور هنري كيسنجر مع المؤسسة العسكرية في اسرائيل فدورها هناك ما زال كما كان بصرف النظر عما اصابها من رذاذ الوحل في اكتوبر ١٩٧٣ :

ولقد التقى كيسنجر في واشنطن قبل اسابيع برأس هذه المؤسسة حاليا وهو الجنرال موشى ديان ولكن هناك جنرالات وجنرالات يتحتم اقناعهم وعلى الدكتور هنري كيسنجر ان يتفاوض معهم اذا اراد .

٥ـ ثم «يتفاوض» الدكتور هنري كيسنجر مع الرأي العام الاسرائيلي وهو طرف رئيسي في مشكلة الامن ، لأن مشكلة الامن في اسرائيل هي مشكلة الحياة في اسرائيل ، ثم ان اصحاب الاصوات في اسرائيل هم بحكم

حجم السكان حملة السلاح في اسرائيل والتفاوض هنا علنا . .

وهكذا فان الدكتور هنري كيسنجر يدلي بتصريحات ويقطع على نفسه وعودا ويربط نفسه بالتزامات في كل مرة يدخل ـ اويخرج ـ فيها من اسرائيل .

. . . . .

. . . .

معنى ذلك ان الدكتور هنري كيسنجر لا يتفاوض في اسرائيل على مستوى واحد، وانما يتفاوض على مستويات متعددة وكل مستوى منها يطلب لنفسه ما يطلب ويأخذ لنفسه ما يأخذ وهذه هي الخطوة الثالثة في اسلوب التفاوض الاسرائيلي .

□

نتابع «اسلوب التفاوض الاسرائيلي» خطوة رابعة بعد ذلك، ولسوف نجد ان اسرائيل سبقت الى علم «التفاوض» الحديث واستوعبت قواعده ووضعتها في التطبيق العملي .

وتقول ابرز القواعد في علم التفاوض الحديث بما يلي :

١ ـ لا بد ان تكون هناك آراء متعددة مطروحة في نفس الوقت ذلك الآن تعدد الاراء بين الاعتدال والتطرف يوحي للاطراف الاخرى بنوع من صدق المواقف لان هذه الاطراف ترى وتسمع كل الاجتهادات تعبر عن نفسها بحرية .

ومع تعدد الاراء والاجتهادات فأن الاجهزة التي تقوم بالتفاوض تجد أمامها مجالا واسعا تتحرك فيه .

وهذه العملية في حد ذاتها تجعل الرأي او الاجتهاد النهائي الذي يتم الوصول اليه مقبولا لدى اوسع القطاعات لأن كلا منها يشعر ان له نصيبا فيما استقر الاختيار عليه .

٢ ـ البدء باستمرار باقصى مواقف التصلب والتعنت، سواء في

الاستراتيجية او التكتيك وربما تعلمت اسرائيل من الدكتور هنري كيسنجر نفسه قوله في كتابه عن «ضرورة الاختيار» ما نصه:

« ان نجاح اي طرف على مائدة المفاوضات يعتمد على قدرة هذا الطرف على المبالغة في وصف طلباته واهميتها الحيوية بالنسبة له.

ان السذج فقط هم الذين يبدأون على مائدة المفاوضات بعرض طلباتهم الحقيقية اي الحد الادنى الذي يقبلون به... انهم اذا فعلوا ذلك لا يستطيعون التراجع عن آخر كلمة قالوها.. وهذا يظهرهم بمظهر المتشددين المتصلبين الذين لا يفاوضون وانما يملون شروطهم!!»

٣ـ من القواعد العلمية للتفاوض ان لا يتعرض للتفاصيل ـ وليس للقرار النهائي فيه ـ شخص يملك سلطة واسعة ذلك لان هذا الشخص سوف يكون دائما مطالبا بتنازلات يعرف الذين يفاوضونه ان امرها على الارجح في يده ومن ثم فأن الالحاح عليه يكون مركزا ومكثفا.
ويرتبط بذلك ان تكون هناك مساحة محددة للحركة امام اي مفاوض ولا يكون في سلطته ان يخرج عنها ولا يعيبه في هذه الحالة ان يقول «ان القرار عند هذه النقطة يتجاوز صلاحياتي ولا بد لي ان اعود به الى سلطة اعلى اتلقى توجيهها».
٤ـ ان عملية التفاوض يجب ان تكون جهدا مشتركا لمؤسسات عديدة يستطيع الحوار بينها ان يقدم مشروعات متعددة لحل اي جزئية من جزئيات المشكلة المطروحة للتفاوض وان يعطي لهذه المشروعات عقلانية بعيدة عن العواطف والمشاعر.

وفي جنيف مثلا فان الوفد العسكري الاسرائيلي قدم في احدى الجلسات ثلاثة نماذج كاملة على الاقل عن تصوره لعملية الفصل بين القوات وبعد قليل تاهت المناقشة في البند ١ او ب او ج من النموذج الاول او الثاني او الثالث.

ولولا ان الوفد المصري هناك كان متنبها لغرقت المناقشة في حروف البنود وارقام النماذج!

ثم ان صدور المشروعات عن مؤسسات عديدة يتلافى محاذير الانفعال النفسي او العاطفي لدى اي فرد. من المبادىء القديمة في دبلوماسية اوربا في القرن الثامن عشر ذلك القول المأثور:

«ان مشاعر الامراء والوزراء تغلب مصالحهم احيانا.. ان البشر لا يتصرفون وفق قواعد للسلوك ثابتة وحازمة ولكنهم كثيرا ما يتأثرون في احكامهم بعواطف الساعة ومزاجها».

وهكذا فان البدائل في اسرائيل لا تضعها جولدا مائير ولا ايبان وانما تضعها اجهزة مشتركة من رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية والمخابرات العامة والمخابرات العسكرية ولجان الامن والدفاع في الكنيست الاسرائيلي وعدد من مراكز الدراسات الاستراتيجية في الجامعات او خارج الجامعات وهذه الاجهزة المشتركة مزودة بعشرات الخبراء المتخصصين في علم السياسة والصراع والتفاوض.

٥ـ ان الرأي العام في اي وطن يجب ان يكون شريكا ولو بالمتابعة في اي عملية تفاوض تؤثر على مستقبله وأمنه وصحيح كما يقول «مورجنتاو» ـ وكان من اكبر اساتذة العلوم السياسية المحدثين في امريكاـ من ان الرأي العام في النظم الديمقراطية يجعل مهمة المتفاوض اصعب لأن «الرأي العام يطلب ان يكون دبلوماسيوه ابطالا لا يسلمون للعدو ولو امام خطر الحرب كما انه يدمغ بالضعف كل من يساومون ولو حتى من اجل السلام»ـ مع ذلك فأن اشتراك الرأي العام ولو بالمتابعة في عملية التفاوض يعطي المتفاوض قوة تصميم حقيقية في الخارج كما انه يعطيه قوة اقناع حقيقية في الداخل.

.....

.....

معنى ذلك ان الدكتور هنرى كيسنجر سوف يجد وهو يتفاوض مع اسرائيل انه امام الاعتدال والتطرف في نفس الوقت، وامام تصلب وتعنت منذ اللحظة الاولى، وامام مساحة محدودة للحركة على اي مستوى، وامام بدائل ونماذج شاركت فيها مؤسسات، ثم هو امام رأي عام له وزنه حتى ولو كانت الاوهام غذاءه اليومي وهذا هو التطبيق العملي للعلم ـ الخطوة الرابعة في اسلوب التفاوض الاسرائيلي.

□

نتابع اسلوب التفاوض الاسرائيلي خطوة خامسة بعد ذلك.

ولقد الخص هذه الخطوة الخامسة والاخيرة في اسلوب التفاوض الاسرائيلي بعبارة واحدة هي:

ـ ما هو الثمن؟»

كل حركة لها ثمن. . . كل همسة لها مقابل

حتى اذا كانت الحركة اجرائية . . . وحتى اذا كانت الهمسة مجرد غمغمة يصعب ترجمتها الى معنى واضح محدد

والسوابق كثيرة

ولكن اللواحق التي ما زالت امامنا تشهد اكثر من غيرها.

ولقد برر الدكتور هنري كيسنجر نفسه حجم المساعدات العسكرية الامريكية لاسرائيل وكان في حدود ٢٣٠٠ مليون دولار بقوله:

ـ لقد كان ذلك لازما لاقناع اسرائيل بقبول وقف اطلاق النار دون ان تشعر بان امنها ومستقبلها في خطر».
كان ذلك في اكتوبر سنة ١٩٧٣.

وفي هـذه الايام، وعمليـة الفصل بـين القوات المتحـاربـة عـلى جبهـة السويس، موضوع تفاوض بين الدكتور هنري كيسنجر وبين اسـرائيل ـ فـأن الاخبـار من تل ابيب بـدأت تتحدث فعـلا عن : مقابـل سوف تحصـل عليه اسرائيل نظير قبولها بالفصل بين القوات. . . !»

□

ولقد يكون من الحق ان نتساءل :

ـ اذا كان «المقابل» عن وقف اطلاق النـار هو ٢٣٠٠ مليـون دولار من الاسلحـة ـ فما هـو حجم «المقابـل» نظير الفصـل بين القـوات؟ ـ ثم واهـم من ذلك كله : ما هو المقابـل نظير الانسحـاب الكامـل من كل الاراضي العـربية المحتلة في يونيو ١٩٦٧ واستعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين؟ .

□

ثم لقد نتذكر اخيرا ـ وبغـير تعصب او تمييز عنصـري ـ ان عقلية المـرابي اليهودي المسيطرة على ادب وفكر التيه اليهودي والتقاليد اليهودية ليست غريبة عن اصول علم التفاوض الحديث .

كـان المرابي دائـما يدعي الفقـر الشديـد . ويتعلل بخرابـه ودماره اذا لم يستردـ واذا لم يضاعف ـ ما لديه من اموال الربا الفـاحش وكان المـرابي يحتكر كل الاموال وتصبح بدائله المعروضة هي البدائل الوحيدة الممكنة .

ثم انه كان يصر دائما على ان تكون امواله التي يقرضها للاخرين مقابل رهون تسلم اليه مقدما ويخصم الربا الفاحش منها قبل سداد القرض نفسه .

ثم انه كان يتعامل مع كل منهم في الخفاء وفي غيبة الاخرين .

* * *

ثم ننتـظر حتى تتضح امـامنا القيمـة الحقيقية لنتـائج تفـاوض الدكتـور هنري كيسنجر .

ننتظر لنحكم بعد ان تخفت الحركة ـ حركة الطائرات الذاهبة العائدة ـ ويتضح المضمون.

ننتظر حتى تتلاشى المؤثرات الصوتية والضوئية للمشهد الذي رأيناه هذا الاسبوع ونسمع صوت الحوار وحده بغير ضجيج مدخول عليه بالقصد، او بالمصادفة!

وبعد ذلك نستطيع ان نحكم!



الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة



توزيـع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
ص.ب ٨٣٧٥
تلفون ٣٤٤٣٤٦
بيروت - لبنان